العارف ذو الثفنات

قراءة تحليلية للأبعاد المشرقة من حياة سماحة آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى السبزواري



ضياء السيد عدنان الخباز القطيفي

مكتبة فدك




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

العارف ذو الثفنات

قراءة تحليلية للأبعاد المشرقة من حياة سماحة آية الله العظمى

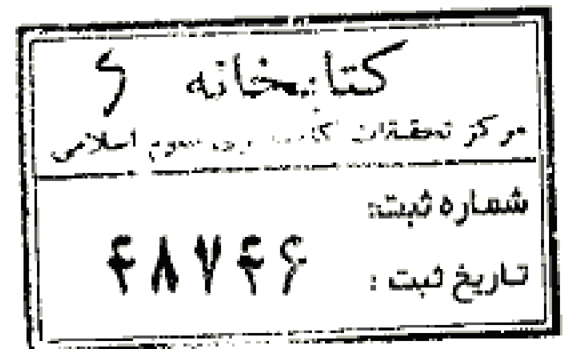
السيد عبد الأعلى السبزواري



تأليف

ضياء السيد عدنان الخباز القطيفي

مكتبة فدك



العارف ذو الثفنات

السيد ضياء الخباز القطيفي



الناشر: باقيات

المطبعة: وفا

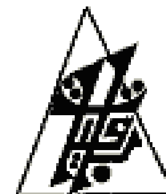
الكمية: ١٠٠٠ نسخة

الطبعة: الثانية

القطع: وزيري

عدد الصفحات: ٢٢٠ صفحة

تاريخ الطبع: ٢٠١٠م - ١٤٣١هـ.ق



شابك: ٩-٤٥-٦١٦٨-٩٦٤-٩٧٨

عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٢٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٦،١١٧ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤

مكتبة فدك

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ من جملة القضايا التي دعا إليها الشارع المقدس، وأكّدت عليها روايات أهل البيت عليهم السلام : قضية تعظيم العلماء الربانيين، الذين حملوا بين جنباتهم معارف محمد و آله عليهم السلام .

ولا يخفى أن التعظيم عنوان عام، وله مصاديق كثيرة يتحقق من خلالها، فقد يتحقق بزيارة العالم الرباني و التزود من معارفه، وقد يتحقق بطباعة بعض بحوثه أو مؤلفاته، و قد يتحقق بإحياء ذكره، و نشر مثالياته و قيمه، من أجل أن يتعرف الآخرون على معالم شخصيته، فيتخذونه قدوة و أسوة.

و من هذا المنطلق: أخذت مكتبة فدك على عاتقها، أن تقوم بنشر هذا الكتاب (العارف ذو الثفنات) الماثل بين يدي القارئ الكريم، والذي يتناول سيرة أحد أعاظم علماء الطائفة (أعلى الله درجاتهم) في القرن الأخير، ألا وهو سماحة الآية العظمى، الفقيه البصير، و المفسر الخبير، و العارف الكبير، السيد عبد الأعلى السبزواري (طيب الله ثراه) فإنّ حياته الشريفة ملأى بالقيم السامية، و المبادئ الفاضلة، و الصفات الكريمة،

و إنَّ حياةً مثل هذه الحياة لتستحق الإشادة و التعظيم بكل جدارة.

و غاية ما نتوخاه بطباعتنا لهذا الكتاب، أن نكون قد فتحنا نافذة جديدة، يطل من خلالها القراء الكرام على السيرة المعطاءة لهذا الرجل الملكوتي، عسى و لعلّ أن تترشح عليهم بعض فيوضاته القدسية، آملين بعملنا هذا أن نكون من جملة الداخلين في حريم شفاعته إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

مكتبة فدك



الافتتاحيّة

«الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ في حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ... هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ».

الإمام علي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإهداء

سيّدتي وسيّدة الكونين ،

ومظهر الولايتين التكوينيّة والتشريعيّة



أضع بين يديك القدسيّتين هذه السطور العاثرة ، ورجائي أن تكون طريقاً إلى الشفاعة.

المتعلّق بأذيال رجاء شفاعتكِ

ضياء


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كتاب كريم

شرّفنا به سماحة آية الله المعظّم

الشيخ محمّدصادق السعيدي الكاشمري ﷺ[1]

عند تفضّله بمطالعة مسودّة الكتاب قبل طبعته الأُولى

بسم الله خير الأسماء

حضرة... السيّد ضياء السيّد عدنان القطيفي.. المحترم

بعد التحيّة والسلام، وإهداء الأدعية الخالصة لمزيد تأثيراتكم الربّانيّة: لاحظت كتابكم الكريم، والسفر القيّم، الجدير جدّاً بأن يسمّى (نفحات الباري في حياة السيّد السبزواري ﷺ)، والواجب أن نحمد الله تبارك وتعالى على تلك العنايات الرحمانيّة، والمواهب الإلهيّة الشاملة لكم، رزقك الله شكر الواهب، وبارك لك في الموهوب، وعلى الخبير سقطنا.

وليس عندي شيء زائداً على ما سطّرتم، إلّا أن تضيفوا في الكلمة المرقومة في الذيل، في ناحية تضلّع السيّد في المعرفة بلحن القول من كلّ إمام ﷺ: أنّ السيّد الأستاذ كثيراً ما يقول لي إذا حُذف من كلّ حديثٍ السند والإمام المرويّ عنه، وقُرئ عليَّ نفس متن الحديث، أنا متمكّن من أن أقول: إنّ هذا المتن صدرَ من أي معصوم من المعصومين (عليهم

(١) ستوافيك ترجمته ﷺ في الصفحة: ١١٦.

الصلاة والسلام).

وهذه دعوى ليست بعيدة عن السيّد الأستاذ ﷺ ، ولم يكن في قبولها منه (طاب ثراه) أي صعوبة وإشكال ، وهو في هذه أتعب من بعده ، وأنسى من قبله ، أسكنه الله في بحبوحات جنّاته ، ورزقنا الاقتداء بهداه ، وسلوك صراطه المستقيم ، صراط ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ﴾

حرّره العبد الآثم

محمّدصادق سعيدي كاشمري



بتاريخ : ١٣٧٣/١٢/١٧هـ. ش

مطابق : ٧ / شوّال / ١٤١٥هـ. ق

تقديم وتقريض

بعد تفضّل سيّدنا الأُستاذ العلّامة الحجّة
السيّد محمّد رضا الأعرجي[1] (دامت فوائده)
بمطالعة مسودّة الكتاب ، أبت نفسه الكريمة
إلّا تقديمه وتقريضه . فله جزيل الشكر والثناء

---

(١) هو سماحة الأُستاذ المقدّس العلّامة الحجّة السيّد محمّدرضا الأعرجي الفحّام (طيّب الله تربته) ، المولود عام ١٣٦٨هـ في كربلاء المقدّسة : وفيها نشأ وعلى أيدي فضلائها قرأ مقدّمات العلوم ، وحضر السطوح العليا .

ثمّ هاجر منها إلى قم المقدّسة ، وحضر الدراسات العليا عند أساطين أساتذتها ، فأخذ الأُصول عن السيّد الروحاني ﷺ ، وأخذ الفقه عن جماعة ، كالسيّد الگلپايگاني والسيّد شريعة مداري والشيخ مرتضى الحائري ﷺ ، وكان على علاقة وثيقة جدّاً مع هذا الأخير ، وقد استفاد من مجالسه الخاصّة كثيراً ، كما كان إلى جانب اشتغاله بالتحصيل والتدريس مكثراً في التأليف والتصنيف ، وقد طبع بعض مؤلّفاته في حياته ، ككتابه الشريف « أحسن الجزاء في إقامة العزاء على سيّد الشهداء » ، و« أفضل الأعمال الصلاة على النبيّ والآل » ، وبعض الرسائل الفقهيّة ، كرسالته النفيسة « نتائج الفكر في بيان ولاية الأب على البكر » و« إجزاء الأغسال عن الوضوء » ، وغير ذلك كثير ، وبقي البعض الآخر منها مخطوطاً ، ككتابه « نتائج العقول في شرح كفاية الأُصول » الواقع في ستّة مجلّدات كبار ، كما رأيتها عنده ﷺ ، وكتابه الأخير « دلائل الأحكام » ، وهو فقه استدلالي على كتاب الصوم ، وقد رأيته في مجلّدين كبيرين جدّاً ، وغير ذلك من مؤلّفاته القيّمة . ⇦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فضّل مداد العلماء على دماء الشهداء والمجاهدين ، وقرن شهادتهم بشهادة الملائكة المقرّبين .
والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، محمّد وآله الأئمّة المعصومين ، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين .

أمّا بعد :

فحقّاً إنّ في دراسة حياة علمائنا الأكابر ، وفقهائنا أولي المفاخر ،

⇦ وكانت له ﷺ إجازات كثيرة في الرواية ، فهو يروي عن السيّد محمّدمهدي الأصفهاني ﷺ صاحب «أحسن الوديعة» ، وعن العلّامة الشيخ آقا بزرك الطهراني ﷺ ، وعن العلّامة الشيخ فرج العمران القطيفي ﷺ ، وعن الآيتين : الشيخ مرتضى الأردكاني والشيخ محمّد الإمامي الخوانساري ﷺ ، وفي بعض هذه الإجازات ـ كما رأيتها عنده ﷺ ـ تصريح باجتهاده وعلوّ منزلته .

وقد تشرّفت بالحضور عنده مدّة مديدة من الزمان ، فقرأتُ عنده قسماً كبيراً من كتاب «اللمعة» ، وشطراً وافياً من مباحث ألفاظ «الكفاية» ، وتمام مباحث القطع من «الرسائل» ، وجزءً كبيراً من خيارات «المكاسب» ، وكتاب «قوانين الأُصول» من أوّله إلى آخر مباحث العموم والخصوص ، فكان لا ينقطع عن الدرس يوماً واحداً ، بل حتّى لو لم يمكنه التدريس في بيته كان يأتيني بنفسه ويدرّسني في محلّ سكناي ، وكان ﷺ شديد الولاء لأجداده المعصومين ﷺ ، وشديد العداء لأعدائهم (شدّد الله عليهم لعنته وعذابه) ، كما كان سريع الدمعة وغزيرها ، فكان لا يشرب الماء ـ كما رأيته ـ إلّا وتذكّر عطش الحسين ﷺ ، وتغرورق عيناه بالدموع ، ولا زلت أتذكّره عند حضوري عنده أحكام الميّت من كتاب اللمعة ، وكيف كان يدرّس المطالب المذكورة ودموعه كاللئالئ على صحن خدّيه ، فرحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، وحشره مع محمّد وآله الأطهار .

وقد توفّي (طيّب الله ثراه) في اليوم التاسع أو العاشر من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢١هـ ، وبفقده فقدت أُستاذاً ومربّياً فاضلاً .

الذين نهجوا مناهج التقى والسداد ، واقتفوا آثار أئـمّة الهـدى ، الذيـن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، فوائد جمّة ، وعوائد مـهمّة ، وعبراً يعتبر بها أُولوا الأبصار ، ودروسـاً نـافعة يـتعلّمها أُولوا الأسـماع الواعية .

ومن الذين كانوا يستحقّون أن تُفرد في أحـوالهـم وكـيفيّة سـيرهم وسلوكهم رسالة مستقلّة ، ويؤلّف كتاب مفرد ، هو : العلّامة الفقيه الورع الزاهد ، الذي قلّ وجود نظيره في عصرنا الحاضر ، مَن ترك الدنيا وراء ظهره ، وأخذ بالمعاملة مع ربّه ، في سرّه وجـهره ، السـيّد عـبدالأعـلى السبزواري (عليه شآبيب رحمة الباري) ، الذي عاش حـميداً ، ومـات سعيداً ، ونال درجة الشهداء ، حيث كرّس حياته الطيّبة في العلم والعمل بإخلاص ، حتّى قضى نحبه ولقي ربّه ، بعد ما تجرّع الغصص ، وتحمّل الآلام الروحيّة من طاغوت زمانه ، وفرعون عصره ، رأس عصابة الكـفر والإلحاد ، حزب البعث في بغداد ، الذي بلغ ظلمه عنان السماء ، حيث رأى بأمّ عينيه قتل الآلاف من النفوس الزكيّة والأبرياء ، ونفي الأتـقياء والعلماء ، وملء السجون مـن الصـلحاء ، والأطـفال والنسـاء ، وفسـحَ المجال للأشقياء للعبث والفساد في البلاد ، وكلّ ذلك بمرأى ومسـمع منه ، ومع ذلك لم يألُ جهداً في الدفاع عن الدين والإسـلام ، وإحـياء شريعة سيّد الأنام جزاه الله خير الجزاء في الدفاع عن الدين والإسلام ، وإحياء شريعة سيّد الأنام ، جزاه الله خير الجزاء ، ورفع منزلته في أعلى منازل السعداء .

نعم ، كان من اللازم على أرباب القلم ، القيام بتأليف يتضمّن سيرة سيّدنا المترجم ، وقد حفّزت الهمّة بسيّدنا الأديب ، الفـاضل الكـامل ، والموفّق اللبيب المفاضل ، زبدة المحصّلين ، ربيت بيت العلم والشرف ،

السيّد ضياء القطيفي ـ دام علاه، وبلغ مناه ـ فألّف هذا الكتاب الشريف، والسفر اللطيف، المتضمّن لحياة سيّدنا الغطريف من مبدأ أمره إلى مآله.

فجزاه الله تعالى بجدّه عن جدّه خير الجزاء، وأحيا ذكره فأحيا الله قلبه بنور العلم والعمل.

ونسأل الله له دوام التوفيق، فإنّه خير معين ورفيق، طول العمر إن شاء الله تعالى.

حرّره الراجي عفو ربّه الغني

محمّد رضا الحسيني الحائري الفحّام

عفى عنه الملك العلّام

٣ / شهر رجب المرجّب / سنة ١٤١٥هـ

قم المقدّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فضّل مداد العلماء على دماء الشهداء والمجاهدين وقرن شهادتهم بشهادة الملائكة المقربين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الأئمة المعصومين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى

أما بعد، فحقيق أن نحيي دراسة حياة علمائنا الأكابر وفقهائنا [illegible] الذين نهجوا مناهج التقى والسداد واقتفوا آثار أئمة الهدى الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فوائد جمة وعوائد مهمة ومحبوبة يغتنم بها أولو الأبصار ودروساً نافعة يتعلمها أولو الأسماع الواعية، ومن الذين كانوا يستحقون أن تفرد في أحوالهم وكيفية سيرهم وسلوكهم رسالة مستقلة وكتاباً مفرداً هو العلامة الفقيه الورع الزاهد الذي قلّ وجود نظيره في عصرنا الحاضر من ترك الدنيا وما فيها والأخذ بالمعاملة مع ربه في سره وجهره السيد عبد الأعلى السبزواري عليه سحائب رحمة الباري الذي عاش حميداً ومات سعيداً ونال درجة الشهداء حيث كرّس حياته الطيبة في العلم والعمل بإخلاص حتى قضى نحبه ولقي ربه بعد ما تجرع الغصص وتحمل الآلام الروحية من طاغوت زمانه وفرعون عصره رأس عصابة الكفر والإلحاد حزب البعث في بغداد الذي بلغ ظلمه عنان السماء حيث رأى بأم عينيه قتل الألوف من النفوس الزكية والأبرياء ونفي الأتقياء والعلماء وملء السجون من الصلحاء والأطفال والنساء وفسح المجال للأشقياء للعبث والفساد في البلاد وكل ذلك بمرأى ومسمع منه ومع ذلك لم يأل جهداً في الدفاع عن الدين والإسلام وإحياء شريعة سيد الأنام جزاه الله خير الجزاء ورفع منزلته في أعلى منازل السعداء، نعم كان من اللازم على أرباب القلم القيام بتأليف يتضمن سيرة سيدنا المترجم وقد صرفت الهمة لسيدنا الأديب الفاضل والأديب الكامل والموفق اللبيب الفاضل زبدة المحصلين ربيب بيت العلم والشرف السيد ضياء [illegible] دام علاه وبلغ مناه فألف هذا الكتاب الشريف والسفر اللطيف المتضمن لحياة سيدنا [illegible] من مبدئه إلى مآله فجزاه الله تعالى بجده عن جده خير الجزاء وأحيى ذكره كما أحيى الله قلبه بنور العلم والعمل ونسأل الله له دوام التوفيق فإنه خير معين ورفيق وطول العمر إن شاء الله تعالى

حرره الراجي عفو ربه الغني الملك العلام
محمد رضا الحسيني الحائري الإمام عفي عنه
٢ / شهر رجب المرجب في قم المقدسة ١٤١٥ هـ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حضرة العلامة المتضلع البارع الموفق السيد ... السيد عدنان القطيفي المحترم

بعد التحية والسلام والدعاء الخالص لكم بمزيد توفيقاتكم الربانية لاحظت كتابكم الكريم والقيم (١)

الجديد هذا باسم (النفحات الباري في حياة السيد البزداري قدس سره) والمرجو من الله ان يجزيكم

تبارك وتعالى على تلك العنايات الرحمانية والمواهب الالهية التي منحها لكم ووفقكم بها الشكر الواجب

ومبارك لكم في المذهب ومع المحبين المنتظرين وليس عندي شيء زائداً على ما ذكرتم الا ان الضعيف في

الكلمة المرقومة في الذيل في ناحية تفضيل السيدة ... بلحاظ القول من كل امام عليهم السلام ان السيد الاجل [illegible]

كاشف ... القول لو [illegible] من كل ... السند الامام المروي عنه وقرئ عليه نفس متن الحديث

فانا متمكن من ان اقول ان هذا المتن صادر من احد المعصومين عليهم الصلوة والسلام وهذه

دعوى ليست بعيدة من السيد الاجل قدس سره ولكن في قبولها من طرف ... صعوبة وعلى كل حال

فهو في هذا المقام ... من بعده ... في كتبه ... ودرر ... للاقتداء

وسلوك صراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والشهداء والصديقين وحسن اولئك رفيقا

حرره العبد الآثم محمد ... بتاريخ ١٧/١٢/٧ ... ١٤١٥ هـ

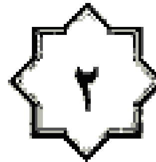
مقدّمة
الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين ، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين ، إلى قيام يوم الدين .



سبق وأن طُبِعَ هذا الكتاب تحت عنوان: (صفحات مشرقة من حياة الإمام السبزواري ﷺ) وذلك قبل أحد عشر عاماً تقريباً ، ورغم أنّ طبعته تلك كانت مليئة بالأخطاء المطبعيّة ـ لأسباب لا أُحبّ الإفصاح عنها ـ إلّا أنّه قد شاء الله تعالى له التوفيق ، فنفذت جميع نسخه التي تكفّل الناشر بتوزيعها ، ولعلّ سرّ ذلك ـ مضافاً إلى بركة الروح الملكوتيّة للسيّد السبزواري ﷺ ـ يعود إلى أنّ الكتاب جاء تعريفاً لمعالم وأبعاد شخصيةٍ مباركةٍ ، عشقها الكثيرون وقدّسوها على مختلف توجّهاتهم الفكريّة والاجتماعيّة .



وشاء الله تعالى بعد مضيّ كلّ تلك السنوات أن يطبع هذا الكتاب طبعة جديدة ، لتكون طبعة (مزيدة ومنقّحة) كما يعبّرون ، فهي كما اشتملت على الكثير من الإضافات ، كذلك لم تسلم من الحذف والتهذيب ، وإن كان هذا الأخير قليلاً جدّاً ،

إذ كان غرضي التحفّظ على هيكليّة الكتاب في صورته الأُولى، لأنّه يحكي مرحلة ـ أعتزّ بها ـ من مراحل الحياة.



وقد حاول هذا الكتاب أن يعكس بعض الجوانب المشرقة من حياة السيّد ﷺ، وليس من اللازم أن يكون قد وُفق لذلك، إذ أنّ الإحاطة بمثل حياة هذا العظيم أمرٌ في غاية العسر والصعوبة، لأنّه ﷺ من جهةٍ كان شديد التحفّظ على خفايا وأسـرار حياته، ومن جهةٍ أُخرى فإنّي لم أحظَ بشرف الجلوس معه ﷺ، فضلاً عن مصاحبته ومخالطته، ولهذا وذاك كانت الكتابة حول هذه الحياة المباركة أمراً غاية في العسر.



ولستُ أُخفي قارئي العزيز: أنّ بعض من يخلص لي المودّة، قـد لامـني عـلى الكتابة في مثل هذا الموضوع، وحبّذ لي أن أستنفذ كلّ جهدي في الكتابات العلميّة الصرفة، وهي وجهة نظر أحترمها وأُقدّرها، وإن لم أكـن عـلى قـناعة بـها، وذلك لأمرين:

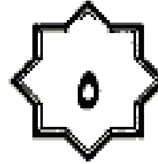
الأمر الأوّل: اعتقادي أنّ الكتابة حول سيرة علماء الطائفة المحقّة (أعـلى الله كلمتهم) هي أقلّ حقوقهم التي يجب أداؤها لهم، فإنّ في ذلك تقديراً لجـهودهم تجاه أُمّتهم، وتجليةً لمعالم العظمة عندهم، وتخليداً لحياتهم ـ التي ترتبط بها حياة المجتمعات الفاضلة ـ ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً** ﴾[1].

---

(١) المائدة ٥: ٣٢.

الأمر الثاني: إنّ من دواعي الأسف الشديد في مرحلتنا الزمنيّة، غياب المثاليات الرائعة، والأخلاق الفاضلة، ليس عن سلوكيات عموم الأفراد فحسب، بل حتّى في حدود الدائرة الخاصّة التي يفترض فيها أن تكون مركزاً لتهذيب النفس وسموّ الأخلاق.

وهذا ما يستدعي تجلية المثاليات ومحاسن الأخلاق، التي كان يتحلّى بها علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، لعلّ ظلالها تنعكس على واقعنا البائس.



وختاماً: أرفع خالص شكري لجميع الإخوة الأعزاء، الذين طالما أصرّوا على إعادة طباعة هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى أن يوفّقهم وإيّانا لما يحبّ ويرضى، وأن يرزقنا جميعاً شفاعة سيّد هذا الكتاب رحمه الله، إنّه سميع مجيب، والحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة والتحيّة على محمّد وآله الطاهرين، سيّما سيّدتنا وشفيعتنا كريمة العترة المعصومين (عليها صلوات المصلّين).

ضياء السيّد عدنان الخبّاز

قم المقدّسة ـ حرم آل محمّد

١٤٢٧/٣/١٣هـ


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمة الطبعة الأُولى

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وآله الطيّبين الطاهرين، واللعن الدائم المؤبّد على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

عشقتُ كثيراً من المراجع والعظماء عشقاً ينطلق من موقع التأسّي والإقتداء، وتفرضه علاقة الانتماء الفكري، وتشدّه روابط الانتماء الروحي، وغالباً ما تكون علاقة (التقليد) منطلقاً فعّالاً لإذكاء وهج هذا العشق.

ومن هنا كان عشقي للسيّد السبزواري ﷺ ـ والذي لم أحظَ بشرف رؤية هيكله النوري إلّا من خلال نظرة خاطفة له في محراب صلاته ـ عشقته (فقيهاً كبيراً)، و(مفسّراً جليلاً)، عشقته (عالماً ربّانياً مرتبطاً بالله ودالاًّ عليه)، عشقتُ فيه (الشخصيّة القويّة)، و(العقيدة المتحمّسة)، و(المسيرة الحافلة بالعطاء).

فهيمن على كلّ ذرّات وجودي، ولم أجد ما أعبّر به عن ذلك إلّا كتابة هذه السطور العاثرة.

منهجيّة البحث:

وقد جاءت منهجيّة البحث بهذه الهيكليّة:

الفصل الأوّل:

وقد تضمّن اثني عشر جانباً:

الأوّل: الجانب الشخصي.

الثاني : الجانب العبادي .

الثالث : الجانب الأخلاقي .

الرابع : الجانب العرفاني .

الخامس : الجانب الغيبي .

السادس : الجانب السياسي .

السابع : الجانب العلمي .

الثامن : الجانب الفقهي .

التاسع : الجانب الأُصولي .

العاشر : الجانب التفسيري .

الحادي عشر : الجانب الشعري .

الثاني عشر : الجانب المرجعي .

وفي ضمن كلّ جانب من هذه الجوانب ، وقفنا وقفات سريعة ، وأشرنا بمؤشّرات خاطفة .

الفصل الثاني :

وقد تضمّن ثلاثة جوانب :

الجانب الأوّل : السيّد السبزواري ﷺ إلى عالم الملكوت .

الجانب الثاني : السيّد السبزواري ﷺ في كلمات الأعلام .

الجانب الثالث : السيّد السبزواري ﷺ في مواكب الشعراء .

ملاحظات وتنبيهات

الملاحظة الأُولى: تمّ التصرّف في الشكل الصياغي لبعض النصوص الواردة في الكتاب، مع التحفّظ بالقدر الممكن على روحها ومضمونها.

الملاحظة الثانية: تمّ ضبط المصادر في ضمن الكتاب، إلّا في بعض الموارد القليلة جدّاً.

الملاحظة الثالثة: قد تجد تفاوتاً في لغة الكتاب من جانب إلى آخر، يعود إلى أحد أمرين:

الأمر الأوّل: طبيعة البحث.

الأمر الثاني: تفاوت المدّة الزمنيّة في الكتابة.



وقفة شكر

وفي نهاية المطاف أقف وبكلّ إكبار وقفة شكر وثناء لكلّ من ساهم في إعداد هذا الكتاب وإخراجه، وأخصّ منهم:

- سماحة آية الله الشيخ السعيدي الكاشمري ﷺ، الذي تفضّل علينا بمراجعة الكتاب وملاحظته.

- فضيلة الأُستاذ العلّامة المقدّس السيّد محمّدرضا الأعرجي، الذي قام بتقديم الكتاب وتقريضه.

- فضيلة العلّامة الأُستاذ الأخ السيّد منير الخبّاز -دام موفّقاً- الذي قام بإبداء ملاحظاته القيّمة على موارد النظر في الكتاب.

- الشاعر الكبير فرات الأسدي، الذي قام بتهيئة الملف المخطوط لمجلّة الموسم المتعلّق بالسيّد السبزواري ﷺ.

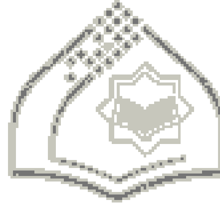
وأخيراً أرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، مكتوباً في صحائف الأعمال، بحقّ محمّد وآله الطاهرين.

والحمد لله ربّ العالمين

ضياء السيّد عدنان الخبّاز

١٤١٦/١٢/٤هـ

قم المقدّسة



الفصل الأوّل



الأوّل: الجانب الشخصي

الثاني: الجانب العبادي

الثالث: الجانب الأخلاقي

الرابع: الجانب العرفاني

الخامس: الجانب الغيبي

السادس: الجانب السياسي

السابع: الجانب العلمي

الثامن: الجانب الفقهي

التاسع: الجانب الأُصولي

العاشر: الجانب التفسيري

الحادي عشر: الجانب الشعري

الثاني عشر: الجانب المرجعي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الجانب الشخصي

١ ـ نسبه :

هو سماحة آية الله العظمى السيّد عبدالأعلى ، خلف العلّامة المقدّس السيّد علي رضا ، نجل السيّد عبدالعليّ ابن السيّد عبدالغني ابن السيّد محمّد ابن السيّد حسين ابن السيّد محمّد ابن السيّد عليّ بن مسعود بن إبراهيم بن حسن بن شرف الدين بن مرتضى بن زين العابدين بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمّد شمس الدين بن أحمد بن عليّ بن محمّد « أبو الغنائم » ابن « أبو الفتح » الأخرس ابن أبي محمّد إبراهيم بن أبي القيثان بن عبدالله بن الحسن بركة بن أبي الحسن معصوم بن أبي الطيّب أحمد بن الحسن بن محمّد الحائري بن إبراهيم المجاب بن محمّد العابد ابن الإمام موسى بن جعفر بن محمّد الباقر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام [١].

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا

٢ ـ ولادته :

وُلد قدس سره في يوم الولاية الكبرى « عيدالغدير الأغرّ » الثامن عشر من شهر ذي

---

(١) مجلّة الموسم : الملفّ الخاص بالسيّد السبزواري قدس سره ، نقلاً عن :

ـ المشجر الوافي في السادة الموسويّة : ١/٦٣ ـ ٦٩.

ـ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب : ٢٢٨.

الحجّة الحرام، عام ١٣٢٨هـ[1].

وكان ميلاده الشريف في مدينة «سبزوار»، وهي مدينة في الشمال الشرقي من إيران، في ولاية «خراسان»، وتقع إلى الغرب من «نيسابور»، وقد ضُبطت في بعض المعاجم اللغوية بـ«سبزور» بدون ألف بعد الواو.

وهي مدينة عريقة في التاريخ، تخرّج منها الكثير من فطاحل الفقهاء والفلاسفة والمتكلّمين.

وكأنّ ميلاده جاء لينبئ عن سموّ قدره، وعظم مكانته؛ إذ أنّ ميلاده جاء مقترناً بيوم تتويج خليفة الله في أرضه «عليّ بن أبي طالب عليه السلام» إمرة المؤمنين، في السنة العاشرة من الهجرة المباركة.



٣ـ أسرته:

ينتمي السيّد السبزواري قدس سره إلى أسرة علميّة عريقة، حفلت بالكثير من رجالات العلم وكبار المفكّرين.

حتّى قيل: إنّ هذه الأسرة الشريفة لا يمرُّ بها عصر من العصور إلّا وفيها أحد رجالات العلم المجتهدين.

ومن المناسب في المقام أن نذكر بعض أعلام هذه الأُسرة:

---

(١) ضُبط عام ولادته في الذريعة: ٢٨١/١٨ بسنة (١٣٢٩هـ)، وفي الملف الخاصّ من مجلة الموسم بسنة (١٣٢٦هـ)، نقلاً عن هامش مسجّل على أحد كتبه، إلّا أنّنا رجّحنا الضبط المذكور في المتن؛ لأنّه هو التاريخ المنقول عن السيّد قدس سره نفسه، وقد نقله عنه مباشرة سماحة سيّدنا الأُستاذ الأعرجي (طيّب الله ثراه) في كتابه المخطوط: «جلاء البصر في تراجم مجتهدي القرن الرابع عشر».

١ ـ والد صاحب الترجمة

هو سماحة العلّامة المقدّس، الزاهد الورع التقيّ، السيّد علي رضا الموسوي السبزواري ﷺ، كان من أكابر علماء «سبزوار» المقدّسين المشهورين بالورع والتقوى.

٢ ـ عمّ صاحب الترجمة

وهو سماحة العلّامة الكبير، والخطيب الشهير، السيّد عبدالله الموسوي السبزواري ﷺ، المعروف بالبرهان، المولود عام ١٣٠٠هـ، والمتوفّى عام ١٣٨٤هـ.

ذكره الأميني في «معجم رجال الفكر والأدب» فقال عنه:

«عالم جليل، فاضل خطيب، متكلّم متبحّر، مؤلّف بارع، من أعلام المنبر والخطابة، ومن سلالة علويّة شريفة معروفة بالتقوى والمجد.

هاجر إلى النجف، وتخرّج على أعلامها في الفقه والأُصول والتفسير والكلام، وأصبح من رجال الفضل المشاهير، وأعلام الخطابة والوعظ، والإرشاد والتأليف.

له: رسالة في البداء، الكوكب الأسعد في مولد سيّدنا محمّد ﷺ، التقريرات، غاية الإفادة في أسرار الشهادة، حقيقة الإبداع في تفسير كلمة الاسترجاع، اللطمة على منكري العصمة»[1].

٣ ـ أخو صاحب الترجمة

وهو سماحة العلّامة المجتهد، آية الله السيّد فخر الدين الموسوي السبزواري ﷺ، المتوفّى عام ١٤٠٢هـ، أحدُ مفاخر مدينة «سبزوار».

وقد نشأ السيّد السبزواري ﷺ بين أحضان هذه الأُسرة، أحضان العلم والفضيلة، والطهر والقداسة، حتّى اخضرّ عوده، وتبرعم ساعداه على العلم والتقوى، فكان

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب: ١/٢٤٠.

مثالاً حيّاً لأعلام أُسرته وأجداده الطاهرين[١].

٤ ـ عائلته:

تزوّج السيّد السبزواري ﷺ بزوجة واحدة، تنتمي في نسبها إلى أُسرة علميّة معروفة، وهي أُسرة المدرّسي، فأخوها هو سماحة العلّامة المرحوم السيّد كاظم المدرّسي[٢]، وكانت من النساء الفاضلات الأديبات.

وقد أنجبت له هذه الزوجة الصالحة بنتاً واحدة تزوّجها صاحب الفضيلة السيّد حسين العليّ الشاهرودي[٣] سبط المرجع الديني السيّد محمود الشاهرودي ﷺ.

وثلاثة من الذكور، وهم:

١ ـ سماحة العلّامة الحجّة السيّد محمّد السبزواري ﷺ.

المولود في العاشر من شهر صفر عام ١٣٦٤هـ، والمتوفّى في شهر ذي القعدة عام ١٤١٤هـ، تربّى منذ طفولته في حجر والده المقدّس، فدخل الكتاتيب، وتعلّم القراءة

---

(١) أُسرة السيّد السبزواري ﷺ تُعرف بأُسرة «الأفقهي»، ولكن تبعاً للعادة الجارية في النجف الأشرف في نسبة كلّ شخص إلى بلاده لُقّب السيّد ﷺ بالسبزواري.

(٢) هو والد الكاتبين المعروفين: العلّامة السيّد محمّدتقي، وسماحة السيّد هادي المدرّسي.

(٣) هو سماحة السيّد حسين الشاهرودي نجل العلّامة المقدّس المرحوم السيّد جواد العليّ الشاهرودي ﷺ صاحب الكتاب المشهور «آداب الحرمين»، وسبط المرجع الكبير سماحة آية الله العظمى السيّد محمود الشاهرودي ﷺ.

ولد في مدينة النجف الأشرف سنة ١٣٧٤هـ، وفيها أكمل دراسة مرحلتي المقدّمات والسطوح، وبعدها حضر الأبحاث العالية عند العلمَين الكبيرين: السيّد الخوئي والسيّد السبزواري ﷺ، وبقي مستمراً في الحضور عندهما حتّى اعتقل سنة ١٤١١هـ بعد أحداث الانتفاضة الشعبانيّة، ولم يعلم خبر شهادته إلّا بعد سقوط النظام البائد.

والكتابة ، ثمّ آثر الالتحاق بقافلة أجداده وأسلافه ، فانخرط في سلك الحوزة العلميّة في النجف الأشرف ، حتّى أنهى المقدّمات عند أساتذة أكفاء كلّهم مهرة في فنّهم ، بإشراف من والده المقدّس ، ودخل في مرحلة السطوح عند كبار الأساتذة الأكفاء ، كآية الله العظمى ، المرجع الديني الكبير ، الميرزا جواد التبريزي ـ دام ظلّه ـ وآية الله الشيخ محمّدصادق السعيدي ، وآية الله الشيخ صدرا البادكوبي ﷺ ، الذي كان له أكبر الأثر على شخصيّة الفقيد الراحل .

وبعد أن أنهى كلتا المرحلتين ، بدأ الحضور في الأبحاث العليا عند أساطين الحوزة ، فحضر بحث الإمام الخوئي ﷺ فقهاً وأُصولاً ، وحضر أبحاث آية الله العظمى الميرزا باقر الزنجاني ﷺ ، إلّا أنّ معظم استفادته كانت من درس والده المقدّس السيّد السبزواري ﷺ ، الذي أغدق عليه من فيض معارفه وفنون علومه فقهاً وأُصولاً وفلسفة وتفسيراً وعرفاناً وكلاماً ، حتّى حصل على الملكة القدسيّة ، والدرجة العليّة ، مجازاً من والده المقدّس .

وكان إلى جانب اشتغاله بالدرس والتحصيل مشتغلاً بالتدريس وتربية الطلبة المحصّلين ، فكان من أساتذة الحوزة في النجف الأشرف على مستوى السطح العالي ، ولمّا هاجر من العراق إلى إيران إثر الانتفاضة الشعبانيّة المباركة بدأ التدريس على مستوى البحث الخارج .

إلى أن اختاره الله لدار كرامته ، إثر حادث مؤلم بين مدينة قم المقدّسة وطهران ، في شهر ذي القعدة عام ١٤١٤هـ ، تاركاً للحوزة خلفه الصالح ، ولده المهذّب الفاضل السيّد حسن السبزواري ـ دام توفيقه ـ أحد المشتغلين المحصّلين في قم المقدّسة .

٢ ـ سماحة العلّامة الحجّة السيّد عليّ السبزواري .

المولود في النجف الأشرف عام ١٣٦٩هـ تقريباً ، من تلامذة والده المقدّس والإمام الخوئي ﷺ ، ويعدّ اليوم من أساتذة الحوزة العلميّة في النجف الأشرف على

مستوى الخارج والسطح العالي ، ويُعرف في أوساطها بالتضلّع في العلوم العقليّة والنقليّة ، يشغل الآن مكان والده الراحل ﷺ في دعم الحركة العلميّة في النجف الأشرف ، وتنظيم الوضع الاجتماعي .

وقد خرج عن قلمه مجموعة من المؤلّفات القيّمة ، من جملتها : (الاستنساخ بين التقنيّة والتشريع) وغيره .

٣ ـ سماحة العلّامة السيّد حسين السبزواري .

المولود في النجف الأشرف عام ١٣٧٠هـ تقريباً ، وفيها نشأ وترعرع ، واستفاد من محضر كبار أساتذتها ، كالشيخ الميرزا جواد التبريزي ـ دام ظلّه الشريف ـ والمدرّسَين المعروفَين : الشيخ صدرا البادكوبي والشيخ مجتبى اللنكراني ﷺ ، ثمّ حضر الدراسات العليا في الفقه عند السيّدين العلَمَين : الخوئي والسبزواري ﷺ ، كما حضر في الأُصول عند السيّد عليّ البهشتي ﷺ .

ومن النجف الأشرف هاجر مكرهاً ـ قبل سنوات قريبة ـ واستقرّ في مشهد المقدّسة ، ولا زال يؤدّي دوره الديني فيها من خلال التدريس على مستوى السطح العالي ، ومن خلال صلاة الجماعة وتعليم الأحكام الشرعيّة والمعارف العقائديّة .

وله الكثير من الخدمات والمشاريع الخيريّة التي تعكس حضوره الاجتماعي الفعّال ، كما له عدّة من المؤلّفات ، ومن أهمّها : دورته الفقهيّة « بصائر الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة » الواقعة في أربعة عشر مجلّداً .

الجانب العبادي

ليس هدفي من استعراض هذا الجانب في شخصيّة السيّد السبزواري ﷺ أن أتحدّث عنه ﷺ بوصفه أحد العباد المتهجّدين ، وإنّما الهدف التحدّث عن المظاهر والسمات العباديّة في شخصيّته ﷺ حتّى تكون نبراساً يضيء لنا طريق السير والسلوك والتعلّق بالله تعالى .



السمة الأُولى : حبّ الصلاة

فقد كان السيّد السبزواري ﷺ يتفانى في حبّ الصلاة ، والصلاة أجمل محبوب ؛ إذ بها -كما يصرّح هو ﷺ - تفتح أبواب الغيوب ، وبها تطمئنّ القلوب ، وبها ترفع الدرجات ، وفيها المناجاة برفع الأستار ، وتتّسع فيها ميادين الأسرار ، وبها تشرق شوارق الأنوار ، وبها تُزال الحجب والأستار بالقرب إليه عزّ وجلّ ، وبها تصفو المحبّة من كدر الجفاء ، ويتّصل المحبّ مع حبيبه في محلّ الصفا[1] .

فكان السيّد السبزواري ﷺ محافظاً على نوافل الصلاة اليوميّة مع إمامته للجماعة ، ولذلك كان يحضر جماعته أهل العرفان والورع والتقوى أكثر من غيرهم[2] .

وكان السيّد السبزواري ﷺ أيضاً عاشقاً لصلاة جعفر ﷺ ، متفانياً فيها ، « فإنّ فيها

---

(١) مواهب الرحمن : ٩/٢٣٠.

(٢) جذوة مقتبسة من حياة السيّد السبزواري : ٢٢.

فضلاً كثيراً »[١]، « ومَن صلاها كلّ يوم لا تكتب عليه السيّئات، وتكتب له بكل تسبيحة حسنة، وترفع له درجة في الجنّة »[٢].

وكان ملتزماً بها في طلب الحوائج من الله تعالى، وكم قضى الله تعالى له حاجات متعسّرة كثيرة بفضلها وبركاتها[٣].

السمة الثانية: قيام الليل

فقد كان الليل ـ ولا سيّما وقت السحر منه ـ من أحبّ الأوقات لديه؛ لأنّه كان وقت تلذّذه بمناجاة المحبوب، فكان ﷺ يحيي الليل بالعبادة منذ الساعة التاسعة منه وحتّى الصباح، وكان إذا ما طلع عليه الصبح يبكي ويقول: لقد انقضى الليل وما قضينا من الحبيب وطراً.

وكان عاشقاً لصلاة الليل، متفانياً فيها؛ لأنّه من جملة أُولئك الخواصّ ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾[٤]، أُولئك الذين منحهم الله ديمومة الصلاة من الأزل إلى الأبد.

فكان يحافظ عليها مهما كانت الظروف؛ إذ أنّ **شرف المؤمن صلاته بالليل**[٥]، **والمغبون مَن حرم قيام الليل**[٦]، **ومَن رُزِقَ صلاة الليل من عبد أو أمَة، وقام لله عزّ وجلّ مخلصاً، فتوضّأ وضوءً سابغاً، وصلّى لله عزّ وجلّ بنيّة صادقة، وقلب سليم، وبدن**

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠٩/٨٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٠٩/٨٨.

(٣) جذوة مقتبسة: ٢٢.

(٤) المعارج ٧٠: ٢٣.

(٥) بحار الأنوار: ٢٦٧/٦٨.

(٦) بحار الأنوار: ١٢٧/٨٠.

خاشع ، وعين دامعة ، جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة ، في كلّ صفّ ما لا يحصي عددهم إلّا الله تبارك وتعالى ، أحد طرفي كلّ صفّ بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، فإذا فرغ كتب له بعددهم درجات[1].

وهو في محافظته على صلاة الليل يطبّق كلامه عنها ، حيث قال وهو في صدد بيان صفات مَن ينوب عن المعصوم ﷺ في عصر الغيبة : « الرابع ـ وهو الأهمّ ـ : انسلاخه عن الماديّات بتمام معنى الانسلاخ ، وعلوّ همّته من كلّ جهة ، وكثرة اهتمامه بالدين وأهله ، وجهده في الورع والتقوى ، ومتنزّهاً عن الصفات الرذيلة بل المكروهة عند الناس ، وعدم توهّم الاعتلاء في نفسه على أحد ، وكثرة مواظبته على العبادة مع الخلوص ، كالتهجّد في الليل والمداومة على النوافل ، ليأخذ الله بيده ـ كما في بعض الروايات ـ ويلهمه بما هو صلاح النوع »[2].

ونتيجة محافظته على صلاة الليل ومداومته عليها ، فقد لمس لها الكثير من الآثار الروحيّة والمعنويّة ، بل والماديّة ، التي تحدّث عنها بقوله : « وكم لله من نفحة عطرة يمنّ بها على من يشاء ، وجائزة موفرة يخصّ بها من أخلص في الدعاء ، وكم من عبادة فيه ـ أي : وقت نافلة الليل ـ هبّت عليها نسمات القبول ، ودعوة من ذي طلبة مشفوعة ببلوغ المأمول ، ومشكل مسائل اتّضح بمصابيح الهداية ، وعريض من المطالب افتتح بمفاتيح الهداية ، فهو وقت العلماء العاملين والعرفاء المتعبّدين ، والسعيد من سعد بإحياء هذا الوقت الشريف ، واستدرّ به أخلاف الكرام من الجواد اللطيف »[3].

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠٤/٧٩.

(٢) مهذّب الأحكام: ٨٧/١٥.

(٣) مهذّب الأحكام: ١٠٨/٥.

السمة الثالثة: التفاني في الولاء

كان السيّد السبزواري ﷺ شديداً في حبّه لأهل البيت ﷺ، متفانياً في ولائهم إلى أبعد الحدود، فلا يعشق شيئاً إلّا بهم وفيهم وإليهم، وطالما ما كان يلهج بذكرهم، وإذا أقبل شهر عاشوراء بأحزانه ومآسيه تجلبب بالسواد حزناً عليهم، وتأسّياً بهم، حتّى إطلالة شهر ربيع الأوّل(١).

---

(١) قال السيّد السبزواري ﷺ في موسوعته الفقهيّة: «وقال في الحدائق: لا يبعد استثناء لبسه السواد في مأتم الحسين ﷺ من هذه الأخبار ـ أي: الأخبار الدالّة على الكراهة ـ لما استفاضت به الأخبار من الأمر بإظهار شعائر الأحزان، ويشهد له تقرير الإمام ﷺ، ففي خبر عمر بن عليّ بن الحسين قال: لمّا قُتل الحسين بن عليّ ﷺ لبست نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكنّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان عليّ بن الحسين ﷺ يعمل لهنّ الطعام للمأتم».

ثمّ علّق عليه بقوله: «في بعض التواريخ: أنّ لبس السواد كان حداداً لقتل آل محمّد من الحسين بن عليّ ﷺ وزيد ويحيى، بل يظهر من بعضها أنّ الشيعة في تلك الأزمنة كانوا كذلك، وعلى هذا يمكن القول بأنّ ما ورد من كراهة لبس السواد لم يرد لبيان الحكم الواقعي، بل ورد لبعض المصالح، كبيان أنّ الحداد بلبس السواد بين بني هاشم والشيعة لم يكن بتسبيب الأئمّة ﷺ حتّى لا يكون موجباً لظلم الأعداء لهم، ويشهد لما قلناه خبر الرقّي، قال: كانت الشيعة تسأل أبا عبدالله ﷺ عن لبس السواد، قال: فوجدناه قاعداً عليه جبّة سوداء، وقلنسوة سوداء، وخفّ أسود مبطّن بسواد، ثمّ فتق ناحية منه وقال: أما إنّ قطنه أسود، وأخرج منه قطناً أسود، ثمّ قال: بيّض قلبك والبس ما شئت». مهذّب الأحكام: ٣٤٨/٥.

أقول: وأمّا وجه التزامه ﷺ بلبس الأسود طيلة شهري محرّم وصفر، فلعلّه لما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ في الرواية المتعلّقة باليوم التاسع من شهر ربيع الأوّل، حيث جاء فيها: «ويوم نزع السواد». بحار الأنوار: ١٢٧/٣١.

ولم يكن ﷺ متفرّداً بذلك؛ لكون العمل المذكور سيرة متعارفة عند الكثير من ⇐

وقد مشى سيراً على قدميه وعمره عشرون عاماً ـ تقريباً ـ من مشهد الإمام الرضا عليه السلام إلى النجف الأشرف، ومشى عدّة مرّات كذلك بين النجف الأشرف إلى كربلاء المقدّسة[1].

السمة الرابعة: عشق الذكر

كان السيّد السبزواري قدس سره عاشقاً للذكر، دائم التسبيح، لا يلهج لسانه إلّا بذكر الله، محافظاً على الأدعية والأوراد؛ لأنّ الذكر ـ كما يتحدّث عنه قدس سره ـ من أجلّ مقامات

⇦ الأعلام، وقد ذكر بعضهم سماحة سيّدنا الأُستاذ المقدّس السيّد محمّدرضا الأعرجي قدس سره في تعاليقه على كتاب (إرشاد العباد إلى استحباب لبس السواد) الصفحة ٥٣، حيث جاء فيها قوله: «وأمّا من كان يلبسه في طيلة هذين الشهرين ـ أي: محرّم وصفر ـ فجماعة من علمائنا الكمّلين.

منهم: العلّامة الفقيه الزاهد، الحاج آقا حسين الطباطبائي القمّي قدس سره، كما كان يلبسه في أيّام الفاطميّة أيضاً ـ أي: أيّام شهادة الصدّيقة الزهراء عليها السلام ـ كما حدّثني بذلك ولده العلّامة المعاصر سلّمه الله.

ومنهم: سيّد فقهاء عصره، آية الله العلّامة، السيّد محسن الطباطبائي الحكيم (أعلى الله مقامه) صاحب المستمسك، كما حدّثني شيخنا محيي الدين المامقاني (دام ظلّه).

ومنهم: العلّامة الفقيه الورع التقي، السيّد ميرزا مهدي الحسيني الشيرازي الحائري (قدّس الله بحظيرة القدس سرّه)، المتوفّى في الحائر الشريف سنة ١٣٨٠هـ، وكان قدس سره من أجلّة علمائنا الإماميّة علماً وعملاً، كما حدّثني بذلك ولده الفاضل المعاصر السيّد محمّد (سلّمه الله).

ومنهم: سيّد فقهاء عصرنا الأعلم الأفقه السيّد أبوالقاسم الموسوي الخوئي (دامت بركاته)، كما حدّثني بعض أصحابه وتلامذته (سلّمه الله تعالى).

ومنهم: حجّة الإسلام الشيخ يوسف الخراساني قدس سره، وقد رأيته أنا بأمّ عيني يلبسه في طيلة الشهرين. وغيرهم ممّا يطول المقام بذكرهم»، انتهى.

(١) المصدر المتقدّم.

العارفين ، بل هو من أعظم مظاهر حبّ الحبيب لمحبوبه ، فإنّ من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره ، ومن علامات الحبيب الاستمتاع بذكر حبيبه ، وقد قالوا : إنّ المحبّ إذا صمت هلك ، والعارف إذا نطق هلك ؛ لأنّ الأوّل مجبول على ذكر الحبيب ، والثاني مأمور بستر الأسرار(١) .

وكان السيّد ﷺ متقيّداً بالأذكار الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة ﷺ دون غيرها من الأذكار الصوفيّة المخترعة ، وقد تحدّث عنها في بعض كلماته المشرقة فقال : « ومن أهمّ أسباب الإفاضة والتقرّب إلى الله تعالى الأذكار الواردة عن الأئمّة الهداة ﷺ المنتهية إلى الوحي من السماء ، وهي كثيرة مذكورة في محلّها .

وأهمّها الاستغفار الموجب محو الذنوب ورفع الدرجات ، بل قال نبيّنا الأعظم ﷺ : **إنّه من خير العبادة** ، ففي الكافي بإسناده عن الإمام الصادق ﷺ ، قال : **قال رسول الله ﷺ : الاستغفار وقول لا إله إلّا الله خير العبادة** . وقال الله العزيز الجبّار : **﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾**(٢) ، ولذا كان رسول الله ﷺ يواظب عليه .

فعن الإمام الصادق ﷺ : **أنّ رسول الله ﷺ كان لا يقوم من مجلس وإن خفّ حتّى يستغفر الله خمساً وعشرين مرّة** »(٣) .

كما كانت له بعض الأذكار والأوراد الخاصّة ، التي تناقلها علماء مدرسة أهل البيت ﷺ كابراً عن كابر ، عن معادن الوحي وأسرار التنزيل ﷺ ، وما كانوا يطلعون عليها إلّا الخواص وأصحاب السرّ ، ومن ذلك ما ينقل عنه ﷺ من أنّ أستاذه السيّد البادكوبي ﷺ قد علّمه ذكراً خاصّاً ، واشترط عليه أن لا يقرأه إلّا في وقت الشدّة ،

---

(١) مواهب الرحمن : ١٨٠/٢ .

(٢) محمّد ﷺ ٤٧ : ١٩ .

(٣) مواهب الرحمن : ٣٦٩/٨ .

فصادف أن عرضت عليه ﷺ ـ وهو في طريقه إلى مسجده لإقامة الصلاة ـ حالة إعياء شديدة حالت بينه وبين إكمال مسيره إلى المسجد ، فما كان منه ﷺ إلّا أن قرأ ذلك الذكر الخاصّ ، فقام من وقته وواصل مسيره إلى المسجد وصلّى ، وبعد رجوعه إلى منزله جيئ له بالطبيب ليفحصه ، فتعجّب كيف تجاوز السيّد ﷺ تلك الحالة ـ مع كونها جلطة شديدة ـ وكيف ذهب إلى الصلاة وأدّاها ورجع إلى منزله ، ولم يجد لذلك مبرّراً معقولاً سوى التسليم بشمول العناية الربّانيّة للسيّد ﷺ ببركة ذلك الذكر الخاصّ[١].

وكان ﷺ يستفيد من خزانة أذكاره وأوراده في علاج ما يستعصي علاجه من الأمراض العضويّة والروحيّة ، ومن ذلك ما حدّثني به بعض الثقاة عن إحدى النساء المؤمنات ، فقال : إنّها ابتليت في فترة من فترات حياتها بسلوك غير طبيعي ، فكانت لا ترى طفلاً صغيراً إلّا وتحاول القضاء عليه والتخلّص منه ، فذهب أحد أولادها إلى السيّد ﷺ وعرض عليه الأمر ، فما كان من السيّد ﷺ إلّا أن أرشده إلى أحد الأذكار الشريفة ، وهو : « ربّنا آتنا في الدنيا حسنة » ، وأمره أن يطلب من أمّه أن تردّد هذا الذكر بكيفيّة معيّنة ، فما مرّت إلّا فترة قصيرة حتّى ارتفع عنها ما كانت تعاني منه ، ببركة أذكار السيّد السبزواري ﷺ وأوراده الخاصّة[٢].

---

(١) جمال السالكين : ٥٢.

(٢) لا يخفى أنّ الأذكار والأوراد الخاصّة يتوقّف تأثيرها على الإجازة ، وهذه الإجازة قد تكون إجازة خاصّة ـ كما هو الأعمّ الأغلب ـ وقد تكون إجازة عامّة ، ومن جملة الأذكار الخاصّة بالسيّد ﷺ التي أفصح عنها للعموم : كيفيّة الاستخارة التي نقلها عن بعض مشائخه ، حيث قال : « ولنا استخارة أخذناها عن بعض مشايخنا ﷺ وقال : إنّها مجرّبة ، وهي أن يقرأ التوحيد مرّة واحدة ، ويقول : يا أبصر الناظرين ، ويا أسمع السامعين ، ويا أسرع الحاسبين ، ويا أرحم الراحمين ، صلّ على محمّد وآله » ، ثمّ يأخذ قبضة من السبحة ، ويعدّ زوجاً زوجاً ويقول : افعل ، ثمّ يعدّ زوجاً ويقول : لا تفعل ، فإن بقي في الآخر زوج ⇦

السمة الخامسة: المداومة على الطهارة

كان السيّد السبزواري ﵀ مديماً على الوضوء والأغسال المستحبّة، محافظاً على الطهارة في كلّ الأوقات.

وكان ﵀ يعتقد ـ كما صرّح بذلك في موسوعته الفقهيّة ـ بأنّ الوضوء إنّما هو نحو نورانيّة للنفس، ونورانيّة النفس راجحة ومطلوبة في كلّ الآنات الزمانيّة[1].

السمة السادسة: تلاوة القرآن

كان السيّد السبزواري ﵀ مواظباً على تلاوة القرآن، بل كان يختمه في كلّ اسبوع مرّة واحدة، وأمّا في شهر رمضان المبارك فقد كان يختم فيه القرآن عشر مرّات. وكان ﵀ دائماً ما يوصي فيما يتعلّق بهذا الجانب بأمرين:

الأوّل: اختيار الوقت لقراءة القرآن؛ لأنّه ﵀ كان يرى بأنّ اختيار الوقت له مدخليّة كبيرة في حصول الكثير من التوفيقات، ولعلّ من تلك الأوقات ما بين الطلوعين، كما سمعنا ذلك من بعض المرتبطين بالقرآن.

الثاني: الاستمرار والمواظبة على قراءة القرآن، ولو بمقدار ورقة واحدة في كلّ يوم، حتّى لا يعدّ المؤمن تاركاً للقرآن.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ ﴾[2].

⇦ «افعل» فحسن جدّاً، وإن بقي زوج «لا تفعل» فهو ترك، وإن بقي واحد «افعل» فيكون فعله أرجح من تركه، وإن بقي واحد «لا تفعل» يكون تركه أرجح من فعله». مهذّب الأحكام: ٩/١٠٧.

(١) مهذّب الأحكام: ٢/٢٨٣.

(٢) فاطر ٣٥: ٢٩.

« ومَن قرأ القرآن فقد استدرج النبوّة من جنبيه ، غير أنّه لا يوحى إليه » .

السمة السابعة : الدعاء

وقد تحدّث ﷺ عنه في بعض كلماته الشريفة فقال : « لا ريب في أنّ أقوى مراتب سلوك السالكين إلى الله جلّت عظمته ، وأهمّ مقامات سيرهم وسفرهم ، إنّما هو السفر من الخلق إلى الحقّ ، أي : التوجّه التامّ بحيث ينقطع عمّا سواه تعالى ، وهو السير في الحقّ بالحقّ ، وهذا السفر الروحاني يصحّ أن يعبّر عنه : بأنّه سفر من المحدود من كلّ جهة إلى غير المحدود من جميع الجهات ، وعطف وحنان ممّن لا حدّ لرحمته وحنانه وعنايته إلى من هو المحتاج على الإطلاق .

وهذا السفر وهذه الرحمة والعطف يتحقّقان في حقيقة الدعاء مع الإيمان بالله جلّت عظمته ، وبما جاء به نبينا الأعظم ﷺ ؛ لأنّ هذه الحقيقة مع ذلك عبارة عن تخلّي النفس عن جميع الرذائل ، وطهارة روحيّة عن جميع الصفات الذميمة ، والأهواء الشريرة ، وارتباط روحي مع عالم الغيب .

وإن قلت : إنّها تجلّي الرحمة الرحيميّة والرحمانيّة بالنسبة إلى الداعين ، وإن قلت : إنها عروج النفوس المستعدّة عند الانقطاع عمّا سوى ربّ العالمين إلى أعلى الدرجات التي أُعدّت لها ، ولذا قال تعالى : ﴿**قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[1] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « **الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ** »[2] ، ولذا كان الأنبياء والأوصياء والعلماء العارفون بالله تعالى يواظبون عليه أشدّ المواظبة في جميع أحوالهم حالاً ومقالاً »[3] .

---

(١) الفرقان ٢٥ : ٧٧.

(٢) وسائل الشيعة : ٢٨/٧.

(٣) مواهب الرحمن : ٨١/٣.

وتطبيقاً لما ذكره ﷺ حول الدعاء، فقد كان ﷺ ـ كما يصفه بعض من كتب عنه ـ دؤوباً على قراءة الأدعية والمناجاة، وخصوصاً منها أدعية الصحيفة السجّاديّة التي كانت تلازمه في جميع الأوقات، ولشدّة عشقه للدعاء فقد جمع جملة من الأدعية في محفظته يحملها معه في حلّه وترحاله، فيقرؤها حين تتاح له الفرصة، حتّى إنّه ﷺ لم يترك دعاءً ورد عن الأئمّة ﷺ إلّا وقرأه[1].

وكان ﷺ لا يلتذّ في مناجاته إلّا بقراءة أدعية أهل البيت ﷺ؛ لأنّها بنظره الشريف ـ كما تحدّث بذلك في بعض كلماته الشريفة ـ مشتملة على أعظم المعارف الربوبيّة التي حرص الأئمّة ﷺ على بيانها بأسهل بيان، وهذا أحسن تدبير في إشاعة المعارف الحقّة وبيانها للنّاس، مقتبس من تدبير القرآن.

إلى أن يقول ﷺ ـ وهو في صدد بيان الفارق الكبير بين أدعية أهل البيت ﷺ وبين أدعية غيرهم ـ: «من نظر إلى دعوات الأنبياء السابقين، كمزامير داود، وصحف إدريس، يجد الفرق بينهما أوسع ممّا بين السماء والأرض».

ثمّ ينقل ﷺ عن صدر المتألّهين ﷺ قوله: «الأدعية المأثورة عن أئمّتنا وسادتنا الهاشميّين الأكابر، والمعصومين من الذنوب الصغائر فضلاً عن الكبائر، كثيرة شائعة بين جميع الأمم، ذائعة بين طوائف العالم، المؤالف والمخالف، ولم يوجد مثلها في شيء من الملل والأديان، ولم ترَ عين الأعيان نظيرها عن أحدٍ من أئمّة القرون والأزمان»[2].

السمة الثامنة: الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ

وهذه السمة من أهمّ السمات التي نقرؤها في حياة السيّد السبزواري ﷺ العباديّة،

---

(١) جمال السالكين: ٥١.

(٢) مواهب الرحمن: ٦٣/٣.

فإنّ سلوكه العبادي رغم كثافته الكميّة ـ كما عرضناه من خلال ما تقدّم ـ إلّا أنّه في بعده الكيفي أيضاً كان في غاية العمق والإخلاص ، فلم يكن سلوكاً جافّاً لا أثر له ، بل كان سلوكاً ترتقي معه الروح إلى حالة التجرّد الكامل الذي لم تكن تشوبه أي شائبة من شوائب المادة .

وكشاهد على عمق علاقته الروحيّة وقدرته على التجرّد التامّ ، ما ينقله نجله السيّد عليّ (حفظه الله) حيث يقول : احتاج السيّد ﷺ إلى إجراء عمليّة لعينيه الكريمتين ، فلمّا حان وقتها وأراد الطبيب تخدير السيّد ﷺ من أجل إجراء العمليّة ، رفض السيّد ﷺ ذلك من أجل إشكال شرعي لديه ، إلّا أنّ الطبيب أصرّ على استخدام البنج باعتبار أنّ العمليّة حسّاسة جدّاً .

يقول السيّد عليّ : فطلبتُ من الطبيب حينها النزول عند رغبة السيّد ﷺ ، وعندها بدأ السيّد ﷺ بالتسبيح ، بينما أخذ الطبيب بإجراء العمليّة من دون تخدير ، فأتمّها بنجاح ومن غير أن يسمع للسيّد ﷺ تأوّهاً أو يشعر له تألّماً [١] .

وهو ﷺ بهذه القدرة على الانقطاع يحكي للأجيال بعض ملامح جدّه أمير المؤمنين ﷺ ، الذي كانت السهام لا تنتزع من جسده إلّا إذا قام للصلاة ، وانقطع إلى الله جلّ جلاله ، حيث يخلو بمحبوبه ، فلا يجد ألماً لما سواه .

وهذه السمات العباديّة ـ وغيرها من السمات الفاضلة ـ التي تحلّت بها شخصيّة السيّد ﷺ صارت منشأً لتعلّق أصحاب المعنى به ، وارتباطهم الوثيق بشخصيّته المباركة ، وكشاهد على ما نقول فلنترك الحديث الآن للحجّة المعظّم الشيخ الأنوار (دامت بركاته) [٢] حيث يقول : « حبّي وإخلاصي للسيّد الجليل ، والعالم

---

(١) جمال السالكين : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) هو سماحة العلّامة الحجّة المعظّم الشيخ أبوالحسن الأنوار (دامت بركاته) أحد ⇦

الإلهي ، ذي النفس المطمئنّة ، السيّد السبزواري الشريف (قدّس الله سرّه)... في ربيع الأوّل سنة ١٣٧٤هـ تشرّفتُ بالوصول إلى النجف الأشرف (على مشرّفها آلاف التحيّة والسلام) لغرض تكميل العلوم المعنويّة ، التي اخترتها وفضّلتها على العلوم الماديّة ، وانصرفتُ منها إليها ، ولسبب إفاضات الآباء والأُمّهات وكلماتهم المؤثّرة المتعلّقة بالتربة الشريفة المباركة ، وبعليّ العظيم المشرّف لها عليه السلام ، والتي ملأت نفسي حبّاً شديداً استغرق جنبات الفؤاد منذ أيّام الصبا ، وأخذ يشتدّ على مرّ السنين ، ممّا ولّد في لبّي الرغبة في التبصّر في الجوانب المعنويّة من الحوزة العريقة ، والتي كانت مدار دائرة المعارف والعلوم الدينيّة الإسلاميّة لحصّة خاصّة من المسلمين من جوانب شتّى ، منها : معرفة كبار العلماء المشتغلين فيها ، وحينئذٍ انزوى الغرض الأصلي ـ أي : التحصيل ـ في زاوية مؤقّتاً ، وبدأت التماس مع العلماء الكبار والتشرّف بمحضرهم ، إلى أن تشرّفت بلقيا الشريف السيّد الجليل السيّد السبزواري (قدّس الله سرّه) ، فرأيته إنساناً يحمل نفساً زكيّة ، ذاكراً لله ، جلّ ذكره ، غير غافل ، مشغولاً بنفسه عن غيره ، لا يتفكّر في هذا وذاك ، هادئاً ، صامتاً ، لا يتكلّم عن هذا وذاك ، موفياً لأداء الواجب من غير قصور ولا تقصير ، مفدياً حياته وصحّته لأداء واجبه ، غير مفوّت لآنات الوقت ، مشغولاً في الليل والنهار بالمطالعة

⇐ رجالات العلم والمعنى في النجف الأشرف ، وأحد كبار مدرّسيها المعروفين ، استفاد في بداية أمره من محضر السيّدين البروجردي والداماد قدس سرهما عندما كان في قم المقدّسة ، وكان معظم استفادته عن الأخير منهما ، ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف ـ ولا زال ـ واستفاد من محضر السيّدين الحكيم والخوئي قدس سرهما ، وكان معظم استفادته من الأوّل منهما ، إلى جانب ذلك كان من المشتغلين بالتدريس كثيراً ، حتّى نُقل أنّه درّس كتاب (الكفاية) ثلاثين دورة كاملة ، فتخرّج على يديه الكثيرون ، كسماحة السيّد محمّد السبزواري قدس سره ، والشهيد السيّد أمين الخلخالي رحمه الله ، وغيرهما ممّن نهلوا من علمه ، واقتبسوا من قداسته ومعنويّاته الرفيعة ، نسأل الله تعالى أن يلبسه ثوب العافية ، وأن لا يحرمنا من بركات دعائه .

والكتابة حسب ما يمكنه من التفكير والتدبّر والوصول إلى الحقائق .

وقد اقتنعت في نفسي أنّي بحمد الله ومنّه قد وصلتُ إلى جانب من جوانب ما كنتُ أشتاقه وأتوقّعه من فيوضات وبركات الأرض المقدّسة والحوزة المشرّفة ، وزرتُ فيها إنساناً تتمحضّ نظرته في اللبّ والمعنى ، مغمضاً إيّاها عن القشر والمادّة ، سائراً إلى الله تعالى غير راغب في سواه »(١) .



(١) اقتطعنا هذا المقطع من رسالة خاصّة شرّفنا بها جواباً عن رسالة بعثناها إليه مستفسرين عن علاقته بالسيّد المعظّم (طيّب الله ثراه) .

الجانب الأخلاقي

السيّد السبزواري ﷺ في أخلاقه وسجاياه كان مثالاً واضحاً للأخلاق المحمّديّة الفاضلة على الصعيدين النظري والعملي.

فمدرسته النظريّة في علم الأخلاق تتجلّى في أبحاثه القيّمة المتناثرة بين طيّات تفسيره «**مواهب الرحمن**».

ومدرسته العمليّة في علم الأخلاق تتجلّى في جميع سلوكيّاته وأفعاله، وحركاته وسكناته، التي يشهد بها جميع مَن عاشره، ويتحدّث عنها كلّ مَن عاصره.

وللحديث عن المدرسة الأخلاقيّة عند السيّد السبزواري ﷺ نُسلّط الضوء عليها من خلال جانبين:

الأوّل: الجانب النظري

وللولوج في هذا الجانب لا بأس بالإشارة ـ من باب المقدّمة ـ إلى النظريّة الغربيّة حول هذا الموضوع، والتعليق عليها ببيان الرؤية الإسلاميّة، فنقول:

ذهب «ليفي بريل» إلى أنّ الأخلاق النظريّة لا فائدة منها؛ وذلك لأنّ النظريّات والمذاهب الأخلاقيّة رغم اختلافها في الأمور النظريّة، إلّا أنّها جميعاً تتّفق في القواعد العمليّة التي تقرّرها.

وذهب «فردريك روه» إلى أنّه لا يمكن أن نستخلص الاعتقاد الأخلاقي من أي مذهب نظري، ويعارض كلّ صانعي المذاهب الذين يبحثون عن الاعتقاد خارج

الاعتقاد[١]، إلّا أنّ الرؤية الإسلاميّة لا تتّفق مع هذين الكاتبين وأمثالهما، بل تذهب إلى أنّ المدرسة الأخلاقيّة لها جانبان:

١ ـ الجانب النظري.

٢ ـ الجانب العملي.

فكما أنّ المدرسة الأخلاقيّة تتجسّد في السلوك العملي عند الإنسان، كذلك تتجسّد في مجال الفكر النظري، ففي بعض الأحيان يستطيع المربّي الأخلاقي أن ينمّي الروح الأخلاقيّة عند الآخرين من خلال السلوك العملي، ولكن في بعض الأحيان الأخرى قد لا يستطيع المربّي الأخلاقي أن يتّصل بالناس ويخاطب ضمائرهم، ويؤثّر فيهم تأثيراً مباشراً، فيلجأ إلى طرح الأبعاد النظريّة للمدرسة الأخلاقيّة.

وقد كانت المدرسة الأخلاقيّة عند السيّد السبزواري ﷺ تحمل منهجاً تكامليّاً يجمع بين الجانب النظري من جهة، والجانب العملي من جهة أُخرى.

فهو يرى بأنّ الجانب النظري والعملي كلّ واحد منهما مكمّل للآخر، وتكون لهما وحدة خاصّة تشبع الحاسّة الأخلاقيّة التي أودعها الله تعالى في الإنسان[٢].

وللوقوف على أبعاد الجانب النظري للمدرسة الأخلاقيّة عند السيّد السبزواري ﷺ، نستعرضه من خلال ثلاث قنوات:

القناة الأُولى: تعريف علم الأخلاق عند السيّد السبزواري ﷺ

تعدّدت التعاريف النظريّة لعلم الأخلاق كحالة طبيعيّة لتعدّد المذاهب الأخلاقيّة، فمنهم مَن يعرّفه بأنّه هو: العلم الباحث في الاستعمال الواجب لحريّة

---

(١) علم الأخلاق النظرية والتطبيق: ٧.

(٢) مواهب الرحمن: ٣٤٩/٢.

الإنسان ابتغاء بلوغه غايته النهائيّة .

ومنهم من يعرّفه بأنّه : مجموع قواعد السلوك التي بمراعاتها يمكن للإنسان بلوغ غايته .

ومنهم من يعرّفه بتعاريف أُخرى لا يناسب التعرّض لها مع غرض الكتاب .

وأمّا السيّد السبزواري ﷺ فقد عرّف علم الأخلاق أوّلاً على وفق نظريّة الوسط اليونانيّة ، ثمّ قام بترشيد تلك النظريّة وتهذيبها على ضوء مفهوم التقوى في القرآن الكريم .

فقال ﷺ بأنّ علم الأخلاق هو : « العلم الذي يبحث عن كيفيّة المحافظة على الحدّ الأوسط الذي هو الفضيلة ، والاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما الرذائل »[١] .



توضيح التعريف

يقرّر علماء الأخلاق بأنّ الإنسان مركّب من ثلاث قوى :

١ ـ القوّة الشهويّة : وهي القوّة التي تكون مصدر الرغائب من محبّة المال والنساء وغير ذلك من الشهوات الحيوانيّة ، وإليها تنسب الأفعال التي تجلب المنفعة ، كالأكل والشرب .

٢ ـ القوّة الغضبيّة : وهي القوّة التي تكون مصدر العواطف ، كالشجاعة والغضب ، وإليها تنسب الأفعال التي تدرأ المضارّ والمخاطر ، كالدفاع عن النفس والمال والعِرض .

٣ ـ القوّة العاقلة : وهي القوّة التي تدبّر الإنسان وتنظّم سلوكه ، وإليها تنسب الأفعال الفكريّة .

---

(١) مواهب الرحمن : ٢/٣٥٣ .

وبعد معرفة هذه القوى الثلاث يقول الأخلاقيّون :

إنّ هذه القوى الثلاث لها آثارها وخصائصها ، فإذا اجتمعت واتّحدت ، نشأت من اتّحادها وحدة تركيبيّة تصدر منها أفعال خاصّة ، يبلغ بها الإنسان سعادته التي خلق من أجلها ، ووظيفته أن يحافظ على هذه الوحدة التركيبيّة ، فلا يخرج قوّة من القوى الثلاث عن حدّ الاعتدال إلى حدّي الإفراط والتفريط ، وبذلك يصل إلى السعادة الفرديّة و النوعية في الدنيا والآخرة .

والمراد من حدّ الاعتدال (الوسط الأخلاقي) استعمال كلّ قوّة على ما ينبغي .

وقد ذكر الأخلاقيّون أنّ حدّ الاعتدال في القوّة الشهويّة هو العفّة ، والجانبين (الإفراط والتفريط) هما الشره والخمود .

وحدّ الاعتدال في القوّة الغضبيّة هو الشجاعة ، والجانبين هما التهوّر والجبن .

وأمّا حدّ الاعتدال في القوّة الفكريّة (العاقلة) فهو الحكمة ، والجانبان هما الجربزة والبلادة .

ويستطيع الإنسان أن يصل إلى حدّ الاعتدال إذا اجتمعت عنده هذه القوى واتّحدت بحسب الوضع الطبيعي ، وبالتالي تنتج عنها قوّة رابعة هي (ملكة العدالة) التي هي : وضع كلّ شيء موضعه الذي ينبغي له ، ومن خلالها يستطيع الإنسان أن يحافظ على خطّ الاعتدال في القوى الثلاث ، وبالتالي يخرج عن الظلم والانظلام ، ويعيش أعمق معاني السعادة .

محاولة تجديديّة

بعد هذا العرض التوضيحي لمضامين التعريف ، وتجنّباً للوقوع في متاهات النظريّة الوسطيّة القديمة .

يقول السيّد السبزواري ﷺ : «إنّ للقرآن نظريّة خاصّة في الوسط تغاير النظريّات الأخرى ، فقد اعتمد القرآن على التقوى التي ورد ذكرها فيه أكثر من مئتين وخمسين

مرّة ، واعتبرها محور الكمالات الإنسانيّة ومعيار الفضائل »[١].

ويعتبر ﷺ أنّ الأساس الذي تبتني عليه الأخلاق في القرآن هو التقوى ، فإنّها الطريق إلى التخلّق بالأخلاق الفاضلة ، واكتساب الفضائل ، وإزالة الرذائل[٢].

وبالتقوى يصير الإنسان بارّاً ، ويصبح من الصدّيقين ، وبها يتهيّأ لقبول الملكات الفاضلة ، ويحدّد سلوكه الأخلاقي ، وبها يصير الانسان عادلاً موفّقاً بين رغباته وأحاسيسه وعواطفه ، فهي المقياس الحسّي للفضائل ، يسهل معرفته لكلّ أحد ، ويسلم عن الخطأ والالتباس من دون أن يقع في متاهات النظريّة الوسطيّة القديمة ، وهي العلّة الغائيّة في السلوك الأخلاقي ، والعلّة الفاعليّة لاكتساب الفضائل ، وإزالة الرذائل ، وأخيراً هي القاعدة العامّة التي يمكن التوفيق بها بين سائر التكاليف ، ويجلب بها الكمال والدين الذي أُمرنا باتّباعه ، وبها صارت هذه الأُمّة وسطاً في جميع الشؤون[٣].

وتظهر أهمّية هذه النظريّة وثمرة هذه المحاولة التجديديّة عن نظرية (الوسط الأخلاقي) أو (الوسطيّة الأخلاقيّة) من خلال جهتين :

الأُولى : إنّ هذه النظريّة تعدّ الإنسان إعداداً علميّاً وعمليّاً لقبول الأخلاق الفاضلة ، والمعارف الإلهيّة ، بحيث لا يبقى مجال للرذائل ، وفيها تختلف الفضائل عن غيرها .

الثانية : إنّ في هذه النظريّة يكون الفعل صادراً عن العبوديّة المحضة والحبّ العبودي ، فيكون الغرض هو وجه الله تعالى فقط ، فهي مبنيّة على التوحيد الخالص بخلاف غيرها .

---

(١) مواهب الرحمن : ٢/٣٥٤.

(٢) مواهب الرحمن : ٢/٣٥٥.

(٣) مواهب الرحمن : ٢/٣٥٥.

القناة الثانية: المذهب الأخلاقي عند السيّد السبزواري ﷺ

يصنّف السيّد السبزواري ﷺ المذاهب الأخلاقيّة إلى ثلاثة اتّجاهات:

الاتّجاه الأوّل: وهو الذي يعبّر عنه بالاتّجاه العقلي.

وهو الاتّجاه الذي يعتبر العقل هو الذي يحدّد الغاية في حياتنا، وأنّه هو الباعث الذي يحفّزنا إلى ابتغاء الحياة السعيدة، والعزوف عن اللذّات، وأنّه الداعي إلى الطاعة لأوامر الشرع أو العقل، وأصحاب هذا الاتّجاه يعترفون بأُصول مسلّمة لا يمكن العدول عنها، كحسن العدل، وقبح الظلم، وأمثال ذلك.

فلابدّ للإنسان الذي يتميّز عن سائر الكائنات بطبيعته العاقلة أن يتصرّف وفقاً للقوانين المجعولة من قِبل العقل أو الشرع، وفي ذلك ابتغاء السعادة، ويشمل هذا الاتّجاه من المذاهب الأخلاقيّة المذهب الحسّي والواقعي والمثالي، وبعض المذاهب اليونانيّة أمثال الرواقيّين والافلاطونيّين وغيرهم[1].

الاتّجاه الثاني: وهو الذي يعبّر عنه ﷺ بالاتّجاه المادي.

وهذا الاتّجاه يرفض كلّ القيم الإنسانيّة المسبقة التي تحدّد للإنسان سلوكه، والتي لها التأثير في تشكيل حياته، بل يعتبر عامل المادة صاحب الأثر الكبير في سلوك الإنسان، وزاد بعضهم أنّ الأفكار والمشاعر والرغبات والقيم الخُلقيّة والجماليّة هي وليدة النظام الاقتصادي، وما يستلزمه من العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وأنّ المنفعة ـ سواء في شكلها الحسّي أو العقلي ـ هي وحدها الخير الأقصى والمرغوب لذاته، وأنّها السعادة، والضرر والألم وحده هو الشرّ الأقصى، فالأفعال الإنسانيّة لا تكون خيراً إلّا إذا حقّقت النفع مطلقاً، وإذا جلبت ضرراً أو عاقت عن وصول النفع كانت شرّاً.

---

(١) مواهب الرحمن: ٢/٣٤٧.

وبالجملة: إنّ في هذا الاتّجاه على اختلاف مذاهبه يتوجّه النظر على نتائج الأفعال وآثارها، بلا فرق بين أن تكون المنفعة فرديّة حسيّة عاجلة، كما في مذهب القورنائيّين، أو حسيّة وعقليّة وروحيّة، كما في مذهب الأبيقوريّين. وجميعهم أصحاب اللذّة الفرديّة الأنانيّة.

نعم، تميل بعض المذاهب إلى منفعة المجموع والقول بالصالح العامّ، ولكنّه لا يخرجها عن ابتغاء اللذّة والمنفعة، ولذا دُعوا جميعاً بالأنانيّين حتّى في تصوّرهم للصالح العامّ، وتشترك جميع المذاهب في تقييد حريّة الفرد والقول بالجبر الأخلاقي والفوضى في الأخلاق[1].

الاتّجاه الثالث: وهو الذي يعبّر عنه ﷺ بالاتّجاه الصوفي.

وهذا الاتّجاه يتنكّر فيه الإنسان للمادّة في جميع مظاهرها، ويعتبر العزف عن ملاذّ الدنيا هو المناط في الأخلاق الفاضلة، ويرى أصحابه أنّ السعادة هي الابتعاد عمّا يشغل بال الإنسان عن التفكير، والكمال هو الوصول إلى مرحلة يصل بها إلى درك الحقائق، وفي هذا الاتّجاه تعتبر المحبّة أصلاً لكلّ خير[2].

وبعد أن انتهى السيّد ﷺ من هذا التصنيف الثلاثي للمذاهب الأخلاقيّة، علّق قائلاً: «هذه هي الاتّجاهات الأساسيّة للمذاهب الأخلاقيّة المختلفة المتعدّدة، وهي جميعها قد أخفقت في حلّ المشكلات الخُلقيّة للإنسان، سواء الفرديّة أو الاجتماعيّة، ولم يصل الفرد بها إلى ما يصبو من السعادة والكمال، بل لم تجلب للإنسان إلّا الشقاوة، والوقوع في صراعات فكريّة لا يجتني منها فائدة تُذكر»[3].

إذن فالسيّد السبزواري ﷺ يرى بأنّ هذه الاتّجاهات لا تتلائم مع الواقع العملي

(١) مواهب الرحمن: ٢/٢٤٨.

(٢) و (٣) مواهب الرحمن: ٢/٣٤٩.

في حياة الإنسان ، ويؤكّد على أنّ المبدأ الأخلاقي الذي يتناسب مع الروح الفطريّة في حياة الإنسان ، ولا يتنافى مع المبادئ الغريزيّة هو المبدأ الأخلاقي الذي يقدّم أطروحته القرآن الكريم .

فيقول ﷺ : « إنّ الطابع العامّ الأخلاقي الذي يستمدّ قيمه من القرآن الكريم يختلف كثيراً عمّا ذكرناه في المذاهب الأخلاقيّة المختلفة ، سواء من الناحيتين النظريّة والعمليّة ، فهو يحلُّ جميع المشكلات الخُلقيّة ، ويضع كلّ شيء في موضعه المعيّن ، ويربط بين الفضل والفضيلة ، فطالما يكون المرء فاضلاً ولا يعرف الفضيلة ، ولذا ترى أنّ المفهوم الأخلاقي في القرآن الكريم لا يقتصر على الحاجة العقليّة فقط ، بل إنّ الجانب النظري والعملي كلّ واحد منهما مكمّل للآخر ، وتكون لهما وحدة خاصّة تشبع الحاسّة الأخلاقيّة التي أودعها الله تعالى في الإنسان ، كما أنّ المفهوم الأخلاقي فيه يمتاز عن غيره في أنّه يشتمل على روح التوفيق بين سائر النزعات الأخلاقيّة ، ويلبّي جميع المطالب للإنسان ، فهو ينظر إلى الفرد كما ينظر إلى المجتمع ، ويعطي كلّ واحد منهما حقّه »[1] .

القناة الثالثة : نسبيّة الأخلاق عند السيّد السيزواري ﷺ

مبدأ النسبيّة في الأخلاق مبدأ مبهم ، اختلف فيه كبار الفلاسفة والمفكّرين إلى عدّة اتّجاهات :

الاتّجاه الأوّل: وهو الذي يصوّر النسبيّة في الأخلاق بأنّها التفاوت في طبيعة الأخلاق ، فقد تكون في بعض المجتمعات فضيلة ، وفي بعضها الآخر منقصة ورذيلة .

ومثالها: حبّ الزينة وإظهارها بأعلى مظاهر الترف ؛ إذ هو عند مجتمع الملوك

---

(١) مواهب الرحمن : ٣٤٩/٢.

والرؤساء والحكّام من أرقى الفضائل، بينما في مجتمع الزهّاد والرهبان من أدنى الرذائل.

الاتّجاه الثاني: وهو الذي يقسّم الأخلاق إلى قسمين:

١ ـ **الأخلاق بالمعنى الأخصّ:** ويريد بها نظريّة (الوسط الأخلاقي) المتقدّمة.

٢ ـ **الأخلاق بالمعنى الأعمّ:** ويريد بها الأعراف والتقاليد التي تختلف باختلاف المجتمعات، فيتصوّر النسبيّة الأخلاقيّة في القسم الثاني دون الأوّل.

الاتّجاه الثالث: وهو الاتّجاه الذي يرفض مبدأ النسبيّة في الأخلاق، وهذا هو الاتّجاه الذي يتبنّاه السيّد السبزواري ﷺ، حيث يقول: «التغيّر في الأخلاق، والتبدّل في الفضائل، والقول بالتطوّر والتكامل في الأخلاق، والذهاب إلى أنّه ليس للحسن والقبح أُصول مسلّمة مطلقاً، وإنّما المناط هو ابتغاء المنفعة ودفع المضرّة، سواء كانتا فرديّتين أو اجتماعيّتين، وكلّ ذلك ما هو إلّا مذهب قديم في الأخلاق دعا إليه بعض الماديّين.. وهو مذهب فاسد»[١].

وهذا الاتّجاه الذي تبنّاه السيّد السبزواري ﷺ هو الاتّجاه المستلهم من المبادئ والمفاهيم الإسلاميّة، وإن خالف في ذلك بعض من تشهّد الشهادتين، كالغزالي في «إحياء دينه»[٢].

وبالنتيجة: فهذا الاتّجاه يلتقي مع الاتّجاه الثاني في نتيجته، ومجرّد تسليمه بوقوع النسبيّة في الأخلاق بالمعنى الأعمّ ليس بمضرّ، بعد وضوح كون النزاع في الأخلاق بالمعنى الأخصّ، وكلا الاتّجاهين يؤمنان بعدم وقوعها فيه.

---

(١) مواهب الرحمن: ٢/٢٥٧.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤/٣٩.

الثاني : الجانب العملي :

مرّ علينا أنّ المدرسة الأخلاقيّة عند السيّد السبزواري ﷺ تحمل منهجاً تكامليّاً، جمع بين الجانب العملي من جهة، والجانب النظري من جهة أُخرى.

وقد تحدّثنا في ما تقدّم من السطور عن الجانب النظري في مدرسة السيّد السبزواري ﷺ الأخلاقيّة، وما هو إلّا وسيلة وأداة لتحقيق الجانب العملي على طبق القوانين الأخلاقيّة.

ومن هنا جاء في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها أحد إخوانه في الله أنّه **«كان يفعل ما يقول، ولا يقول ما يفعل»**[1].

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: **«لا معرفة إلّا بعمل، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له»**[2].

وللحديث عن الجانب العملي في مدرسة السيّد السبزواري ﷺ الأخلاقيّة نسلّط الضوء عليه من خلال مؤشّرات:

المؤشّر الأوّل: أدبه مع الله سبحانه وتعالى

وهنا وقفتان:

الوقفة الأُولى: والتي نقفها مع السيّد السبزواري ﷺ في الفترات الزمنيّة التي يعيش فيها السيّد ﷺ عملية الإفتاء الصعبة، لنجد بأنّ السيّد ﷺ مع أنّه قد استطاع أن يصل إلى أرقى درجات الفقاهة والإفتاء، إلّا أنّه إذا وقف بين يدي (الفتوى) واستطاع أن يستنتجها من أدلّتها وقواعدها لا يصدرها إلّا ويعقبها بقوله: «والله

---

(١) بحار الأنوار: ٦٦/٢٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ١/٢٠٧.

العالم »، وهذه من أروع صور التفاني ونسيان الذات ونكران الأنا بين يدي الله سبحانه وتعالى.

الوقفة الثانية: من مظاهر العبوديّة الصادقة، ومصاديق الانقياد الخالص، الذي يعكس مدى الأدب العبودي المنبعث عن قلب لا يعرف إلّا الله، كلام العبد الناقص عن مولاه الكامل، وحديث الحبيب عن أعظم محبوب، ومن أجمل الحديث حديث السيّد السبزواري ﵀ عن خالقه الباري سبحانه وتعالى عندما يقول:

« والله أجلّ لفظ في الممكنات كلّها، لأعظم معنى في الموجودات جميعها، بهتَ في عذوبة لفظه كلّ سالك مجذوب، وتحيّر في عظمة معناه جميع أرباب القلوب، تتدفّق المحبّة والرأفة عن الإسم، فكيف بالمعنى؟! فكأنّ نفس المعنى يتجلّى فيه ويقول: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا** ﴾[1] جُمعت فيه من الكمالات حقائقها، ومن الألطاف والعنايات دقائقها ورقائقها، تطلبه الملائكة الكروبيّين كما يطلبه أهل الأرضين، والكلّ لا يصل إليه، ظهر لغيره بالآثار، وخفي عن الجميع بالذات، فما أعظم شأنه، فقد عجزت العقول ـ وإن قويت فطنتها ـ عن درك أفعاله، فضلاً عن صفاته، فكيف ذاته؟ فكلّما زاد الإنسان تأمّلاً فيه زيد تحيّراً وجهلاً »[2].

المؤشّر الثاني: أدبه مع المعصومين ﵈

كثير اُولئك الذين يوالون محمّداً وآل محمّد ﷺ، ويعادون أعداءهم، ولكنّ القليل منهم من يعيش الولاء في أعمق معانيه، الولاء الذي تعكسه أفعال الإنسان وأنفاسه وأفكاره.

ففي بعض الأحيان تجد الأنفاس الولائيّة المفعمة بالحبّ لمحمّد وآله ﷺ

---

(١) طه ٢٠: ١٤.

(٢) مواهب الرحمن: ١/ ١٤.

تتحرّك في حياة الإنسان ، إلّا أنّ الروح العدائيّة المتمّمة لتلك الروح الولائيّة تكاد تكون مفقودة في حياة ذلك الإنسان ، وهنا يكون الولاء ولاءً جافّاً وهامشيّاً تحرّكه العواصف وتتجاذبه التيّارات .

وقد كان السيّد السبزواري ﷺ يحمل روحاً ولائيّة نابضة ، تتحرّك معه في جميع أنفاسه وحركاته ، فكان متحمّساً في ولائه وعقيدته ، شديداً في عدائه لأعداء آل محمّد ﷺ وغاصبيّ حقّهم .

فالسيّد السبزواري ﷺ وهو في سنّ العشرين من عمره ، خرجَ ماشياً على قدميه من مشهد الإمام الرضا ﷺ إلى مشهد مولانا أمير المؤمنين ﷺ في النجف الأشرف .

والسيّد السبزواري ﷺ كان كثيراً ما يخرج ماشياً على قدميه من أرض النجف الأشرف إلى أرض كربلاء المقدّسة لزيارة جدّه سيّد الشهداء ﷺ ؛ لأنّ زيارة الحسين ﷺ هي إحدى الشعائر التي كان يقول عنها في أحد استفتاءاته : « إنّ من أهمّ وسائل النجاة ، وأوثق أسباب التوسّل ، إقامة الشعائر الحسينيّة وتعظيمها وإدامتها ، فإنّها من شعائر الله جلّت عظمته » .

وتجد أنفاسه الولائيّة تتجلّى بوضوح عندما نقلّب صفحات كتابه « مواهب الرحمن » ، فتقرأ أنفاسه الزكيّة ـ على سبيل المثال ـ في غضون كلامه حول مبدأ الشفاعة والشفعاء ، حيث يقول : « ومنهم ـ أي الشفعاء ـ بنت خاتم الأنبياء ، وسيّدة النساء ، الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء ﷺ .

بل إنّ شفاعة سيّدة النساء من شفاعة سيّد الأنبياء ﷺ ؛ لما رواه الجمهور وغيرهم ، بأسانيد متواترة عنه ﷺ : « **فاطمة بضعة منّي** » ، وليس المراد من لفظ « البضعة » الجزء الخاص ، كاليد والعين والقلب ، بل المراد الجزء السرياني في بدنه الأقدس ، من حيث تعلّق الروح المقدّسة المؤيّدة بروح القدس ، ويشهد لما قلناه أنّ علمها من علمه ﷺ .

وقد أجمع أولادها المعصومون عليهم السلام على أنّ عندهم مصحف فاطمة ، بل كانوا يفتخرون به ، وهو من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ عليّ عليه السلام بيده ، وفيه علم ما كان وما يكون ، كما في الروايات ، ولا يعقل الانفكاك بين البضعة السريانيّة والكلّ »[1].

وتقرأ أنفاسه المفعمة بعبق الولاء أيضاً عندما يتحدّث عن مقام الاصطفاء ، وموقع السادّة المعصومين عليهم السلام منه ، فيقول : « وتختلف درجات الاصطفاء حسب اختلاف درجات الفضل ، ورأس كلّ مصطفى ورئيسهم أشرف الكائنات على الإطلاق ، وسيّد الخلائق ، مجمع كلّ فضيلة ومكرمة ، ومظهر كلّ فيض ورحمة ، خاتم الأنبياء ، الذي وصل إلى ما لم يصل إليه أحد من العالمين في الأخلاق السامية والكمالات الإنسانيّة ، حتّى وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى ، بما لم يحظَ به الأملاك والأفلاك .

ويلحق به أهل بيته ، الذين هم من البضعة الطاهرة الصدّيقة ، التي تربّت في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصلت إلى مقام الرضا لأبيها ، وهو القائل فيها : **فاطمة منّي ، يرضيني ما يرضيها ، ويغضبني ما يغضبها** ، وهي مستودع علم رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومظهر أخلاقه القدسيّة ، والذرّيّة الطيّبة من نسلها ، وهم المعصومون المطهّرون الممتازون عن سائر الخلق خَلْقاً وخُلُقاً ، وهم أسرار الله تعالى ، ومظهر أسمائه وصفاته ، ومحال تجلّياته الخاصّة ، ومبلغ أمره ونهيه ، وهي من تلك الذرّيّة المصطفاة التي تبقى إلى آخر الدهر لتقيم العدل وتمحق الجور »[2].

المؤشّر الثالث : أدبه الذاتي (الزهد والورع)

لم يكن زهد السيّد السبزواري قدس سره زهداً صوفيّاً كما يدّعيه بعضُ مَنْ يدّعي

---

(١) مواهب الرحمن : ٤/٢٠٥.

(٢) مواهب الرحمن : ٥/٢٧٣.

القداسة ، وإنّما كان زهده زهد جدّه أمير المؤمنين عليه السلام ، الذي يخشى أن يبيت مبطاناً وحوله الجياع من رعيّته .

فالسيّد السبزواري قدس سره كان لا يملك منزلاً ومسكناً منذ أن اكتنفته أحضان النجف الأشرف طالباً كسائر الطلّاب ، حتّى أصبح مرجعاً من أعظم مراجع الإسلام[1] .

وقد جاءه يوماً أحد كبار تجّار البحرين قاصداً أن يقدّم خدمة للسيّد السبزواري قدس سره ، بعد أن علم بأنّ سماحته لا يملك منزلاً ، فرفض السيّد السبزواري قدس سره ذلك ، وأمره أن يقوم بإعادة بناء أحد المساجد المعروفة في النجف الأشرف .

وكان قدس سره لا يمتلك آلة تبريد الهواء ، كما كانت ثيابه واحدة صيفاً وشتاءً ، ولمّا خوطب في ذلك كان يقول : «كلّ شيء من الحبيب حبيب» .

والسيّد السبزواري قدس سره كان يأبى على نفسه أن يتعامل مع حقّ الإمام عليه السلام بمختلف أنواع التعامل ، بل كان يعيش على القرض وهدايا المؤمنين .

وهو قدس سره الذي كان في بعض الأحيان لا يستطيع طباعة مؤلّفاته وكتبه ؛ لأنّه لا يملك مالاً يتحمّل نفقة الطباعة ، مع أنّ جزءً ليس بالقليل من أموال المؤمنين بين

---

(١) الذي يجدر الالتفات إليه : أنّ طالب العلم ينبغي أن لا يولي اهتماماً بالجهات المادّيّة ، بل ينبغي أن ينصبّ اهتمامه على التحصيل واكتساب المعارف ، والله سبحانه وتعالى هو المتكفّل برزقه وسدّ فاقته ، كما نطقت بذلك جملة من الروايات ، وقد تحدّث السيّد السبزواري قدس سره عن ذلك ، فقال : «وتشهد له التجربة والتأمّل في حالات العلماء الماضين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) لأنّهم كانوا في نهاية الفقر ، الذي قد لا يتصوّر فوقه فقر ، وقد اختاروا طلب العلم ، واستقاموا في ذلك ، فكفاهم الله شؤون دنياهم ، وتلك سنّة الله التي قد جرت في عباده ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب ٣٣ : ٦٢] ، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر ٣٥ : ٤٣] ، ولو أردنا أن نذكر في ذلك بعض ما شاهدناه في أنفسنا ورأيناه من مشايخنا العظام ، لصارَ ذلك كتاباً مستقلاً ، وفي يسيرٍ من الكثير عبرة لمن اعتبر» . مهذّب الأحكام : ١٦/١٩٧ .

يديه وتحت تصرّفه[١].

المؤشّر الرابع: أدبه مع مجتمعه

وهنا وقفتان:

الوقفة الأُولى: تواضعه: ولم يكن تواضع السيّد السبزواري ﷺ تواضعاً مصطنعاً، بل كان يعيش مفهوم التواضع في أسمى معانيه وبدون تكلّف وتصنّع مع جميع أبناء المجتمع ومختلف طبقاته.

فالسيّد السبزواري ﷺ كان يقوم بتكنيس مسجده بنفسه.

والسيّد السبزواري ﷺ كان يقوم بغسل ثيابه بنفسه[٢].

وكان يرفض أن يسجّل اسمه في الدوائر الرسميّة كأحد مراجع الدين، بل كان

(١) يقول ﷺ في جمع المال: «وهو من أهمّ الموانع التي تصدّ الإنسان عن ذكر الله تعالى والقيام بوظائفه الشرعيّة، وهو من العوائق التي تعيق عن الاستكمال والتخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ، اللّهمّ إلّا أن يكون لأجل الإنفاق فيما يرتضيه الله تعالى، فيرجع إلى حبّ الله تعالى، ولكن مع ذلك جمع المال بنفسه من المبعدات عن حظيرة القدس وساحة الرحمن، ولعلّ السرّ في كثرة تنزّه الأنبياء عليهم السلام والأولياء عن الدنيا هو ذلك». مواهب الرحمن: ١١٩/٧.

(٢) وقد ورد في الروايات الحثّ على كلا الأمرين والترغيب فيهما، فعن الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ رسول الله ﷺ قال: من قمّ مسجداً كتب الله له عتق رقبة، ومن أخرج منه ما يقذي عيناً كتب الله عزّ وجلّ له كفلين من رحمته»**.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: **«قال رسول الله ﷺ: من كنس مسجداً يوم الخميس ليلة الجمعة فأُخرج منه التراب ما يذرّ في العين غفر له»**.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«غسل الثياب يذهب بالهمّ والحزن، وهو طهور للصلاة»**. بحار الأنوار: ٣٢٢/٧٦.

حاله كحال سائر الطلبة والمشتغلين .

ويتحدّث السيّد محمّدحسن الطالقاني عن مدى تواضع السيّد ﷺ فيقول : « وقد كُتبَ لي شرف التعرّف عليه منذ الصغر ، ولا أزال أذكر أنّه كان قبل أكثر من نصف قرن من ﴿ **الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً** ﴾[1] ، وكان يلوذ في مشيه بجانب الزقاق ، شبه منكسر ، في رواحه وغدوّه من البيت إلى المسجد الذي يصلّي ويدرّس فيه ، إلى حرم أمير المؤمنين ﷺ الذي كان يزوره ليستمدّ من روحه ، ويجدّد به وله العهد على الاستقامة ، حتّى الانتقال إلى دار الإقامة .

وكان يتميّز بالهدوء والتواضع ، فإذا سلّم عليه أحد وقف احتراماً له ، كبيراً كان أو صغيراً ، شريفاً أو وضيعاً ، وجامله وعلى فمه علت ابتسامة موقّرة بريئة .. وأُشهد الله ـ والرجل غني عن ثنائي وشهادتي ـ أنّه استمرّ على ذلك منذ اليوم الأوّل إلى اليوم الذي فارقته ، فما رأيته مزهوّاً ولا متبختراً ، ولا راغباً في الظهور ، أو متصدّياً للبروز ، أو طالباً للجاه والعنوان ، بل لاحظت أنّه بعد أن تقدّم بـه العـمر والمـقام ، وعُرفَ في الأوساط كافّة ، وصار له مـقامه بـين الجـمهور كـان يـخرج من البيت أو المسجد ـ وخلفه بعض طلّابه أو المؤمنين أو أحد أنجاله ـ فكـان يـبدو طـبيعيّاً مترسّلاً ، لا يفرّق بين ذلك المظهر وبين ما إذا كان يمشي منفرداً ، ومن أجل ذلك أحبّه النّاس ، كلّ النّاس ، وتعلّقوا به وقدّسوه »[2] .

الوقفة الثانية : عطفه ورأفته : كان السيّد السبزواري ﷺ ودوداً ، عطوفاً ، يتعامل مع المجتمع تعامل الأبوّة والاخوّة ، وبكل عطف وحنان ، ولذلك كان هو الكهف الذي تلجأ إليه جميع طبقات المجتمع وتعيش في آفاق رأفته .

فهو المتفقّد دائماً لأحوال الفقراء والضعفاء من الطلبة وغيرهم ، حتّى يشملهم

---

(١) الفرقان ٢٥ : ٦٣ .

(٢) جمال السالكين : ٦٦ .

برعايته، ويوليهم عنايته، وهو المقدّر لما يبذله الطالب من الجهود في سبيل التحصيل العلمي، والمشجّع له بالمنح والهدايا، وغير ذلك.

فمن مظاهر عنايته ورعايته: ما ينقله بعضهم عن المرجع الديني الكبير السيّد السيستاني ـ دام ظلّه ـ من أنّه ﷺ كان كثير الاعتناء بالطلبة والمشتغلين، خصوصاً من لهم حديث عهد بالنجف الأشرف، وكان السيّد السيستاني ـ دام ظلّه ـ هو أحد الذين شملتهم عناية السيّد السبزواري ﷺ، وذلك أبّان مجيئه إلى النجف الأشرف[1].

ومن المظاهر المنبعثة عن عطفه وحنانه: أنّه لمّا استجدّت الأحداث السياسيّة بين العراق والكويت، وكان الناس داخل العراق يعيشون أقسى حالات الفقر والجوع، جاءته إحدى النساء الكويتيّات وهي لا تجد لقمة عيش تسدّ بها رمقها، وطلبت من بيت السيّد أن يمدّوا لها يد العون والمساعدة، فجاءوا السيّد وأخبروه بأمر المرأة الكويتيّة، وكان السيّد حينها لا يملك إلّا كميّة من الطعام، فأمر بتقديمها بأكملها إلى تلك المرأة.

ومن المظاهر الكاشفة عن عمق ما يختزنه من الرأفة والحنان: ما ينقله العلّامة السيّد حسين بحرالعلوم (حفظه الله) حيث يقول: «أما عن أبوّته ورعايته للحوزة العلميّة خصوصاً، ولأيتام آل محمّد ﷺ عموماً، فيكفي أن أقول: بأنّ هناك سجلّات كانت بأسماء العوائل الفقيرة، ليس في النجف فقط، وإنّما في عموم المحافظات العراقيّة، وكان أوكل مهمّة الإحصاء وإيصال المساعدات والرواتب الشهريّة إليهم عن طريق وكلاء عيّنهم ولم يكونوا من العلماء، وجاءه مرّة وكيله في

---

(١) وقد سمعتُ من أخي وأُستاذي سماحة السيّد منير الخبّاز (دام مؤيّداً) أنّه كانت بين السيّدين السبزواري ﷺ والسيستاني (دام ظلّه) علاقة حميمة جدّاً، وكان السيّد السيستاني ـ دام ظلّه ـ يقول: «مجلسان في النجف الأشرف استفدت منهما كثيراً: مجلس السيّد السبزواري ﷺ، ومجلس السيّد جعفر المرعشي ﷺ».

كربلاء يخبره عن العوائل التي كانت تصل إليها المساعدات من قِبله، بأنّه لم يعثر عليهم، لأنّ بيوتهم كانت قد هدّمتها السلطة في أيام الانتفاضة، وما كان منه ﷺ إلّا أن قال له: «لا تكتفي بالبحث عنهم في كربلاء فقط، بل ابحث عنهم أينما كانوا، وأوصل إليهم ما كان مقرّراً لهم منّا»[١].

وكذا من مظاهر عنايته بفضلاء الحوزة وتقدير جهودهم العلميّة وملكاتهم الفاضلة ـ وإن لم يكونوا على علاقة شخصيّة معه ـ ما سمعته من أُستاذي المعظّم العلّامة الحجّة الورع التقي الشيخ هادي العسكري (دامت بركاته)[٢]: من أنّه لمّا

---

(١) مجلّة النور: ١٤١٢/٣/٢٨هـ.

(٢) هو سماحة الشيخ هادي العسكري (دامت بركاته) المولود في النجف الأشرف عام ١٣٥٤هـ، وقد هاجر منها برفقة والده المقدّس ﷺ عام ١٣٦٠هـ إلى سامراء، وفيها أخذ مقدّمات العلوم، وأغلب دروس السطح العالي عند فضلائها المعروفين، كالميرزا محمود الشيرازي ﷺ، والميرزا حبيب الله الاشتهاردي ﷺ، ثمّ رجع إلى مقرّ ولادته مرّة أُخرى سنة ١٣٧٨هـ، وفيها حضر عند السيّد الخوئي ﷺ، فكان من مبرّزي تلامذته ومقرّبيهم إليه، كما حضر عند السيّد الخميني ﷺ مدّة وجوده في النجف الأشرف واستفاد منه، وبقي في النجف مدرّساً وأُستاذاً بارعاً حتّى هُجّر قبل سنوات عشر تقريباً، فجاء إلى قم المقدّسة واشتغل بالبحث والتدريس والإجابة عن الشبهات المنحرفة والأسئلة العقائديّة التي ترد على موقع (رافد) الالكتروني.

وقد حضرتُ عنده باب الاستصحاب من (الكفاية)، كما حضرت عنده بيع الوقف من بيع (المكاسب)، فوجدته من خيرة المدرّسين الذين حضرت كتاب المكاسب عندهم، بل لعلّي لم أجد له نظيراً في خبرته بآراء الشيخ الأعظم ﷺ، وتسلّطه على كلماته، وقد طلبتُ منه حينها أن يشرع معي خارج الفقه، فرفض ذلك وأصرّ على رفضه، لشدّة تواضعه ونكرانه لذاته، مع أنّه لا يقلّ عن غيره من المتصدّين لتدريس البحث الخارج، بل هو أفضل من الكثيرين منهم بلا ريب ولا شبهة.

فأسأل الله تعالى له دوام الصحّة والعافية، ولنا دوام الاستفادة منه ومن أمثاله.

أُصيبت رجله ونقل إلى إحدى مستشفيات بغداد ـ وهو في حالة يرثى لها ، بحيث لمّا رآه الطبيب قال لمن جاؤوا به : وماذا تريدون منّي أن أصنع مع شخص ميّت بقي في حال غيبوبة لمدّة أربعة أيّام ، فلمّا بلغ خبره إلى السيّد السبزواري ﷺ ـ ولم يكن على علاقة خاصّة معه ـ بعث له مع أهله بشيء من تربة سيّد الشهداء الحسين ﷺ ، وطلب منهم أن يضعوها في فمه ، فلمّا جاء أهله لزيارته ووضعوا التربة الشريفة في فمه أفاق من إغمائه ـ بشكل جزئي ـ فوراً وفي نفس اللحظة ، وتحسّنت أحواله ، ولبس أثواب الصحّة والعافية ببركة التربة الحسينيّة (على مشرفها أفضل التحيّة والسلام) ، وببركة عناية السيّد السبزواري ﷺ .

ويتحدّث الحجّة السيّد جمال الدين الاسترابادي (دام ظلّه) ـ أحد مقرّري بحث السيّد ﷺ ـ عن مدى العناية التي كان السيّد ﷺ يوليها له ، فيقول : « إنّي أعترف بالقصور عن أداء شكر سيّدنا الأُستاذ آية الله العظمى (مدّ ظلّه العالي) ، فإنّ عنايته عليَّ كثيرة جدّاً ، اللّهمّ اشكر سعيه في تربيتي ، وأثبه على تكرمتي ، ولا تنسني ذكره في أدبار صلواتي »[1] .

المؤشّر الخامس : أدبه مع أساتذته

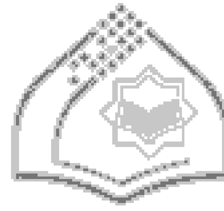
علاقة الأُستاذ بتلميذه ، وكذا علاقة التلميذ بأُستاذه ، يجب أن تكون أكبر عمقاً من علاقة التعليم والتعلّم ، التي تفرضها طبيعة التلمذة وفترة الارتباط التدريسي المحدودة .

ومن هنا كانت علاقة السيّد السبزواري ﷺ مع أساتذته الأجلاء تعيش واقعاً معمّقاً ، حتّى بعد أن وصل السيّد السبزواري ﷺ إلى كرسي الزعامة والإفتاء ، وأصبح أحد كبار أساتذة الحوزة في النجف الأشرف .

---

(١) المحجّة العظمى في شرح العروة الوثقى : ٥٠٢ .

فكان السيّد السبزواري ﷺ لا يرقى منبراً أثناء تدريسه ، مع أنّ مستوى الحضور كان يفرض عليه ذلك ، وعندما سئل السيّد السبزواري ﷺ عن ذلك ، أجاب : « إنّني أفعل ذلك تأسّياً بأساتذتي » ، وهذه صورة من أروع الصور الأدبيّة التي عاشها السيّد السبزواري ﷺ مع أساتذته وشيوخه .



الجانب العرفاني

عادةً ما تكون هناك ميزة مّا، تميّز بعض العلماء عن البعض الآخر، ولعلّ من الميزات البارزة في شخصيّة السيّد السبزواري ﷺ كونه من أبرز علماء العرفان اللامعين على الصعيدين النظري والعملي[1].

بل هو أحد روّاد المدرسة العرفانيّة، إن لم نقل بهيكليّته المستقلّة في اطار هذه المدرسة.

فمدرسته النظريّة في علم العرفان تتجلّى في أبحاثه القيّمة المتناثرة بين طيّات تفسيره القيّم «مواهب الرحمن».

ومدرسته العمليّة تتجلّى في علاقته العميقة بالله سبحانه وتعالى، وسيره وسلوكه المتألّق إلى الحقّ جلّ وعلا.

والحديث عن «الجانب العرفاني» عند السيّد السبزواري ﷺ نتناوله من خلال خمسة مؤشّرات، هادفين إلى الإلمام بهذا الجانب من خلال جميع قنواته وأبعاده:

---

(١) ومن مهازل هذا الزمن أن أصبح هذا العلم الشريف لقمة سائغة للمرتزقة والجهلة، ففي الوقت الذي يرى فيه السيّد السبزواري عدم وجود المؤهّل لحمل هذا العلم الشريف في زماننا ـ كما ستوافيك كلماته ـ يوجد الآن الكثير ممّن يهرّج على الناس ـ مظهراً ومنطقاً ـ بعلم العرفان، وهو لا يفقه من العرفان حتّى اسمه.

المؤشّر الأوّل: حقيقة علم العرفان

علم العرفان يمكن تعريفه بأنّه: العلم الباحث عن كيفيّة سير الإنسان وسلوكه إلى الله عزّ وجلّ.

وقد قسّمه المختصّون إلى قسمين:

١ ـ القسم الأوّل: علم العرفان العملي.

٢ ـ القسم الثاني: علم العرفان النظري.

ومرادهم من القسم الأوّل: «الجانب الذي يبيّن العلاقات والواجبات المفروضة على الإنسان مع نفسه، ومع العالم، ومع الله»[1].

ويسمّى هذا القسم من العرفان بـ«السير والسلوك»، وفيه يشار ويوضّح «للسالك» كيف يجب أن يبدأ، ومن أين يسلك للوصول إلى قمّة الإنسانيّة المنيعة، وهي «التوحيد»، وما هي المنازل والمراحل التي ينبغي أن يطويها بالترتيب، وفي هذه المنازل أثناء الطريق ماذا يجري عليه من أحوال، وماذا ترد عليه من واردات[2].

ومرادهم من القسم الثاني: ما يقوم بتفسير الوجود، ويبحث بشأن الله والعالم والإنسان، فهو يشبه الفلسفة الإلهيّة في هذا القسم من جهة تفسير حقيقة الوجود وتوضيحها، وكما أنّ للفلسفة الإلهيّة موضوعاً ومبادئ ومسائل، فإنّ للعرفان أيضاً موضوعاً ومسائل ومبادئ، ولكن الفلسفة من جهتها تستند في استدلالاتها إلى المبادئ والأُصول العقليّة فقط، أمّا العرفان فإنّه يجعل المبادئ والأُصول الكشفيّة أصل الاستدلال، ثمّ يقوم بتوضيحها بلغة العقل وقلمه[3].

---

(١) و (٢) علم العرفان / المطهّري: ١٣ و ١٤.

(٣) المصدر المتقدّم: ٢١.

المؤثّر الثاني: جذور علم العرفان

علم العرفان كأحد العلوم الإسلاميّة لا بدّ أن ينتمي إلى أحد صنفين من العلوم، فهو إمّا أن ينتمي إلى صنف العلوم «التأسيسيّة» التي غرس بذرتها الدين، كعلم الفقه وعلم التفسير وما شابههما، وإمّا أن ينتمي إلى صنف العلوم «الإنسانيّة» التي غرس بذرتها الإنسان، وساهم في تنميتها الدين، كعلوم الطبّ والفيزياء والفلسفة.

وبهذا تتّضح الرؤية لدى الباحث بأنّ علم العرفان إنّما هو من العلوم التأسيسيّة الممتدّة الجذور لصلب شجرة الإسلام، التي غرس بذرتها القرآن الكريم ونمّاها الرسول الأعظم ﷺ والأئمّة الأطهار ﷺ، وحافظ عليها علماء مدرسة أهل البيت ﷺ.

وإن كانت الرؤية عند بعض المستشرقين تختلف عن هذه الرؤية تماماً، إذ يصرّون على أنّ الأفكار العرفانيّة اللطيفة والعميقة قد دخلت من خارج العالم الإسلامي إليه، فيقولون أحياناً: إنّ جذوره مسيحيّة، وإنّ الأفكار العرفانيّة قد نشأت نتيجة ارتباط المسلمين بالرهبان المسيحيّين، وأحياناً يعتبرونها ردّة فعل إيرانيّة ضدّ الإسلام والعرب، وقد عدّها بعضهم حصيلة الفلسفة الإفلاطونيّة الجديدة، التي هي عبارة عن تركيب ما بين أفكار أرسطو وإفلاطون وفيثاغورس والإسكندريّين وآراء المسيحيّين واليهود وعقائدهم، واتّجه البعض إلى اعتبارها من نتاج الأفكار البوذيّة، كما سعى مخالفو العرفان في العالم الإسلامي وما زالوا لأجل تثبيت نظريّتهم في اعتبار كلّ من العرفان والتصوّف غريبين عن الإسلام، والقول بأنّ جذورهما غير إسلاميّة[1].

ولكنّ هذه الرؤية المضطربة لم يقدّر لها البقاء طويلاً، إذ اعترف بعض أكابر

---

(١) علم العرفان: ٣٥.

المستشرقين أمثال ينكولسون الإنكليزي وماسيتيون الفرنسي بأنّ المصدر الأُمّ لعلم العرفان هو الكتاب والسنّة.

ويضاف بأنّ إنكار هذه العلاقة ما هو إلّا مكابرة واضحة، خصوصاً مع وجود الكتابين الجليلين «نهج البلاغة» و«الصحيفة السجّاديّة» إلى جنب القرآن الكريم بين أيدينا وتحت متناولنا.

المؤشّر الثالث: العرفان والتصوّف

الباحث في علم العرفان ولأوّل وهلة دائماً ما يتصوّر نحواً من العلاقة بين علم العرفان وحركة التصوّف، ولعلّ هذا التصوّر ناتج عن الإيحائات المنعكسة عن المظاهر الخارجيّة لبعض علماء العرفان، والمحاكية للهيكليّة الخارجيّة لحركة التصوّف، المتجسّدة في اللباس الخشن، والحذاء المرقّع، والعزلة الدائمة.

مع أنّ الحقيقة الواقعيّة لعلم العرفان والعرفاء لا تكمن في هندسة الهيكل الخارجي، إذ قد يوجد في عالم العرفان «عرفاء لا يتميّزون بالظاهر عن الآخرين في شيءٍ، وهم في نفس الوقت من أعمق أهل السير والسلوك العرفاني، وفي الحقيقة إنّ العرفاء الحقيقيّين هم من أهل هذه الطبقة، لا اُولئك الذين اخترعوا من تلقاء أنفسهم مئات الآداب، وابتدعوا ما شاءوا من البدع»[1].

بالإضافة إلى وجود الفوارق الجوهريّة بين منهج المتصوّفة ومنهج العرفاء على الصعيد الفكري «فالعرفان.. ينطلق من المعرفة الإلهيّة وصولاً إلى حالة تكامليّة تسعى للتكامل مع الإنسان السوي، الذي أراده تعالى ليكون خليفته في الأرض.

وتوحيد العارف بالله ينطلق من إدراكه أنّ الوجود الحقيقي ينحصر بالله تعالى، فكلّ ما عدا الله مظهر لا وجود له، فتوحيد العارف هو لا شيء إلّا الله، وهو توحيد

---

(١) علم العرفان: ١٢.

يكون في طيّ طريق الوصول إلى مرحلة لا يرى فيها إلّا الله ، وما أراد منه .

وبهذه الخاصّة ينفرد العرفان الشيعي عن العرفان الذي قالت به الصوفيّة ، حيث اعتبروا أنّ العارفين هم من أشهدهم الله عليه ، فظهرت الأحوال عن نفسه والمعرفة عن حاله[1].

المؤشّر الرابع : العرفان عند السيّد السبزواري ﷺ

الأفكار العرفانيّة في الرؤية الحوزويّة تتقلّب بين فئتين :

الفئة الأُولى : وهي التي ترى بأنّ الفكر العرفاني هو أحد العلوم التي يقال في حقّها « علم لا ينفع مَن علمه ، ولا يضرّ مَن جهله » وطلبه وتحصيله مضيعة للعمر ، وكاشف عن الضعف الكامن في الشخصيّة العلميّة .

وهذه الرؤية معارضة للوجدان ؛ لما هو معلوم من أنّ كبار علماء العرفان يعدّون من أجلّاء العلماء والفقهاء على المستوى الحوزوي .

الفئة الثانية : هي التي ترى بأنّ الفكر العرفاني أحد العلوم الإسلاميّة الجليلة ، التي تلعب دوراً كبيراً في إثراء الحركة العلميّة والفكريّة على الصعيدين الفلسفي والكلامي .

ومن أبرز روّاد هذه الفئة « الملّا صدر الدين الشيرازي » المعروف بـ « صدر المتألّهين » الذي سلك مسلك العرفاء ، فاستطاع أن يثري المدرسة الإسلاميّة بأدقّ النظريّات الفلسفيّة المهمّة ، والتي كان من بينها النظريّة المشهورة « نظريّة الحركة الجوهريّة » .

بل قيل : بأنّ كتابه « الأسفار » ما هو إلّا ثمرة من ثمرات سيره وسلوكه في المسلك

(١) التشيّع والتصوّف : ١٦٣ .

العرفاني ، وما أجمل ما ذكره العلّامة المظفّر ﷺ في حديثه عن صدر المتألّهين ﷺ. قال : وهو يعتقد بأنّ الإنسان يتمكّن من الحصول على العلم اللدني والانكشاف اليقيني ، بطول المجاهدات والانقطاع إلى الله تعالى ، بعد تصفية الباطن ورفع الحجب عن النفس ، لذلك قال ﷺ نتيجة لتلك العزلة : « اشتعلت نفسي لطول المجاهدات ، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً ، ففاضت عليها أنوار الملكوت ، وحلّت بها خبايا الجبروت ، ولحقتها الأضواء الأحديّة ، وتداركتها الألطاف الإلهيّة ، فاطلعتُ على أسرار لم أكن اطّلعت عليها إلّا الآن ، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان ، بل كلّ ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان »(١).

فصدر المتألّهين يرى أنّ المعرفة تحصل من طريقين :

١ ـ طريق البحث والتعلّم والتعليم ، الذي يستند على الأقيسة والمقدّمات المنطقيّة.

٢ ـ طريق العلم اللدني الذي يحصل من طريق الإلهام والكشف والحدس.

وهذا الأخير إنّما يحصل بسبب تجريد النفس عن شهواتها ولذائذها ، والتخلّص من أدران الدنيا وأوساخها ، فتنجلي مرآتها الصقيلة ، وتنطبع عليها صور حقائق الأشياء كما هي ، إذ تتّحد النفس بالعقل الفعّال حينما تحدث لها فطرة ثانية بذلك(٢).

ولا يكتفي صدر المتألّهين ببيان هذه الأطروحة ، بل يندّد بأصحاب الفئة الأولى ، فيقول : إنّ كثيراً من المنتسبين إلى العلم ينكرون العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه السلّاك والعرفاء ، وهو أقوى وأحكم من سائر العلوم(٣).

---

(١) الأسفار : ٧/١.

(٢) و (٣) الأسفار : ٩/١.

وبعد بيان هذه اللمحة الخاطفة عن أحد روّاد هذه الفئة، نستطيع التعرّف على قيمة الفكر العرفاني عند السيّد السبزواري ﷺ الذي كان نجماً ساطعاً في آفاق الساحة العرفانيّة، فالسيّد السبزواري ﷺ يرى بأنّ الفكر العرفاني من العلوم المهمّة للوصول إلى الحقائق المعرفيّة، وإن كان ضيّعه بعض وتجاهله آخرون.

فتجده في بحوثه العرفانيّة يعيش نفثات حارّة مختزنة في داخله، يأسف فيها على أُولئك النفر الذين أضاعوا هذا العلم الشريف وتجاهلوا مقامه.

فتقرأ قوله ـ مثلاً ـ في ختام أحد أبحاثه العرفانيّة: « والبحث نفيس جدّاً لو وجدت لهذا العلم الشريف حملة »[1].

وفي موضع آخر: « والغور في البحث مستلزم للخروج عن الموضوع، ولم أرَ مَن يليق بذلك في زماننا هذا »[2].

وبتعبير آخر في موضع ثالث يقول: « ولكلّ من هذه الأُمور مراتب ودرجات وحدود، ولولا قول نبيّنا الأعظم ﷺ: « **المؤمن ملجم** » لكان لغور البحث فيها مجال »[3].

ويقول ﷺ في بعض كلماته الشريفة: « العرفان علم جليل ليس له مثيل في سائر العلوم مطلقاً في الشموليّة والسعة والآثار، والسالك والمسلوك فيه والمقصد والغاية، وكلّها جلائل عظام، والبحث في كلّ واحدة منها يقصر عنه الأفهام، إلّا لمن كان ذا حظّ من العلم والمعرفة، وهم الأنبياء العظام والأوصياء الكرام، فهم الأصل في هذا العلم الجليل، والقدوة في هذا الطريق »[4].

---

(١) مواهب الرحمن: ١٨١/٢.

(٢) مواهب الرحمن: ١٦٣/٩.

(٣) مواهب الرحمن: ١٩٨/٩.

(٤) مواهب الرحمن: ٥٤٣/١٢.

وآخر كلمة تقال عند تأشيرة الخروج من هذا المؤشّر: إنّ علم العرفان من العلوم الجليلة النابعة من فكر أهل البيت ﷺ، وقد سطع في أفقه جمع من العلماء الأجلّاء، كصدر المتألّهين الشيرازي، والسيّد بحرالعلوم صاحب الكرامات، والسيّد الكشميري، والسيّد السبزواري، والسيّد الخميني ﷺ.

المؤشر الخامس: منهجيّة علم العرفان عند السيّد السبزواري ﷺ

الأوّل: وجود المرشد

وهذا أوّل الطريق الذي ينبغي أن يضع عليه السالك قدمه، إذ من غير المرشد ستكون نتيجة السير هي الضياع في متاهات الطريق، فالعرفان والسير إلى الله طريق طويل وشائك جدّاً، وكلّ سالك فيه يختلف طريق سيره عن طريق غيره من السالكين بحسب اختلاف الملكات والاستعدادات التي يحملها كلّ واحد منهم، وهذا ما يحتّم وجود الأُستاذ الخبير، والمرشد البصير، من أجل أن يأخذ بيد السالك بعيداً عن متاهات الطريق، ويوصله إلى الغاية المنشودة بحسب ما لديه من الاستعداد.

وعن هذه الجهة يتحدّث السيّد السبزواري ﷺ، فيقول: «ليُعلم أنّه لا يمكن السير والسلوك إلّا بعد التزوّد بالمعرفة والعلوم الحقيقيّة، والمعلّم الذي يرشد الإنسان إلى طريق استكماله، ومن ذلك يُعرف أهميّة أهل الذكر في الرجوع إليهم»(١).

كما يحكي بعضهم عن أُستاذ السيّد السبزواري ﷺ، بل أُستاذ العرفاء الشامخين قاطبة، السيّد القاضي ﷺ أنّه قال: «أهمّ ما يلزم في هذا الطريق الأُستاذ الخبير البصير، الخارج من أسر الهوى، الواصل إلى المعرفة الإلهيّة.. وإذا أمضى الإنسان الذي يطلب طريق الله نصف عمره يبحث عن أُستاذ هذا الطريق، فإنّه يكون مصيباً،

---

(١) مواهب الرحمن: ٤٦٢/١٢.

فمن وصل إلى الأُستاذ وحصل عليه فقد قطع نصف الطريق»[١].

الثاني: التوبة

ويقول عنها ﷺ: «التوبة .. وهي أوّل منازل السائرين إلى الله سبحانه، وأساس درجات السير والسلوك الإنساني، وهي مفتاح التقرّب إليه عزّ وجلّ، والوصول إلى المقامات العالية، بل لا تتحقّق التخلية عن الصفات الرذيلة والتحلية بالصفات الحسنة إلّا بها، ويكفي في فضلها أنّها من صفات الباري عزّ وجلّ، فإنّه «التوّاب الرحيم»، وقد منَّ على عبيده أن تقرّب إليهم بالتوبة عليهم بعد البُعد عنه تعالى بالمعاصي والذنوب، فقال تبارك وتعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٢]، وقد ورد في فضلها نصوص كثيرة، ففي الكافي: عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها**»، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها!»[٣].

الثالث: طلاق الدنيا

وهو أوّل منزل من منازل السير إلى ربّ العباد، ومن جهة الاستقامة والبقاء عليه تجتمع فيه سائر المقامات من التخلية والتحلية والتجلية، بل الفناء، والثبات عليه ثبات في الرحمة الواسعة التي لم تزل ولا تزال، ويشتدّ مقام التوحيد فيعبد الله جلّت عظمته حبّاً له لا لشوق الوعد ولا لخوف الوعيد[٤].

---

(١) جمال السالكين: ٤٦.

(٢) الأنعام ٦: ٥٤.

(٣) مواهب الرحمن: ٢/٢٣٢.

(٤) مواهب الرحمن: ٤/٢٩.

ولذا قال علماء السير والسلوك: «إنّ أوّل قدم للسالك أن يخرج من الدنيا وما فيها، وأن يخرج من النفس وصفاتها»[١].

والنقطة المهمّة التي يجدر الالتفات إليها هنا: أنّ التعلّق بشوائب الدنيا له مظاهر كثيرة جدّاً، وبعضها قد يكون في غاية الدقّة والخفاء، بحيث لا يلتفت إليه الكثير من السالكين، وهذا ما يقتضي إيقاظ نور البصيرة عند طيّ طريق السير والسلوك، وقد نبّه ﷺ على ذلك في بعض كلماته الشريفة، فقال: «ولحبّ الدنيا وسكرها مظاهر كثيرة، فقد يحصل من المال أو الجاه أو الرياسة، وقد يدخل في أمور دقيقة عند السالكين والعارفين، وقد يغفل عنها فتظهر على نواياه أو أقواله وأفعاله، فإن لم يعالجها يرجعه إلى أسفل السافلين، ولذا كان الأنبياء والمرسلون يتعوّذون بالله منها.. فإنّ الأمر دقيق جدّاً»[٢].

وقد أفصحت وصاياه ﷺ عن بعض الأمور الخفيّة جدّاً، التي تترك السالك متعلّقاً بشوائب الدنيا وإن لم يكن ملتفتاً، من قبيل ما ينقله عنه نجله الحجّة السيّد عليّ أنّه قال: «أوّل خطوة في طريق العرفان عدم التفريق بين أحد من الناس».

الرابع: تطبيق الأحكام الشرعيّة

وعن هذا الجانب يقول ﷺ: «وتلك السبل -أي: سبل التقرّب إلى الله تعالى، والارتباط بعالم الغيب- هي الأحكام الشرعيّة بأقسامها التابعة للمصالح -العائدة إلينا، والمفاسد التي تضرّنا- المجعولة ممّا وجب حقّه علينا، ولذا تكون الأحكام أمانات منه تعالى عندنا، لا بدّ من مراعاتها وردّها إلى أهلها، وإنّما جعلت لأجل ارتباط الإنسان معه جلّ شأنه، ولا يحصل هذا الارتباط لو تخلّف أحد عن تلك

---

(١) مواهب الرحمن: ٩/١٦٣.

(٢) مواهب الرحمن: ١٢/٤١٨.

الأحكام ولم يودّ خقّها»(١).

الخامس: الطاعة

إذ بعد أن تبيّن أنّ الخطوة الرابعة في طريق علم العرفان هي تطبيق الأحكام الشرعيّة، لزم الالتفات إلى أنّ هذا التطبيق لا يجدي شيئاً إلّا إذا كان كلّياً وشاملاً، والتطبيق الكلّي هو المعبّر عنه في كلمات العرفاء بمقام (الطاعة).

والمراد من الطاعة: الانقياد الكامل، والامتثال مع الإخلاص لجلب رضا الحقّ، وترك ما سواه، فهي الوسيلة للوصول إلى الدرجات الرفيعة السامية، والأُفق القريب منه جلّ شأنه، وهي التي أكّدت عليها الآيات الشريفة، ودعا إليها الأنبياء والأولياء بألسنة مختلفة، واهتمّوا بها لأنها المبعث لتكريم الإنسان ونيله أشرف المراتب وأجلّ المقامات.

وبالطاعة الحقيقيّة ينال الإنسان الدرجات الرفيعة، والمراتب الشريفة، ويتجاوز عن حدّ الكمال، ويصل إلى درجة التكميل، فتكون له المعيّة في الدرجة لا في الاتّحاد، كما في بعض الروايات لأنّ التساوي في كلّ جهة معه محال كما ثبت في الفلسفة الإلهيّة(٢).

السادس: الإخلاص

و(الإخلاص) يأتي كخطوة سادسة في طريق السير والسلوك إلى الله تبارك وتعالى، إذ لا يمكن تحقّق مقام الطاعة إلّا مع تحقّقه، وعنه يقول السيّد السبزواري ﷺ في بعض كلماته الشريفة: «ويتشرّف المؤمن بالإخلاص إلى أعلى مراتب الكمال بلذّة ذلّ العبوديّة له تعالى، وبه يخرق الحجب ويصل إلى معدن

---

(١) مواهب الرحمن: ٨/٣٣٩.

(٢) مواهب الرحمن: ٩/١٧.

العظمة ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ « إنّه سئل عن الإخلاص ، فقال ﷺ : **حتّى أسأل جبرئيل** ، فلمّا سأله قال : حتّى أسأل ربّ العزّة ، فلمّا سأله قال له : **هو سرّ من أسراري أُودعه قلب مَن أحببت من عبادي ، لا يطّلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده** » .

وعن سيّد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام : « **هو أن تعبد الله كأنّك تراه** » ، فحقيقة الإخلاص يدركها الخلّص من عباده ، ولكنّها لا توصف ، والإخلاص من أعلى مراتب التفويض »[1] .

السابع : جهاد النفس

وهذا هو أهمّ خطوة في الطريق ، وجميع ما تقدّم إنّما هو مقدّمة له ، ولذلك يقول السيّد السبزواري قدس سره : « جميع ما يذكره الفقهاء في أحكام العبادات والمعاملات من مقدّماته ، والعمل بها يكون من بعض مراتبه » .

ويتحدّث قدس سره عن أهمّيته فيقول : « بل هو أهمّ شيء اعتنت به جميع الكتب السماويّة ، خصوصاً القرآن المهيمن عليها ، وهو نتيجة دعوة كلّ الأنبياء والمرسلين ، ولا سيّما خاتم الأوصياء ﷺ وخلفائه المعصومين عليهم السلام ، وهو غاية رياضات العرفاء الشامخين والحكماء المتألّهين ، من هبوط آدم عليه السلام إلى انقضاء العالم »[2] .

ومن الفوائد التي نقلت عنه قدس سره في سبيل تنمية هذه الخطوة : أنّ نفس السالك كما تُقبل في بعض الأحيان ، فإنّها تُدبر في بعض الأحيان الأُخرى ، فإذا أدبرت ينبغي علاجها بالجلوس في دار مظلمة ، فإنّ النفس تلين بذلك .

الثامن : الهجرة

وهي الانتقال والرحيل ، وإنّها من أكمل الصفات الحسنة وأجلّها إن كانت ناشئة

---

(١) مواهب الرحمن : ٩/٢٧٥.

(٢) مهذّب الأحكام : ١٥/٢٦٩.

عن الحبّ الواقعي لله سبحانه وتعالى ، والانقطاع إليه جلّ شأنه ، وبها يحصل الودّ والحبّ له عزّ وجلّ ، ومنه تعالى لعبده .

بل أنّ الهجرة من الفناء في ذاته جلّت عظمته ، لأنّ بها يخرج الإنسان عن ذلّ ما توطّن فيه من الصفات الذميمة ، ويبعد عن المعاصي التي تحصل عن الأهواء الشيطانيّة ، كالكبر والحسد والبطر والجهل ، وغيرها .

وبالهجرة يفوز الإنسان وينال الكمالات بأنواعها وأقسامها الظاهريّة والمعنوية ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ : **« مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوّجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »** .

وبالهجرة يرتقي الإنسان عن حدود البشريّة في طلب حضرة الربوبيّة إلى منتهى السعادة بصفاء القلب وتزكيته ، والعروج إليه جلّت عظمته ؛ لأنّ البقاء والسكون فيها اللذين لا يرضاهما تعالى من آثار الحجب والبعد عن ذاته المقدّسة ، والقرب من الشيطان .

وبها يستغني المهاجر عمّا سواه تعالى ، ويذوق لذّة العبوديّة لله جلّ شأنه ، وينال شرفها بالخضوع الحقيقي له عزّ وجلّ .

فالهجرة الواقعيّة من أسمى الصفات الكريمة ، وأجلّ الكمالات الواقعيّة ، وأرفع المنازل العظيمة ، وأشرف الحقائق ، بل هي غاية السير والسلوك إليه عزّ وجلّ لأنّها مبايعة الله تعالى مع عبده بالهجرة إليه عزّ وجلّ [1] .

التاسع : الصمت

وقد قالوا : إنّ الصمت لازم في جميع مراحل السلوك ، وفي كلّ الأوقات ، بل ممكن أن يقال بأنّه ممدوح في كلّ الأحوال ، وإشارة إلى هذا الصمت قوله ﷺ :

---

(١) مواهب الرحمن : ١٩٦/٩ .

«**إنّ شيعتنا الخرّس**»، وأيضاً ما نقل عن الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: «**الصمت شعار المحبّين، وفيه رضا الربّ، وهو من أخلاق الأنبياء، وشعار الأصفياء**».

وفي حديث البزنطي عنه عليه السلام: «**الصمت باب من أبواب الحكمة، وأنّه دليل على كلّ خير**»[١].

وصرّح بذلك العارف الإلهي السيّد الطهراني قدس سره فقال: «وقد اهتمّ به عظماء الطريق كثيراً، وأمعنوا في توصية تلامذتهم به، سواء كان ي العمل والأوراد والأذكار أم كان في الواردات والمكاشفات والحالات»[٢].

وفي الوقت الذي نجد فيه العرفاء يركّزون على التزام الصمت فيما يتعلّق بخصوصيّات السير والمكاشفة، نجد الكثير الآن مّن يدّعي العرفان والوصول لا يفتأ عن ذكر مكاشفاته واطّلاعه على المغيّبات، وهو بذلك يفضح نفسه ويعرّيها عن كلّ فضيلة؛ لأنّ مَن وصلَ لم يتحدّث، ومن تحدّث لم يصل، كما في العبارة المشهورة عن الفقيه الأعظم السيّد الحكيم قدس سره.

---

(١) رسالة لبّ الألباب: ١٠٧.

(٢) رسالة لبّ الألباب: ١١٠.

الجانب الغيبي

الانفتاح على القضايا الغيبيّة ، وتعميق الإيمان بواقع « ما وراء الطبيعة » ـ كما يعبّرون ـ يعتبر في رأس قائمة خصائص المتّقين ، لكونه المحور الأساس الذي تدور عليه رحى الكمالات الإنسانيّة .

وتزداد الحاجة للعمق الإيماني بما وراء الطبيعة في مرحلتنا الزمنيّة البائسة ، التي بدأت فيها مدرسة الماديّين تأخذ مأخذها من الروح الشبابيّة المؤمنة على الصعيدين الفكري والسلوكي .

والنقطة الجديرة بالذكر والانتباه هي : أنّ هذه الرؤية الماديّة استطاعت أن تتقمّص صفات العلميّة والتقدّميّة والتطوّريّة ، ممّا أدى إلى إنكار القضايا الغيبيّة عند كثير من الشباب ، واعتبارها من السخافات القصصيّة والترف الفكري .

وكلّ ذلك من منطلق التقدّم العلمي والتطوّر التكنولوجي والانفتاح العلمي و . . إلى آخر سلسلة العناوين البرّاقة .

وعليه : فنحن في هذه المرحلة الحرجة بأمسّ الحاجة إلى الإيمان المعمّق بالواقع الغيبي ، فإنّه الطريق الذي يخطو به الإنسان إلى السعادة والكمال ، ومن خلاله ستنطلق « يد الغيب » لتهيمن على جميع المحاور الحياتيّة في وجوده ، وتتحرّك في جميع الميادين العلميّة والعمليّة المرتبطة بحياته .

ومن أولئك الذين تعلّقوا بالغيب بشتّى أنحاء التعلّق ، فانطلقت يد الغيب

تسدّدهم في الكثير من مواقفهم وتحرّكاتهم سماحة السيّد السبزواري ﷺ، الذي تجلّت يدُ القدرة الغيبيّة بكلّ وضوح في صفحات حياته الحافلة بالمناقب والكرامات المنعكسة عن علاقته الغيبيّة بالمبدأ الأعلى[1].

---

(١) لا يخفى أنّ الكرامات الإلهيّة لها منشئان:

١ ـ المنشأ الأوّل: العلم

وقد أوضحنا ذلك وبرهنّا عليه بشكل مفصّل جدّاً في كتابنا (الولاية التكوينيّة بين القرآن والبرهان) الصفحة ٨١، فمن أحبّ الاطّلاع على ذلك فدونه الكتاب المذكور.

٢ ـ المنشأ الثاني: السيطرة على النفس

فإنّ الإنسان متى ما سيطر على نفسه، وتمكّن منها ـ عن طريق المجاهدة ـ فإنّه يكون مظهراً للكرامات والأفعال الخارقة للنواميس الطبيعيّة.

وقد تحدّث عن ذلك السيّد السبزواري ﷺ في بعض أبحاثه الشريفة، فقال: «وبه ـ أي: جهاد النفس ـ يصير الإنسان عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم الحسّي، بل أرفع منه من كلّ جهة، بل يصير الإنسان أجلى مظهر للقدرة الإلهيّة غير المتناهية، فيوجد ما يشاء، ويخلق ما يريد، وبه يصير مسلّطاً على ملكوت الغيب، فضلاً عن عالم الشهادة، وبه تنقاد له الموجودات فيغيّرها من صورة إلى أخرى، ويتصرّف فيها بما يشاء، ويصير عالم الشهادة بين يديه كفلقة الجوز بين يدي أحدنا، وبه يقدر على إخماد نار الجحيم، ففي الآثار المعصوميّة إذا عبّر المؤمن على الصراط تناديه نار جهنّم: جز يا مؤمن فإنّ نورك قد أطفأ لهبي، إلى غير ذلك ممّا ورد في شأن هذا المقام العظيم الذي لا تدرك العقول منه إلّا شيئاً يسيراً، فالعلم به حالي لا أن يكون مقاليّاً لنهاية جلاله وعظمته». مهذّب الأحكام: ١٥/٢٧٠.

وقد عرفت سابقاً: أنّ جهاد النفس يرتكز على الطاعة والانقياد الكامل بتطبيق جميع الأحكام الشرعيّة بالمستوى الذي يرتقي فيه الإنسان إلى مقام العبوديّة، فإذا ارتقى إلى مقام العبوديّة المطلق تمكّن من الكائنات والتصرّف فيها. وهذا ما يشير إليه الحديث القدسي المشهور: «**عبدي أطعني تكن مثلي، أقول للشيء كن فيكون، وتقول للشيء كن فيكون**»، ويحكى أنّ السيّد السبزواري ﷺ قد سئل عن هذا الحديث الشريف من قبل ⇦

وقد رصدنا له ـ مع تحفّظه ﷺ التامّ ـ بعض تلك الكرامات والحوادث الغيبيّة.

الكرامة الأُولى:

لمّا طوى السيّد السبزواري ﷺ العقد الرابع من عمره، وفّقه الله تعالى لحجّ بيته الحرام، وكان ذلك مع قافلة الحاج السيّد إسماعيل حبل المتين، وفي أثناء مسيرهم مرّوا بمنطقة «عرعر» السعوديّة، فتاهت قافلتهم في الصحراء المحيطة بها، حتّى نفذ وقود محرّك الحافلة التي كانت تقلّهم، ممّا اضطرّ الحجّاج للنزول منها، حينها فوجئوا بأنّهم في قلب الصحراء، حيث كانت الرمال اللاهبة تحيط بهم من الجهات الأربع، وكلّما بحثوا يميناً وشمالاً لم يجدوا أثراً لذي حياة.

ومضى الوقت بهم وهم لا زالوا في ذلك المكان، حتّى نفذ كلّ ما كان بحوزتهم من الطعام والشراب، ولاحَ شبح الموت أمام أعينهم، وبلغ الأمر ببعضهم من شدّة اليأس أن حفر له حفرة صغيرة في الرمال لتواري جسده بعد وفاته.

فلمّا رأى السيّد السبزواري ﷺ ما اعترى الحجّاج من اليأس الشديد وانقطاع الأمل، ابتعدَ عن الحجّاج قليلاً، واشتغل بمناجاة الله سبحانه وتعالى والتضرّع إليه، ولمّا كان ﷺ شديد العلاقة بصلاة جعفر ﷺ، وكان يلمس آثارها في قضاء الحوائج وجداناً، لذلك توجّه بها إلى الله تعالى، متوسّلاً إليه بسلطان العصر وإمام الزمان (أرواح العالمين لتراب نعله الفداء).

يقول السيّد ﷺ: «فلمّا أوشكتُ على الانتهاء، سمعتُ أحد الحجّاج ينادي:

⇦ شخص مشكّك فيه، فطرده السيّد ﷺ لتشكيكه في هذا الحديث، وقال: «لو عرف هذا المشكّك شيخنا الأصفهاني ﷺ لعلم معنى هذا الحديث»، والظاهر مراده ﷺ من الشيخ الأصفهاني ﷺ الشيخ حسن عليّ الأصفهاني ﷺ الذي ستوافيك ترجمته ضمن أساتذته في مشهد المقدّسة.

العجل العجل يا سيّد ، فلقد تيسّرت الأُمور ونجونا من المشكلة .

وحينئذٍ أتممتُ صلاتي وجئتُ إلى حيث القافلة ، فوجدتُ جميع الحجّاج قد استقلّوا مقاعدهم في الحافلة ، وتهيّأوا لمغادرة المكان .

فقلت : ما الذي حدث وقت ابتعادي عنكم ؟ وكيف جئتم بالوقود للحافلة ؟

فقالوا : لقد جاءنا رجلان أو ثلاثة ـ ولعلّ الترديد من ناقل القصّة ـ وقدّموا لنا الطعام والماء ، ثمّ أمر أحدهم السائق بتشغيل السيّارة ، فاشتغلت من غير أن يضعوا فيها شيئاً من الوقود ، وحينها أشار الرجل بيده إلى جهة من الجهات ، وقال : هذا هو طريق مكّة ، ولمّا أراد أن يذهب التفت إلينا وقال : نادوا السيّد السبزواري ﷺ وأبلغوه سلامي ، ثمّ غاب هو ومن معه عن الأنظار فلم نرَ لهم أثراً » .

يقول السيّد ﷺ : « وحينها تحرّكت القافلة على طبق المسار الذي حدّده ذلك العظيم ، فبلغنا مكّة المكرّمة سالمين في ظلّ عناية ولي الله الأعظم (عجّل الله فرجه الشريف) » .

الكرامة الثانية :

كان السيّد السبزواري ﷺ متوجّهاً لحجّ بيت الله الحرام ، فأضاع قطعة من القماش كانت تحتوي على جواز سفره وجميع ما يحمله من المال .

فلمّا لم يجدها توجّه قاصداً البيت الإلهي المعمور ، وهناك انقطع إلى خالق السماء برفيقة دربه وعشيقة عمره (صلاة جعفر) .

متوسّلاً للحقّ تعالى ، طالباً منه الفرج ، وتسهيل الأُمور في تلك الظروف الشديدة والساعات الحرجة .

وإذا بشاب نوراني أقبل إليه فوجده مشتغلاً بالعبادة والمناجاة ، منقطعاً أيّما انقطاع ، فقال له :

«السيّد عبدالأعلى ، هذا ما تبحث عنه».

وأعطاه تلك القطعة من القماش ، وعندها انتبه السيّد السبزواري ﷺ من مناجاته ، فلم يجد أثراً لذلك الشخص .

الكرامة الثالثة :

في سنة من سنيّ عمره الشريف ابتلاه الله تعالى بمرض في قلبه ، حيث أُصيبَ ﷺ بانسداد أحد صمّامات القلب ، وساءت حالته الصحيّة جدّاً ، فجيء له بالدكتور موسى سعيد الأسدي ، الذي كان طبيباً اختصاصيّاً في أمراض القلب ، ففحصه وقرّر أنّ حالة السيّد ﷺ تستدعي نقله إلى المستشفى فوراً ، إلّا أنّ السيّد ﷺ رفض ذلك وأصرّ على رفضه .

فارتئى الدكتور حينها أن يعرض الموضوع على أحد المقرّبين من سماحة السيّد ﷺ بغرض أن يؤثّر عليه ويقنعه بالذهاب إلى المستشفى ، فكان المرشّح لذلك تلميذ السيّد الوفي سماحة السيّد محمّد كلانتر ﷺ ، فذهب إليه الدكتور الأسدي وأطلعه على حالة السيّد الصحيّة ، وأفهمه ضرورة نقله الفوري إلى المستشفى .

وعلى إثر ذلك جاء السيّد كلانتر ﷺ إلى سماحة السيّد ﷺ وبطريقة أو بأُخرى استطاع أن يأخذه إلى المستشفى ، ولمّا أُجريت له الفحوصات اللازمة قرّر الأطباء أن ينقل السيّد ﷺ إمّا إلى لندن ، وإمّا إلى بغداد على أقلّ تقدير ، لعدم توفّر العلاج اللازم في نفس المستشفى .

ولمّا عُرِضَ الأمر على سماحة السيّد ﷺ بكى كثيراً ، وقال : «بعد كلّ هذا العمر الذي قضيته في النجف وجوار أمير المؤمنين عليه‌السلام كيف لي أن أفارقها وأطلب الشفاء من غير الإمام عليه‌السلام ؟!».

فما كان من سيّد الطائفة الحكيم ﷺ لمّا بلغه الخبر آنذاك ، إلّا أن أمرَ بتشكيل لجنة

طبيّة برئاسة الدكتور السيّد كاظم شبّر، الذي كان مدير مستشفى (ابن سينا) حينها، من أجل الإشراف على حالة السيّد السبزواري ﷺ الصحيّة من غير أن يفارق النجف.

إلّا أنّ اللجنة وبعد اطّلاعها المباشر على وضع السيّد الصحي، أجمعت كلمتها هي الأخرى على ضرورة نقله إلى خارج النجف، فما كان من السيّد ﷺ إلّا أن توجّه إلى الله تعالى متوسّلاً بالإمام الصادق ﷺ، ناذراً لإن ألبسه الله ثوب العافية ليكتبنّ دورة فقهيّة كاملة.

فلمّا نام ﷺ تلك الليلة رأى الإمام الصادق ﷺ وهو يطلب منه القيام، فاستيقظ من نومه وطلب من ولده الأصغر السيّد حسين - الذي كان برفقته - أن يأتيه بالماء ليتوضّأ ويذهب إلى مسجد الكوفة، فما كان من ولده إلّا أن ذهب للدكتور وأخبره بالأمر، فجاء الدكتور مسرعاً وجدّد فحصه لسماحة السيّد ﷺ، ولكنّه أُصيب بحالة من الذهول؛ لأنّه وجدَ بحسب الفحص المبدأي أنّ المشكلة الصحيّة لا أثر لها، وهذا ما جعله يقتنع بالإذن للسيّد ﷺ بالذهاب إلى مسجد الكوفة.

فخرج السيّد ﷺ مع ولده من المستشفى، وذهبا إلى مسجد الكوفة، فوجداه مغلقاً، وحينها فرش السيّد حسين عباءته على الأرض، وصلّى السيّد ﷺ، ثمّ رجعا إلى النجف الأشرف على العربة بتعجّب شديد من السيّد حسين، ممّا دعاه إلى سؤال والده ﷺ عن سرّ الموضوع، فرفض أن يخبره بذلك، حتّى أقسم عليه بالصدّيقة الشهيدة الزهراء ﷺ فأخبره بالقصّة كاملة.

الكرامة الرابعة:

ما تحدّث به نجله الأصغر السيّد حسين السبزواري (حفظه الله) يقول: «عندما كنتُ في السابعة من العمر، كان المنزل الذي نقطن فيه له سرداب منخفض عن مستوى سطح أرض المنزل بمستوى عشرين متراً تقريباً - ومثل هذا السرداب يُعرف

في أوساط النجفيّين بـ(سرداب السن) ـ وكان سرداباً مهجوراً ومظلماً تقطنه الأوساخ والحشرات الضارّة ، ولم يكن يمكن الوصول إليه إلّا عن طريق سُلَّمٍ ضيّق جدّاً ، وكان المدخل إلى هذا الطريق عبارة عن نافذة صغيرة قد وضعت على سطح الأرض .

وفي يوم من الأيّام بينما كنتُ أُحاول فتح النافذة المذكورة ، وإذا بي أجد نفسي قد سقطتُ من خلالها وعبر ذلك السلّم الضيّق إلى أعماق ذلك السرداب المخيف ، ولسوء الحظّ صادف أن وقع رأسي على قطعة عظم حادّة ، فاخترقت رأسي ، وكادت أن تصل إلى الدماغ ، وأمّا بطني فقد كان نصيبه هو الآخر قطعة زجاج ملقاة على أرض ذلك السرداب ، فأُغميَ عليَّ حينها ، وفقدتُ الشعور بما حولي .

وفي هذه الأثناء افتقدتني والدتي ، فصارت تبحث عنّي في زوايا البيت ، ولكنّها لم تجدني ، فذهبت إلى والدي وقد كان مشغولاً بالمطالعة على سطح المنزل فأخبرته بالأمر ، وحينها نزل والدي من أجل أن يبحث عنّي ، فوقعت عيناه على نافذة السرداب المفتوحة ، فما كان منه ﷺ إلّا أن أسرع بالنزول إلى ذلك السرداب المظلم ليجدني طريحاً على الأرض والدماء تنزف من بطني ورأسي .

حينئذٍ قام بأخذي سريعاً إلى المستشفى ، إلّا أنّهم لم يستطيعوا علاجي ممّا أنا فيه ، وقال الطبيب لوالدي : عليك أن تأخذه إلى مستشفى الحلّة إن كنت تريد علاجه ، فإنّ وسائلهم أفضل وأتقن ، ولكن لمّا كانت مدينة الحلّة بعيدة عن النجف الأشرف ، ووسائل النقل كانت قليلة وبدائيّة ، اضطرّ والدي أن يعود بي إلى البيت لعلّه يصل إلى حلّ آخر ، إلّا أنّ والدتي أصرّت على بقائي تحت رعاية المستشفى ، فأرجعني والدي إلى حيث أخذني ، وبقيت هناك في حالة إغماء لمدّة ثلاثة أيّام .

فلمّا رأى السيّد ﷺ أن لا جدوى من بقائي في المستشفى ، توجّه حينها إلى أبواب الله التي منها يؤتى ، متوسّلاً إلى الله تعالى بالإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ، ومقسماً عليه بمصائب جدّته الصدّيقة الشهيدة الزهراء عليها السلام ،

ثمّ أخذني من المستشفى ، فما خطى بعض خطوات إلّا وأفقت من إغمائي ، وفتحت عيني في وجهه الكريم ، وكان ذلك في وسط حالةٍ من ذهول الأطباء وتعجّبهم ، لأنّهم كانوا في حالة يأس من شفائي .

الكرامة الخامسة :

عندما تفجّرت الانتفاضة الشعبانيّة المباركة ، وقف السيّد السبزواري ﵀ موقفه الباسل ضدّ النظام الجائر ، فأثار نار الحقد والانتقام في نفوس الظالمين .

ولمّا أخمد الطغاة العراق الحركة الشعبانيّة الخالدة ، بعث فرعون العراق جلاوزته لإلقاء القبض على السيّد السبزواري ﵀ ، كما حصل فعلاً للسيّد الخوئي ﵀[١] .

فقاموا بالبحث عنه ثلاثة أشهر متواصلة ، وتعرّض منزله للهجوم المفاجئ عشرات المرّات ، فكانوا يدخلون وهو أمامهم ، ولكنّهم لا يلمحون له ظلّاً ،

---

(١) ممّا يحزّ في النفس ما قرأناه لبعض المعاصرين في ترجمته لوالده ﵀ ـ والتي جاءت تحت عنوان (خطيب العلماء) ـ حيث قال فيها : « ولقد شاء الله تعالى أن يحفظ لهذا السيّد الصابر كرامته وعزّه وشرفه ، فلم تدنّس صفحة حياته البيضاء بنقطة سوداء من وراء شاشة التلفزيون أو على المنبر ، ولعلّه كان الوحيد من وجوه الحوزة الذي يمكن أن تسجّل له هذه الفضيلة ، ممّن مكث في النجف الأشرف حتّى لما بعد انتفاضة شعبان ١٤١١هـ ، ولم يخضع لضغوط البعثيّين وقسرهم على مدح السلطة وخدمتها إعلاميّاً » . خطيب العلماء : ٨٤ .

فإنّ هذا الكلام رغم ما يحويه من الاشتباه التاريخي في تصوير عدم وجود من لم يبتله الله تعالى بقسر السلطة سوى والده المقدّس ﵀ ـ إذ السيّد السبزواري ﵀ وآخرون غيره قد تجاوزوا هذه المحنة ـ إلّا أنّه يبعث الألم في النفس من ناحية تعريضه بوجوه أعلام النجف الأشرف ، بل بوجوه الطائفة ، الذين استدعاهم النظام البائد وأجبرهم ـ كما يعترف بذلك الكاتب نفسه ـ على التفوّه ببعض الكلمات ، واعتبار ذلك نقطة سوداء قد دنّست صفحات حياتهم ، مع كونهم خاضعين لقهر السلطة وضغطها .

ولا يجدون له أثراً: ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[1].

﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[2].



(١) البقرة ٢: ٧.

(٢) يس ٣٦: ٩.

الجانب السياسي

المقدّمة :

يبدو هذا العنوان برّاقاً إذا ما قورن بوجه حوزوي ، خصوصاً إذا كان من شيوخ الحوزة وكبار السنّ فيها .

مع أنّ هذا العنوان يبدو عادياً جدّاً على بساط الحقيقة والواقع ، فلست أظنّ أحداً من علمائنا ليس « سياسيّاً » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهل السياسة إلّا الفقاهة في باب الجهاد وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأشباههما من الأبواب التي يعتني بها الفقه السياسي الإسلامي .

ومَن تمعّن في السيرة العطرة لعلمائنا الأبرار ، ليست تخفى عليه الحكنة السياسيّة ومدى أبعادها الواسعة في مسيرتهم العمليّة .

ولبيان هذا الجانب من تمام جهاته نستوفي الكلام من خلال أربعة محاور :

المحوَر الأوّل : مفهوم السياسة في المنظور الإسلامي

عرّفت السياسة بعدّة تعاريف :

ففي المصطلح الأدبي : هي ولاية شؤون الرعيّة وتدبير أُمورها .

وفي المصطلح الفلسفي : هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل .

وفي المصطلح الغربي : هي فنّ الحكم .

وفي المصطلح الإسلامي : هي علم يبحث فيه عمّا تدبّر به شؤون الدولة الإسلاميّة من القوانين والنظم التي تتّفق وأُصول الإسلام .

وفي رواية مأثورة عن الإمام الحسن عليه السلام سئل فيها عن معنى السياسة فقال عليه السلام :

« هي أن ترعى حقوق الله ، وحقوق الأحياء ، وحقوق الأموات .

أمّا حقوق الله ، فأداء ما طلب ، والاجتناب عمّا نهى .

أمّا حقوق الأحياء ، فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك ، ولا تتأخّر عن خدمة أُمّتك ، وأن تخلص لوليّ الأمر ما أخلص لأُمّته ، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السويّ .

أمّا حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم ، وتتغاضى عن مساوئهم ، فإنّ لهم ربّاً يحاسبهم »[1] .

فالسياسة في المنظور الإسلامي ـ كما هو المستفاد من هذا النصّ وأمثاله ـ هي :

« تدبير الحركة الاجتماعيّة بحسب الموازين الشرعيّة » .

والرجل السياسي هو : مَن لديه الطاقة التامّة ، والقدرة الكاملة على إدارة الحركة الاجتماعيّة .

وما أجمل ما أجاب به فقيه الطائفة السيّد الحكيم قدس سره عندما سئل عن رأيه في السياسة ، وهل من واجب رجال الدين التدخّل في الشؤون السياسيّة ؟

إذ كان ملخّص جوابه : « إذا كان معنى السياسة إصلاح شؤون العباد ، والعمل على ترفيه أحوالهم ، واستصلاح أُمورهم ، كما هو المفهوم من معنى السياسة والمطلوب من الساسة ، فلم يأتِ الدين الإسلامي المقدّس إلّا للقيام بهذه الأُمور .

---

(١) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن عليه السلام : ١١٨ .

ومن الطبيعي أنّ من واجب رجال الدين القيام بها بكلّ ما أُوتوا من قوّة وقدرة ، كما أنّ اللازم عليهم السعي في تطبيق هذه الواجبات على الكلّ على حدّ سواء .

أمّا إذا كان للسياسة معنى آخر ، فهذا شيء بعيد عن روح الإسلام أشدّ البعد ، وليس من التعاليم الإسلاميّة في شيء ، وعلى رجال الدين الابتعاد عن مثل هذه الأعمال التي تنافي الدستور الإسلامي الخالد ، ولا تلتئم مع واقعيّته وعمله البنّاء»[(١)].

المحور الثاني : خصائص القائد السياسي عند السيّد السبزواري

وقد تصدّى السيّد السبزواري لبيانها عند تعرّضه لبيان ما ينبغي أن يتحلّى به مَن يتصدّى للجهاد في عصر الغيبة ، فأنهاها إلى سبع خصائص :

الأُولى : أن يكون مبسوط اليد ، وتكون موجبات الغلبة متوفّرة لديه بحسب الاطمئنانات المتعارفة .

الثانية : أن يكون محيطاً بتمام الفقه من كلّ حيثيّة وجهة ، علماً وعملاً ، بحيث يكون مرآة واقعيّة للشريعة المقدّسة من جميع الجهات .

الثالثة : حسن الإدارة ، ويكفي فيه أن يكون ذا عقل سليم وتجريبي واسع ، ليكون قادراً على تنظيم الأُمور ـ كليّاً وجزئيّاً ـ وتدبير الحوادث الواقعة بتطبيقها على الأحكام الإلهيّة ، ويكون مأنوساً بما جرت عليه عادة الله تعالى مع أنبيائه وأوليائه في خصوصيّات الغلبة على الأعداء ، وكيفيّة المعاشرة معهم .

الرابعة : أن يكون منسلخاً عن الماديّات بتمام معنى الانسلاخ ، وعلوّ همّته من كلّ جهة ، وكثرة اهتمامه بالدين وأهله ، وجهده في الورع والتقوى ، وأن يكون متنزّهاً عن الصفات الرذيلة بل المكروهة ـ عند الناس ـ وعدم توهّم الاعتلاء في نفسه على

---

(١) حياة السيّد الحكيم : ٧٠.

أحد، وكثرة مواظبته على العبادة مع الخلوص -كالتهجّد في الليل، والمداومة على النوافل- ليأخذ الله تعالى بيده -كما في بعض الروايات[١]- ويلهمه بما هو صلاح النوع.

الخامسة: أن يكون محاطاً بالخبراء وذوي الكفاءة المعتمدين الثقات، ليتشاور معهم في كلّ جهة، بحيث يكونون يداً واحدة في نيل مقاصده وأهدافه، ويكون كلّ واحد منهم معه كخواص أصحاب رسول الله ﷺ مع النبيّ ﷺ.

السادسة: انقياد عامّة الناس له انقياداً واقعيّاً لا ظاهريّاً فقط، واستيلاؤه على المال استيلاء غير محدود من كلّ جهة.

السابعة: كثرة الاهتمام برفع الاختلاف بين المسلمين بالحجّة والبيان، لا بالسيف والسنان، بل وكذا بالنسبة إلى جميع الأديان.

وبعد أن عرض ﷺ هذه الخصائص السبع علّق عليها بقوله: «إنّ أكثر أدلّة ما ذكرناه عقلائيّة مقرّرة في السنة المعصوميّة»[٢].

المحور الثالث: السيّد السبزواري ﷺ ومواقفه السياسيّة

بعد أن عرّفنا مفهوم السياسة في المنظور الإسلامي، وخصائص القائد السياسي، نجد بأنّ الكيان الحوزوي له وجوهه السياسيّة الرائدة، التي تحرّكت من خلال الرؤية

---

(١) صحيحة أبان بن تغلب، عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله جلّ جلاله قال: ما تقرّب إليّ عبد من عبادي بشيء أحبُّ إليّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته». وسائل الشيعة: الباب ١٧ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث ٦.

(٢) مهذّب الأحكام: ٨٦/١٥.

الواقعيّة المنعكسة عن العلاقة الطبيعيّة بين الدين والسياسة ، ومن تلك الوجوه اللامعة السيّد السبزواري ﷺ الذي لعب دوراً بارزاً في الواقع السياسي للأُمّة الإسلاميّة .

وهنا نقف لنتعرّف على بعض الأُمور والمواقف السياسيّة للسيّد السبزواري ﷺ :

الموقف الأوّل : موقفه من الانتفاضة الشعبانيّة المباركة

وقد برز موقف السيّد السبزواري ﷺ في هذه المرحلة عندما تفجّرت ثورة أهل الجنوب ، الذين استطاعوا بنضالهم الباسل أن يسيطروا على مدن الجنوب بأكملها ، وفي نفس الوقت تفجّرت ثورة أهل البصرة ، وتباعاً لهم تحرّكت مدينة النجف الأشرف لتلعب دوراً بارزاً في حركة الثورة .

إلّا أنّ هذا التحرّك حتّى يواصل مسيرته الثوريّة كان يحتاج إلى الدعم العلمائي من قِبل الجهاز القيادي المتمثّل في الإمامين العظيمين ، رائدي الحركة : السيّد الخوئي والسيّد السبزواري ﷺ .

وتفاعلاً مع الموقف الذي كان يقتضي الحركة الدعمية الفاعلة ، أصدر السيّد السبزواري ﷺ بياناً لاذعاً دعم فيه الانتفاضة الشعبانيّة المباركة ، وندّد بالظلم والظالمين .

ثمّ أمر أحد أنجاله بإلقاء البيان الشريف في الحرم العلوي الطاهر ، أمام الجموع الغفيرة والجماهير المحتشدة ، فكان له أثره الكبير وصداه العميق في تأجيج الروح الثوريّة عند أبناء العراق .

ولمّا أُخمدت نار الثورة والانتفاضة ، واستطاع البعث الظالم بمعونة عملائه المستكبرين أن يوقف المدّ الثوري ، أصبح بيت السيّد السبزواري ﷺ ملجأً للثائرين وقبلة للخائفين .

الموقف الثاني : موقفه من الغزو العراقي للأراضي الكويتيّة

لمّا استولى الظالمون على الأراضي الكويتيّة ، وتسلّطوا على أهلها ، وأهلكوا الحرث والنسل ، وقف السيّد السبزواري ﷺ موقفه الحاسم تجاه جرائم البعث اللا إنسانيّة ، فأصدر فتاواه الخالدة المنعكسة عن رؤيته السياسيّة وموقعه القيادي ، ليتناول موقعيّة تلك الجرائم البعثيّة من خلال المنظور الفقهي في التشريع الإسلامي .

فكان موقفه الخالد يتحرّك من خلال ثلاث قنوات :

القناة الأُولى : الإفتاء بحرمة الدخول إلى الأراضي المغصوبة .

القناة الثانية : الإفتاء بحرمة التصرّف في الأموال والممتلكات الكويتيّة .

القناة الثالثة : الإفتاء بعدم صحّة الصلاة على الأراضي الكويتيّة .

وقد سأله بعض الجنود العراقيّين عن صحّة صلاتهم ؟ فأجابهم ﷺ وبكلّ صراحة بعدم صحّتها وإجزائها .

موقفه الثالث : موقفه من دعوى السفارة في عصر الغيبة

ظاهرة دعوى السفارة في عصر الغيبة من الظواهر الخطيرة في المجتمع الإسلامي ، لما تشتمل عليه من الأفكار الهدّامة والمبادئ المنحرفة التي تتنافى مع الكيان العقائدي للفكر الشيعي .

وقد بدأت هذه الظاهرة في فترة متأخّرة تشقّ طريقها في المجتمع البحريني على يد أحد دعاتها المفسدين .

فكان لها أثرها الواضح في استقطاب أصحاب العقول الضعيفة والعقيدة السطحيّة ، ممّا أدّى إلى التمزّق الاجتماعي ، وتشويه الناحية المقدّسة ، والعبث بالحقوق الشرعيّة .

فما كان من علمائنا الحماة ، ومراجعنا الأُباة ، إلّا أن واجهوا هذه الظاهرة ، وندّدوا

بدعاتها وحملة شعاراتها حتّى تمّ القضاء عليها.

وفي طليعة الأعلام الذين ساهموا في استئصال هذه الظاهرة السيّد السبزواري ﴿قدس سره﴾ حين أصدر فتواه المباركة المتضمّنة لنقطتين:

الأُولى: بسمه تعالى: من اعتقد بهذه الدعوى يكون فاسداً.

الثانية: على المؤمنين أيّدهم الله تعالى أن يتجنّبوا عن هذه المخاطر التي توجّه نحو الشقاق والاختلاف في الدين، والانحراف عن الصراط المستقيم، وفّقهم الله تعالى لما فيه الخير والصلاح[1].

المحور الرابع: تحليل البيان السياسي للسيّد السبزواري ﴿قدس سره﴾

وقبل عرض التحليل المضموني للنصّ الوثائقي لبيان السيّد السبزواري ﴿قدس سره﴾ السياسي، نسجّل النصّ الكامل للبيان الذي أصدره السيّد السبزواري ﴿قدس سره﴾ في الانتفاضة الشعبانيّة المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[2]

أيّها المؤمنون الكرام: مرّت عليكم سنوات مريرة شاقّة، سيطر فيها الظالم وزمرته، فأراق الدماء، وهتك الأعراض، وأهان المقدّسات الدينيّة، وعطّل الأحكام الشرعيّة، فكانوا كما قيل فيهم: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾**[3].

---

(١) ظاهرة الغيبة ودعوى السفارة ـ الملاحق: ١١.

(٢) الحجّ ٢٢: ٣٩.

(٣) إبراهيم ١٤: ٢٨ و٢٩.

فاستدرجهم عزّ وجلّ وأمهلهم فلم يتفطّنوا، بل كانوا كما أخبر عنهم تعالى فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾[١]، فكان الضالّ المضلّ الفاسد، قد سعى في الفساد فأهلك الحرث والنسل. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[٢].

فنحمد الله ونشكره ـ جلّت عظمته ـ على ما منّ علينا بزوال الجور والظلم، ونبتهل إليه ـ جلّ شأنه ـ ببسط العدل والقسط إن شاء الله تعالى، وأسأله تعالى أن يوقظ المؤمنين ويسدّد خطاهم. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٣].

أيّها المؤمنون: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾[٤]، والله معكم، وإنّي أدعو الله تعالى وأتضرّع إليه أن ينظركم ويوفّقكم لكلّ ما فيه الخير والصلاح، فعليكم بالاستقامة في تبليغ أحكامه، والدعوة إليه ـ عزّ وجلّ ـ والمواظبة على دينكم، والسعي في تثبيت عزائمكم. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٥].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبارك خطاكم

١٦ شعبان المعظّم ١٤١١هـ.

السبزواري ـ النجف الأشرف

الختم الشريف

---

(١) البقرة ٢: ٢٠٦.

(٢) البقرة ٢: ٢٠٥.

(٣) العنكبوت ٢٩: ٦٩.

(٤) آل عمران ٣: ١٣٩.

(٥) الحجّ ٢٢: ٤١.

بسم الله الرحمن الرحيم

((اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير))

أيها المؤمنون الكرام مرت عليكم سنوات مريرة شاقة صعبا بسيطر فيها الظالم وزمرته فأراق الدماء وهتك الاعراض واهان المقدسات الدينية وعطل الاحكام الشرعية فكانوا كما قال تعالى فيهم " ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار " فاستدرجهم عزوجل وامهلهم فلم يتعظوا بل كانوا كما اخبر عنهم تعالى " " واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد " " فكان الضال المضل الفاسد قد سعى في الفساد واهلك الحرث والنسل . قال تعالى " واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد " فنحمد الله ونشكره جلت عظمته على ما منّ علينا بزوال الجور والظلم ونبتهل اليه جل شأنه ببسط العدل والقسط ان شاء الله تعالى واسأله عزوجل أن يحفظ المؤمنين ويسدد خطاهم قال تعالى " الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " . أيها المؤمنون لاتهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون والله معكم واني ادعو الله تعالى واتضرع اليه ان ينصركم ويوفقكم لكل ما فيه الخير والصلاح فعليكم بالاستقامة في تبليغ احكامه والدعوة اليه عزوجل والمواظبة على دينكم والسعي في تثبيت عزائمكم قال تعالى : " الذين ان مكّنّا هم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبارك خطاكم

٦ شعبان المعظم
١٤١١ هـ

السبزواري
النجف الاشرف



ويعد قراءة سريعة لبيان السيّد السبزواري ﷺ نقف معه وقفتين :

الوقفة الأُولى : الوقفة الفنيّة

ويلاحظ فيها ثلاثة معالم :

المَعلَم الأوّل : براعة الاستهلال ، وهو من المحسّنات البلاغيّة ، ويُراد منه الابتداء بما يناسب المقصود ، بأن يكون الكلام مشتملاً على إشارة إلى ما سيق الكلام لأجله ، بحيث يتفاعل معها السامع فيصغي للكلام بكلّيته .

وقد قيل سابقاً : إنّ حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطيّة النجاح .

وما أجمل ما افتتح به السيّد السبزواري ﷺ بيانه ؛ إذ بدأه بآية قرآنيّة تنمّ عن مقصوده ، وتشير إلى تمام مراده ، فبرع في استهلاله بقوله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ .

المَعلَم الثاني : حسن الاختتام ، وهو الآخر أيضاً من المحسّنات البلاغيّة والإبداعات الفنيّة ، ويراد منه اختتام الكلام بالخاتمة الحسنة التي لا تبقي مجالاً للزيادة عليها ، لما فيها من الحسن والرشاقة والجزالة ، مع تضمّنها معنى تامّاً يؤذن السامع بأنّه الغاية والختام .

وقد أجاد السيّد السبزواري ﷺ مرّة أُخرى في اختتام بيانه ؛ إذ ختمه بآية قرآنيّة مباركة تحمل المعنى المذكور ، وهي قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ .

المَعلَم الثالث : السبك القرآني ، وهذه ميزة فنيّة أُخرى يتحلّى بها بيان السيّد السبزواري ﷺ ، لم نعهدها في سلسلة البيانات السياسيّة ، وتزداد الروعة الفنيّة جمالاً في بيانه الشريف عندما نتمعّن في كيفيّة سبكه للآيات المباركات ، وحسن ربطه بين المعاني القرآنيّة وبين الواقع المعاصر .

ممّا جعل للبيان الشريف رونقاً قرآنيّاً رائعاً ، يجب أن تؤطّر به سائر البيانات السياسيّة الإسلاميّة .

الوقفة الثانية الوقفة السياسيّة

ويلاحظ فيها ثلاثة أبعاد :

البعد الأوّل : التعريف بالمنطلق ، وهو من الأبعاد الطبيعيّة في العالم السياسي ، فكلّ « سياسي ثائر » يعيش الحركة الثوريّة ، ينبغي له أن يعرّف الجماهير بالعوامل والمقوّمات لحركته الثوريّة ، ويوضّح لهم الأهداف والتطلّعات الإصلاحيّة ، حتّى يتفاعل الجمهور مع حركته وثورته .

وهنا وإن كانت العوامل لتأجيج الثورة والانتفاضة غنيّة عن التعريف ، إلّا أنّ الموقع القيادي للسيّد السبزواري ﷺ يفرض عليه بيان عوامل الانتفاضة ، وذلك لإعطائها الصبغة الشرعيّة أوّلاً ، ولبيان الخطوط العريضة للأجيال القادمة ثانياً .

ومن هنا نجد السيّد السبزواري ﷺ في بداية بيانه قام بعمليّة التعريف بالمنطلق والأهداف ، كسائر القادة والسياسيّين الثائرين .

البعد الثاني : عمق الرؤية، وهو من الأبعاد الحسّاسة عند السياسيّين ، ومن المقوّمات الأساسيّة للشخصيّة السياسيّة ، فالشخصيّة التي تعيش الآفاق الضيّقة والرؤية المحدود للأوضاع السياسيّة تعتبر شخصيّة « رجعيّة » في المنظور السياسي .

وهنا نجد هذا البعد مشرقاً في الشخصيّة السياسية للسيّد السبزواري ﷺ ، فمع كونه قد أدلى في بيانه السياسي بتصريحات خطيرة للمقاومة والانتفاضة ، إلّا أنّه كان حريصاً بشدّة على عدم التصريح بهويّة الجبهة المقابلة ، حذراً من استرجاع النظام كيانه وسلطته ، وبالتالي يجعل هذا البيان وثيقة ومستنداً لإدانة السيّد السبزواري ﷺ ، وهذا يكشف عن عمق الرؤية السياسيّة عند السيّد السبزواري ﷺ .

البعد الثالث: الاهتمام بالنظم الإداري، وهو من المقوّمات الأساسيّة للحركات الثوريّة «التغييريّة»، فإنّ الثورة «الانقلابيّة» إذا لم تكوّن لها «جهازاً إداريّاً» يعنى بوضع القوانين التنظيميّة والاجتماعيّة، فإنّها تكون «ضعيفة البنية» ومعرضاً للسقوط والانهيار.

ومن هنا نجد السيّد السبزواري ﷺ في بيانه السياسي يولي الحفاظ على «النظم الإداريّة» اهتماماً كبيراً، من أجل الحفاظ على كيان «الانتفاضة الشعبانيّة».

ويكشف هذا البعد عن الحنكة السياسيّة والفكر الإداري عند السيّد السبزواري ﷺ.



الجانب العلمي

مسيرته العلميّة

بدأ السيّد السبزواري ﷺ مسيرته العلميّة ودراسته الحوزويّة وهو بعد في مقتبل عمره ، فتلقّى قسماً من العلوم والمعارف على يد سماحة والده المقدّس ، وعنده أنهى مرحلة المقدّمات وهو في السادسة من العمر .

وبعدها أخذه والده ﷺ إلى الحوزة العلميّة في مشهد المقدّسة عام ١٣٣٥هـ ، فحضر دروس علمائها في الفقه والأُصول والعرفان والتفسير والفلسفة .

يقول السيّد السبزواري ﷺ : « جاء بي والدي إلى حرم الإمام الرضا ﷺ ووضع يدي على ضريحه مخاطباً الإمام الرضا ﷺ : هذا وديعة وأمانة عندك ، أطلب منك أن أراه مرجعاً من المراجع ، وكان عمري آنذاك ستّ سنوات »[1].

وبعد إنهاء مرحلة السطوح العليا هاجر إلى مدينة النجف الأشرف معقل العلم وقبلته عام ١٣٤٥هـ ، فحضر على أكابر علمائها وفطاحل فقهائها فقهاً وأُصولاً منفقاً في ذلك بياض نهاره وسواد ليله[2] حتّى أُجيز بالاجتهاد وعمره الشريف لا يتجاوز

---

(١) حياة مرجع المسلمين الإمام السبزواري : ٦.

(٢) نقل لي الأُستاذ المعظّم سماحة الحجّة الشيخ هادي العسكري (دامت بركاته) عن العلّامة التقيّ الشيخ محمّد تقي الخراساني ﷺ : أنّه عندما كان طالباً كان يقطن في مدرسة (القوّام) في النجف الأشرف ، وكان السيّد السبزواري ﷺ طالباً في نفس المدرسة أيضاً ، ⇦

الثانية والعشرين[١].

ولم يكتفِ بذلك القدر المعرفي، بل واصل المسيرة العلميّة حتّى وجد نفسه مستغنياً عن الحضور عند الأساتيذ عام ١٣٦٥هـ، وكان عمره الشريف آنذاك ٣٧ سنة.

وبعدها شرع في البحث والتدريس فقهاً وأُصولاً، فباحث في الفقه ثلاث دورات كاملة، وكان يقول: «هذه من نِعم الله علَيَّ»[٢]، كما باحث أيضاً دورتين في المكاسب، وستّ دورات في علم الأُصول، واستمرّت حلقة بحثه الشريف طوال ٤٥ عاماً، بدأها عام ١٣٦٥هـ وختمها عام ١٤١٠هـ، وكان مجلس درسه في بداياته ينعقد في مدرسة الآخوند الكبرى الواقعة في شارع الرسول ﷺ إلى مدّة ١٠ سنوات.

وبعدها كان ينعقد في مدرسة القوام خلف مسجد الشيخ الطوسي ﷺ إلى مدّة ٤ سنوات، ثمّ انتقل إلى مسجد الحويش، وكان هو المقرّ الأخير، فلازمه بالبحث

⇐ إلّا أنّه كان متميّزاً عن بقيّة الطلاب، فإنّ الجميع كانوا يرفّهون عن أنفسهم بالاجتماع خارج الغرف والحديث مع بعضهم البعض، وأمّا هو ﷺ فقد كان مشغولاً طوال وقته بالمطالعة والبحث، وإذا احتاج أن يرفّه عن نفسه قليلاً، كان يخرج من غرفته الواقعة في الطابق العلوي من المدرسة وينظر إلى فناء المدرسة والطلاب المجتمعين فيه بمقدار ربع ساعة أو عشر دقائق ثمّ يعود لمواصلة اشتغاله.

(١) أُجيز السيّد السبزواري ﷺ دراية ورواية من قِبل كبار علماء عصره، وهم:

- السيّد أبو الحسن الأصفهاني ﷺ.
- الشيخ الميرزا محمّد حسين النائيني ﷺ.
- الشيخ محمّد حسين الأصفهاني ﷺ.
- الشيخ آقا ضياء الدين العراقي ﷺ.
- الشيخ عبدالله المقامقاني ﷺ.

(٢) نقلاً عن نجله الأكبر ﷺ.

والتـدريس وإقـامة صلاة الجـماعة بـأمر مـن أسـتاذه الكـبير السيّد أبـو الحسـن الأصفهاني ﷺ ، ولحبّ السيّد السبزواري ﷺ أن يكون مدفنه قريباً من مكـانٍ لازمـه بالعلم والعبادة ، كان هذا المسجد هو مثواه الأخير.

ومسيرة السيّد السبزواري ﷺ في تدريسه ، كانت لها ثـلاث مـثاليات فـي غـاية الحسن والروعة :

الأولى : أنّه كان شديد الالتزام بأوقات الدرس ، ودائماً ما كان يسبق تلامذته في الحضور إلى مكـان الدرس[1]، مـع حثّه وتشـجيعه لهـم عـلى حـواره ومـناقشته والاستفادة منه.

وهذه ميزة تفتقدها الحوزة العلميّة في وقتنا المعاصر ، ففي الوقت التي هي مليئة فيه بالأساتذة والمدرّسين ، فإنّها تفتقد المربّين للنفس والسلوك.

الثانية : أنّه جعل يومي الخميس والجمعة كسائر أيّامه الاسبوعيّة ، فكان يشتغل فيهما بتدريس الفلسفة والتفسير والعرفان.

بينما العرف الحوزوي السائد يعتبر هذين اليومين من كلّ اسبوع راحةً واستجماماً للطلبة الحوزويّين.

الثالثة : أنّه كان يقوم بإلقاء ثلاثة دروس في اليوم الواحد : اثنين منها فـي الفـقه صبحاً وعصراً ، والآخر عصراً في الأصول.

بينما العادة الجارية عند الفقهاء الاقتصار على درسين في كلّ يوم فقهاً وأصولاً.

وهذه المثاليات ـ التي يجب أن تكون نبراساً يستضاء به لكلّ تلامذة المـدرسة المحمّديّة ـ تكشف عن مزيد من الاهتمام ، وقوّة في النشاط ، من أجل الوصول إلى

---

(١) وقد نقل بعض مَن تشرّف بالكتابة عن أحواله الشريفة ﷺ : «أنّ داعيه لسبق التلامذة إلى مجلس الدرس هو أن لا يتسبّب في وقوف التلامذة له عند دخوله». جمال السالكين : ٦٥.

أعلى مراتب العلم والمعرفة.

ونقل أحدهم عن آية الله العظمى السيّد عليّ الفاني ﵀[1] قوله: «إنّ من العلماء مَن يذهب إلى النجف الأشرف، ويعيش فيها عشرات السنين، فلا يعرف فيها إلّا طريق الحرم العلوي الطاهر وموضع درسه؛ لانشغاله بالعلم والتحصيل، أمثال السيّد عبدالأعلى السبزواري ﵀».

ولله درّها من شهادة صادرة من نفس طاهرة مهذّبة؛ إذ شهادة الندّ لندّه من أندر الشهادات في حياة الحوزة المعاصرة.



(١) هو سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ الفاني الأصفهاني ﵀، المولود عام ١٣٣٣هـ، والمتوفّى في شهر شوّال من سنة ١٤٠٩هـ، وكان ﵀ من أعاظم أساتذة الدراسات العليا في كلّ من النجف الأشرف وقم المقدّسة، كما كان من عمالقة المحقّقين في الفقه والأُصول والرجال والحكمة والكلام، وقد تخرّج على يديه العشرات من الفضلاء والمجتهدين، كما ترك وراءه ثروة علميّة جديرة بالتقدير والاهتمام.

أساتذته

من مظاهر العناية الإلهيّة بالسيّد السبزواري ﵀: أنّ الله قد يسّر له أساتذة أكفاء، نهل من علومهم واغترف من كوثرهم، فحصل على عصارة أفكارهم وخلاصة آرائهم.

كما منحه سبحانه وتعالى ذكاءً حادّاً، وحافظة قويّة[١]، وعبقريّة نادرة، فساعده كلّ ذلك على النبوغ والتفوّق والوصول إلى أعلى المراتب العلميّة.

١ـ أساتذته في خراسان:

١ـ **الأديب النيسابوري الأوّل**: المولود عام **١٢٨١**هـ، والمتوفى عام **١٣٤٤**هـ، وكان أستاذ العلوم الأدبيّة الأوّل في مشهد المقدّسة، وقد قرأ لديه السيّد السبزواري ﵀ العلوم الأدبيّة[٢].

٢ـ **آية الله الشيخ محمّد حسن البرسي** ﵀: المتوفّى عام **١٣٤١**هـ، وكان من خيرة الأساتذة المعروفين في مشهد المقدّسة، وقد قرأ عنده السيّد السبزواري ﵀ الفقه والأصول[٣].

٣ـ **آية الله السيّد آقا بزرك الحكيم** ﵀: المتوفّى سنة **١٣٥٥**هـ، وكان من مبرزي أساتذة الحوزة في مشهد المقدّسة[٤].

---

(١) نُقل عن السيّد الخوئي ﵀ أنّه قال: «ما من حديثٍ من الأحاديث المعصوميّة إلّا والسيّد السبزواري ﵀ حافظ له».

(٢) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٥٥.

(٣) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٣٧٩.

(٤) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٤٥٩.

٤ ـ **آية الله السيّد محمّد الطهراني اللواساني** ﷺ، والمعروف بـ(العصّار): المولود عام ١٢٦٥هـ، والمتوفّى عام ١٣٥٦هـ، كان من تلامذة المحقّق صاحب الكفاية ﷺ المجتهدين، ومن المؤلّفين المكثرين في الفقه والأُصول والحكمة والأخلاق والتاريخ والكلام، ومن وجوه أساتذة حوزة مشهد العلميّة[1].

وقد قرأ عندهما في الحكمة والفلسفة.

٥ ـ **آية الله الشيخ حسن عليّ الأصفهاني** ﷺ، والمشهور بـ(النخودكي): المولود عام ١٢٧٩هـ، والمتوفّى عام ١٣٦١هـ، وكان من تلامذة السيّد الفشاركي ﷺ في العلوم العقليّة والنقليّة، ومن تلامذة العارف الكبير السيّد مرتضى الكشميري ﷺ في المعارف الإلهيّة[2].

وكانت لهذا الشيخ كرامات فوق حدّ العدّ والإحصاء، كما كانت له حالات غريبة ومكاشفات عجيبة تحتفظ بها ذاكرة السيّد السبزواري ﷺ، منها:

أنّ الشيخ الأصفهاني ﷺ في أحد مجالس درس التفسير، كان يدرّس كتاب (الصافي) للفيض الكاشاني ﷺ، فأغمض عينيه أثناء الدرس، وكأنّه قد غطّ في نوم عميق، ولم يجرء أحد من تلامذته أن يوقظه، إلى أن مرّ وقت ليس بالقصير فتح عينيه وهو يردّد: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»، واعتذر عن الدرس، فأراد أحد تلامذته معرفة سرّ هذه الحالة فلم يصرّح له بشيء.

يقول السيّد السبزواري ﷺ: «لمّا علمت بأنّ هذه الحالة خاضعة لبعض الأسرار الغيبيّة، صرتُ ألحّ عليه كثيراً لمعرفة السرّ، إلى أن أجابني فقال: إنّي في تلك الساعة ذهبت إلى النجف الأشرف لحضور تشييع جثمان أحد العلماء الصالحين».

---

(١) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٢١١.

(٢) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٦٥.

يقول السيّد السبزواري ﵀: «وكنّا في مشهد الإمام الرضا ﵇، فبادرت إلى ورقة وكتبت اليوم والساعة بالتحديد.

ومرّ وقت على الحادثة، حتّى جاء أحد المؤمنين من النجف الأشرف، فسألته عن يوم وفاة ذلك العالم ووقت تشييعه، فأفاد بأنّ يوم الوفاة ووقت التشييع هو نفس اليوم ونفس الوقت الذي ذكره الشيخ الأصفهاني ﵀»[١].

ولعلّه ﵀ يشير إلى هذه الحادثة، عندما تحدّث في بعض كلماته الشريفة عن حقيقة (خلع الروح) فقال: «وحينئذٍ يقدر العبد المجاهد المؤمن على الخلع واللبس، ومن حيث شروق نوره على هذا البدن يتحرّك البدن بقدر ذلك الشارق، ومع درك هذه المرتبة قد يصل إلى مرتبة جمع الجمع بأن يكثر بدنه، كما نُسب إلى بعض الأولياء عن وجودهم في زمان واحد في أمكنة متعدّدة، وقد رأينا بعض مشائخنا (رضوان الله تعالى عليه) ورآه بعض أصحابه في عين هذا البدن في محلّ آخر»[٢].

٢ ـ أساتذته في النجف الأشرف:

أوّلاً: في الفقه والأُصول:

١ ـ سماحة آية الله العظمى الشيخ أبو الحسن المشكيني ﵀ (١٣٠٥ ـ ١٣٥٨هـ): فقيه أُصولي نحرير، عالم متضلّع، شيخ جليل، مجتهد فاضل، من أساتذة الفقه والأُصول، عُرف بالهدوء والسكينة، والتحقيق في العلم، والتثبت في الأُمور العرفيّة، وهو أحد المدرّسين البارعين، حسن التقرير والبيان، أكمل مقدّماته العلميّة في أردبيل، وهاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣٢٨هـ، وتتلمذ على الشيخ

---

(١) جذوة مقتبسة: ١٤.

(٢) مواهب الرحمن: ٧/٧٣.

محمّد كاظم الخراساني، والشيخ علي القوچاني، والميرزا محمّد تقي الشيرازي، ثمّ اشتغل بالتدريس والتأليف والبحث، وبرع في تدريس علم الأُصول، واجتمعت عليه حلقة من أهل الفضل والكمال، يملي عليهم فوائد جليلة ممّا أملوه عليه شيوخه.

له من المؤلّفات: حاشية العروة الوثقى، حاشية كفاية الأُصول، حاشية المكاسب، الفوائد الرجاليّة، رسالة في الترتّب، رسالة في الرضاع، رسالة في المعنى الحرفي، وغيرها[1].

٢ ـ سماحة آية الله العظمى الميرزا محمّد حسين النائيني ﷺ: من كبار شيوخ الفقه والأُصول، ومن أعاظم علماء الشيعة وأكابر المحقّقين، فقيه أُصولي، من أئمّة التقليد والفتيا والمرجعيّة وزعماء الثورة، صاحب تحقيق وتدقيق، وله نظريّات سديدة في علم الأُصول والفقه، متين في الحكمة والفلسفة، ربّى جمهرة من العلماء والفضلاء والمراجع، وغذّاهم بعلمه الغزير وأدبه الواسع.

سلّمت إليه المرجعيّة بعد وفاة الشيخ محمّدكاظم الخراساني ﷺ صاحب الكفاية، ورجع إليه الكثير في التقليد من مختلف البلاد والأقطار، فنهض بأعباء الزعامة الروحيّة والقيادة الدينيّة.

إلى أن توفّي بعد اعتلال جسده وانهيار قواه في السادس والعشرين من شهر جمادى الأوّل عام ١٣٥٥هـ[2].

٣ ـ سماحة آية الله العظمى الشيخ آقا ضياء الدين العراقي ﷺ: مجتهد محقّق من أكابر فقهاء العصر، ومراجع التقليد، وأساطين الفقه والأُصول والتربية

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣/١٢٠٤.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣/١٢٦١.

والأخلاق، وقد برع في الأُصول حتّى تخصّص فيه، وأبدع وأصبح المدرّس الفذّ في النجف الأشرف في علم الأُصول.

تتلمذ على الميرزا حسين الخليلي، والشيخ محمّدكاظم الخراساني، والسيّد محمّدكاظم اليزدي، وشيخ الشريعةالأصفهاني، ونظرائهم في الفقه والأُصول والرجال والحديث والحكمة والكلام.

ثمّ اشتغل بالتدريس بعد وفاة الشيخ الخراساني، وذاع اسمه، والتفّ حوله كثير من طلاب العلوم، وأقبلوا عليه إقبالاً واضحاً؛ لما امتاز به من حسن الإلقاء، وعذوبة المنطق، وتخرّج عليه الكثير من الأعلام، ورجع الناس إليه في التقليد، وواصل جهاده الفكري إلى أن توفّي في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة عام ١٣٦١هـ[١].

٤ ـ سماحة آية الله العظمى الشيخ محمّدحسين الأُصفهاني الكمباني ﷺ:

من أعاظم الفقهاء والمحقّقين، وكبار المجتهدين، وأجلّاء الفلاسفة المتألّهين، حكيم متبحّر، وأُستاذ نحرير، وشاعر مبدع في اللغتين العربيّة والفارسيّة.

هاجر إلى النجف الأشرف، وتتلمذ على الشيخ حسن التوسركاني، والسيّد محمّد الفشاركي، والشيخ آقا رضا الهمداني، والشيخ محمّدكاظم الخراساني ﷺ، فحصل على قسط وافر وعلوم جمّة، وأصبح يشار إليه بالبنان، وعرف بالنبل وإتقان الفلسفة، وعدّ من كبار أساتذة النجف، واستقلّ بالتدريس، وكان جامعاً للكلام والتفسير والحكمة والتاريخ والعرفان والأدب، إلى جانب الورع والتقوى والزهد، مع ضيق الحال وشدّته. ولقد امتاز شعره في اللغتين ببراعة وسلاسة ومتانة ودقّة ونبوغ وعبقريّة.

وبقي بزوال نشاطه الفكري إلى أن توفّي عام ١٣٦١هـ[٢].

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٢/٨٨٦.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١/١٣٤.

٥ ـ سماحة آية الله العظمى السيّد أبوالحسن الموسوي الأصفهاني ﷺ : فقيه أُصولي ، وعالم كبير ، وشخصيّة فذّة ، وعبقريّة نادرة ، استقلّ بالرئاسة الدينيّة والمرجعيّة الكبرى ، وتولّى أعباءها ، وطبقت شهرته الآفاق ، وأصبح مفتي الشيعة في كافّة الأقطار الإسلاميّة من غير منازع .

تتلمذ على الشيخ محمّدكاظم الخراساني ، والشيخ موسى كاشف الغطاء ، والميرزا حبيب الله الرشتي ﷺ ، وتوفّي على أثر مرض لازمه مدّة عام **١٣٦٥**هـ[١] .

ثانياً : أساتذته في الفلسفة والعرفان :

١ ـ سماحة آية الله العظمى السيّد حسين اللاهيجي البادكوبي ﷺ : من أجلّ الفقهاء ، وأفاضل الحكماء والفلاسفة ، ومن أساتذة الفقه والأُصول والحكمة والسير والسلوك .

هاجر إلى النجف الأشرف ، وتخرّج على شيوخها ، وسطع نجمه في الأوساط العلميّة ، واستقلّ بالبحث والتدريس لغزارة علمه وكثرة فضله ، واشتهر بالفلسفة والعلوم العقليّة ، وعرف بالخبرة والمهارة ، والتحقيق والتدقيق ، وتخرّج على يديه جمع من الأفاضل حتّى توفّي عام **١٣٥٨**هـ[٢] .

٢ ـ سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ القاضي الطباطبائي التبريزي ﷺ : عالم كامل ، مجتهد جليل ، مفسّر فقيه ، محدّث أخلاقي ، ورع فاضل . ولد في تبريز ، وأخذ المقدّمات من والده وفضلاء عصره ، وفي عام **١٣١٣**هـ هاجر إلى النجف الأشرف ، فحضر على المولى الفاضل الشربياني ، والشيخ محمّدحسن المامقاني ، وشيخ الشريعة الأصفهاني ، والشيخ محمّدكاظم الخراساني ، والميرزا

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف : ١/١٢٩ .

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف : ١/١٩٨ .

حسين الخليلي ﷺ ، وتضلّع في العرفان والتفسير.

وكان من رجال الأخلاق ، وتهذيب النفس ، وتخرّج على يديه جمع كبير من الأعلام ، كما كان موضع تقدير وإكبار كافّة الطبقات في النجف ، وأقام فيها إلى أن توفّي في السادس من ربيع الأوّل عام ١٣٦٦هـ[١].

ثالثاً: أساتذته في علوم القرآن:

سماحة آية الله العظمى الشيخ محمّدجواد البلاغي ﷺ : فقيه كبير ، ومجتهد مجاهد ، وعالم نحرير ، وعابد زاهد ، وناسك ورع ، ومؤلّف خبير ، متضلّع في العقائد ، وهو صاحب اليراع المقدّس الذي سبح في بحار العلوم ، ودحض شُبه الماديّين والطبيعيّين ، وكان إلى جانب هذه القيم شاعراً مجيداً ، وأديباً عبقريّاً ، خدم الشريعة والرسالة الحنيفة.

وخدم الإنسانيّة بقلمه السيّال ، ولسانه المنيع ، وبكلّ قواه ، وذاعت مؤلّفاته واحتلّت خزائن الكتب في الخافقين ، وأفنى عمره مناضلاً مجاهداً إلى أن توفّي في شعبان عام ١٣٥٢هـ[٢].

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣/٩٦٦.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١/٢٥٣.

تلامذته[(١)]

مدرسة السيّد السبزواري ﷺ على مدى خمسة عقود متوالية خرّجت كوكبة من كبار الفقهاء والمجتهدين ، والفضلاء المحقّقين ، والذين أخذوا على عاتقهم مواصلة المسيرة الفكريّة والدرب الحافل بالبذل والعطاء والتضحية لخدمة الإسلام والدين والمجتمع .

وبعضهم اليوم يُعدّ من أساتذة الحوزات العلميّة في النجف الأشرف وقم المقدّسة ، بل بعضهم يحمل الكفاءة والجدارة العلميّة التي تؤهّله للقيام بمسؤوليّة المرجعيّة والقيادة .

وهاهنا نذكر بعض أُولئك العباقرة الذين خرّجهم منبر الإمام السبزواري ﷺ :

١ ـ سماحة الشيخ محمّدعلي التوحيدي التبريزي ﷺ : مجتهد ، فاضل ، محقّق ، عالم جليل ، من أساتذة الفقه والأُصول ، ثقة ، ورع ، زاهد ، طيّب الأخلاق والسيرة ، حسن الحديث ،كان محترماً لدى العلماء والفضلاء ، تتلمذ على يد السيّد أبوالقاسم الخوئي ﷺ ، والسيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ . توفّي عام ١٣٩٥هـ في مدينة قم المقدّسة .

له من المؤلّفات :

١ ـ مصباح الفقاهة (١ ـ ٧).

---

(١) لا يخفى أنّ من ذكرناهم هنا إنّما هم بعض تلامذة السيّد السبزواري ﷺ ، إذ من الواضح أنّ استقراءهم جميعاً يكاد أن يكون من الأُمور المتعسّرة عادة ، كما أنّه يجدر الالتفات إلى أنّ مصادر تراجم تلامذته ﷺ التي اعتمدناها لم نعتمدها في أصل نسبة التلمذة ، لأنّ بعضها قد أغفل ذلك ، وإنّما كان اعتمادنا بالدرجة الأُولى على نقل الثقات العارفين .

٢ ـ حاشية الكفاية.

٣ ـ الطهارة في شرح العروة الوثقى.

٤ ـ تفسير القرآن الكريم (١ ـ ٢).

٥ ـ حاشية منظومة السبزواري[١].

٢ ـ سماحة السيّد عبدالكريم الكشميري ﷺ: عالم ربّاني، وعارف إلهي، وحكيم أخلاقي. وُلدَ في مدينة النجف الأشرف عام ١٣٤٣هـ، وفيها نشأ وترعرع تحت رعاية والده المقدّس، فأخذ به إلى طريق العلم والمعرفة في مرحلة مبكّرة من عمره.

وقد استفاد في علمي الفقه والأُصول من أساطين الحوزة النجفيّة الشريفة، كالسيّدين العَلمين: الخوئي والسبزواري ﷺ، حتّى عدّ من مبرزي أساتذة السطوح العليا المتمكّنين، كما استفاد في علم العرفان من أساتذة السلوك الشامخين، كالعارف الأخلاقي الكبير الشيخ مرتضى الطالقاني ﷺ، الذي لازمه على مدى عشر سنوات متواصلة ملازمة الظلّ لذي الظلّ، حتّى وصل على يديه إلى أرقى منازل السير والسلوك، وصار من وجوه العرفاء في زماننا هذا، ولم يزل في النجف الأشرف حتّى طالته حملة التفسير الظالمة، فهاجر إلى قم المقدّسة، وبقي فيها حتّى لحق بالرفيق الأعلى عام ١٤١٩هـ.

وقد خرج عن قلمه الشريف:

١ ـ المحاضرات الأخلاقيّة (تقريراً لمحاضرات العارف الكبير الطالقاني ﷺ).

٢ ـ تقريرات أبحاث المحقّق الخوئي ﷺ.

٣ ـ شرح كفاية الأُصول، وقد قرّضه السيّدان المحقّقان: الخوئي والميلاني ﷺ.

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣٢٣/١.

٤ ـ ديوان شعر باللغة العربيّة[١].

٣ ـ **سماحة الشيخ محمّد صادق الكاشمري النجفي السعيدي** ﷺ: عالم فاضل، مجتهد، جليل، متتبّع، محقّق، من أساتذة الفقه والأُصول والتفسير، ورع صالح، خيّر متواضع. ولد في «كاشمر» سنة **١٣٥٢**هـ، وأخذ الأوّليّات ومقدّمات العلوم في مشهد الإمام الرضا ﷺ، وفي عام **١٣٥٧**هـ هاجر إلى النجف الأشرف وتتلمذ على الميرزا محمّد باقر الزنجاني، والسيّد الخوئي، والسيّد عبدالأعلى السبزواري.

وفي عام **١٣٨٤**هـ عاد إلى مشهد وتصدّى للتدريس والبحث والدعوة والتوجيه، وإدارة الحوزة العلميّة، وأقبلت عليه كافّة الطبقات لإخلاصه وقدسه وورعه وفضله.

له من المؤلّفات:

١ ـ تقريرات أبحاث السيّد الخوئي في الفقه والأُصول.

٢ ـ كتابات في التفسير والحديث[٢].

وقد تشرّفتُ بزيارة هذا الشيخ ﷺ لعدّة مرّات في مدرسته العلميّة (حوزة الإمام الحسن المجتبى ﷺ) في مشهد المقدّسة، فوجدته آية في الأخلاق والتواضع لم أرَ لها نظيراً حتّى الآن، ولكنّ حياة هذا الرجل العظيم لم تدم طويلاً، فقد داهمه المرض في أواخر حياته، وبقي ملازماً له حتّى انتقل إلى جوار ربّه تعالى في ثاني يوم الغدير الأغرّ من عام **١٤١٦**هـ، وقد فاجئني خبر رحيله وأنا أعتزم السفر من مشهد المقدّسة إلى قم المشرّفة، فأبّنته بمقطوعة شعريّة وأنا على متن الطائرة، وإليكها:

---

(١) لسان الصدق: ٩ ـ ٢١.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٦٧٦/٢.

التلبية الأخيرة

حينما يرجع الحجيجُ من الحجّ يلبّونَ أروعَ التلبياتِ
أنت تطوي الجنان قصراً فقصراً وتلبّي بأعذب الكلمات
يحتضن روحك النبيّ ويحنو بذراعيه ضامنُ الجنّاتِ
والإمامُ الزكيّ يمنحك الخلدَ ويهديكَ باقة الحسناتِ
ونمير الغدير يروي صداك المتلظّي بأنعش الشرباتِ
وشعاع القرآن يزهو بجنبيك ويمتدّ في ذرى المشكاةِ

***

أنت يا روحة المكارم نبعٌ حسنيّ يفيض بالمكرماتِ
أنت نبع الأخلاق لم تزَ إلّا باسم الثغر مشرق الوجنات
لملمت خطوك القيود ولكن لم تلملم أخلاقك الساميات
إن تؤاذىٰ تصفح وإن طفح الكيلُ تحدّيت أصعب الكرباتِ
هكذا كنت في ممالك فرداً كيف ترويك ريشتي ودواتي

٤ ـ سماحة الشيخ محمّد الرحمتي السيرجاني (دامت فوائده): المولود عام ١٣٥٠هـ تقريباً، من خيرة الأساتذة والمدرّسين في حوزة قم المقدّسة، هاجر إلى النجف وحضر على كبار أساتذتها، كالسيّد الخوئي والسيّد الشاهرودي والسيّد الحكيم ﷺ، ونهل من علومهم، حتّى أُجيز بالاجتهاد من قِبل جماعة منهم، كالسيّد الشاهرودي والسيّد البجنوردي والسيّد الحمامي ﷺ، ثمّ عاد إلى مدينة قم المقدّسة مدرّساً ومؤلّفاً عام ١٣٩٦هـ، فصدر عن قلمه: كتاب الحدود (في مجلّدين)، وكتاب القصاص (في مجلّدين)، وإنجاز العدات في أحكام الديات، ورسالة عمليّة في

(مناسك الحجّ)، وإرث المنهاج، وغير ذلك[١].

٥ ـ سماحة الشيخ قربان عليّ المعروف بالمحقّق الكابلي (دام ظلّه):

المولود عام **١٣٤٩**هـ تقريباً في إحدى قرى كابل، وقد نشأ فيها وأخذ المقدّمات عند أساتذتها، ومنها هاجر إلى النجف الأشرف عام **١٣٧٤**هـ تقريباً، فاستفاد من محضر كبار أساتذتها، كالسيّد السبزواري والميرزا كاظم التبريزي والشيخ محمّد تقي آل راضي والشيخ صدراالبادكوبي والشيخ مجتبى اللنكراني والشيخ عبّاس القوجاني ﷺ، ثمّ حضر الأبحاث العالية عند أعاظم مدرّسيها، كالسيّدين: الحكيم والخوئي ﷺ، والشيخ حسين الحلّي والميرزا باقر الزنجاني والسيّد الحمامي ﷺ.

وبعد عشرين سنة قضاها مجاوراً لمثوى سيّد الموحّدين ﷺ، رجع إلى مسقط رأسه، ومكث فيه لمدّة سبع سنوات مشتغلاً بالبحث والتدريس ومعالجة مشاكل المجتمع، ثمّ غادره متوجّهاً إلى قم المقدّسة، وبقي فيها ـ ولا زال ـ أُستاذاً للدراسات العليا المعروفة بأبحاث الخارج.

وقد خرج عن قلمه:

١ ـ كتاب الخمس.

٢ ـ المباحث الفقهيّة (١ ـ ٣).

٣ ـ وظيفة القضاة.

٤ ـ تحرير العروة الوثقى.

٥ ـ مناسك الحجّ.

٦ ـ توضيح المسائل[٢].

---

(١) يادنامه حضرت آية الله العظمى القائيني: ١٧.

(٢) الترجمة مقتبسة من موقعه على الانترنت.

٦ ـ سماحة الشيخ محمّدرضا الجعفري (دام ظلّه): عـالم جـليل، وبحّاثة محقّق، ومتكلّم بارع. وُلد في مدينة النجف الأشرف عام **١٣٥٠**هـ في عائلة مشهورة بالعلم والفضيلة، وأخذ فيها مقدّمات العلوم والسطوح العليا عند فضلاء الحوزة العلميّة، ثمّ حضر في الفقه والأُصول عند السيّدين: الخوئي والروحاني ﭭ حتّى صار من مبرّزي تلامذتهما وخواصهما، وحضر في الحكمة عند السيّد السبزواري ﭬ.

ولمّا تشكّلت جماعة العلماء سنة **١٣٧٩**هـ بأمر المرجعيّة، كان الشيخ الجعفري أحد أعضائها النشطين، وقد ألقوا على عاتقه إدارة مجلّة (الأضواء) المعروفة، كما أنّه انتُخب أُستاذاً في كلية الفقه آنذاك، فدرس فيها أُصول العقائد والتفسير والتاريخ الإسلامي.

وهكذا بقي في النجف الأشرف علماً من أعلامها إلى أن اضطرّ للخروج منها، بسبب حملة التسفير الغاشمة التي قام بها النظام البعثي البائد عام **١٣٩٢**هـ، واستقرّ في طهران، حتّى هاجر منها قبل سنوات قريبة وألقى برحله في قم المقدّسة مدرّساً ومؤلّفاً، وهو الآن مشغول بإعداد مؤلّفاته القيّمة، سيّما في الكلام والتاريخ لترى النور قريباً إن شاء الله تعالى.

وحريّ بنا أن نختم هذه الترجمة المختصرة بما قاله فيه صديقه الخاصّ المحقّق السيّد عبدالعزيز الطباطبائي ﭬ، حيث نقل عنه قوله: «ولا أراني مغالياً إذا قلت لا أعرف له اليوم نظيراً في علمائنا، في سعة الاطّلاع، وتشعّب المعلومات، وكثرة المحفوظات».

٧ ـ سماحة السيّد عبدالصاحب الحكيم ﭬ: عالم مجتهد جليل، من أعلام الفضل والدين والأخلاق والمعرفة[1].

---

(١) الترجمة مستقاة من مقدّمة كتاب (منتقى الأُصول).

ولد في النجف الأشرف عام ١٣٦١هـ، وتتلمذ فيها على أفاضل تلامذة والده، وسار بتفوّق مستمرّ حتّى حضر الدراسات العليا عند السيّدين: الخوئي والروحاني ﷺ واختصّ بالأخير منهما، فقرّر أبحاثه الشريفة في الفقه والأصول، فكان كتابه (منتقى الأُصول) من أهمّ الموسوعات الأُصوليّة في الفترة الأخيرة.

وقد قام بتدريس السطح العالي (المكاسب والرسائل والكفاية) سبع دورات متتالية، ثمّ شرع في تدريس البحث الخارج فقهاً وأُصولاً عام ١٣٩٩هـ، واستمرّ فيه حتّى اعتُقل من قِبل النظام البعثي البائد، وقد بلغ في الأُصول إلى مسألة حجّيّة خبر الواحد، وأتمّ من الفقه كتاب الاجتهاد والتقليد والطهارة، وبقي رهن الاعتقال حتّى قُتل مظلوماً مع خمسة من أُسرته عام ١٤٠٣هـ[1].

٨ـ سماحة السيّد محمّد الفيروزآبادي ﷺ: نجل سماحة آية الله العظمى السيّد مرتضى الفيروزآبادي ﷺ صاحب الكتاب المشهور «عناية الأُصول»، عالم جليل، ومدرّس قدير. وُلد عام ١٣٤٩هـ في مدينة النجف الأشرف، وأخذ فيها مقدّمات العلوم ودروس السطح العالي على يد كبار مدرّسيها، ثمّ حضر الأبحاث العالية عند أساطين الفقه والأُصول، كالسيّد الحكيم والسيّد عبدالهادي الشيرازي والسيّد البجنوردي والسيّد الخوئي ﷺ، كما استفاد في العلوم العقليّة من محضر السيّد السبزواري ﷺ.

وبقي في النجف الأشرف حتّى هُجّر منها عام ١٣٩١هـ، فقصد قم المقدّسة، ولكنّه لم يبرح فيها طويلاً، حيث غادرها إلى مدينة الريّ، وعلى إثر وعكة صحّية غادرها هي الأُخرى إلى منطقة (شميرانات)، وكان في جميع تنقّلاته مشتغلاً

---

(١) عدّه من تلامذة السيّد ﷺ السيّد حسين نجيب محمّد في كتابه (جمال السالكين: ٢٣)، وأكّد لي ذلك نجل السيّد السبزواري ﷺ سماحة السيّد عليّ حفظه الله.

بالبحث والتدريس والكتابة وصلاة الجماعة، حتّى توفّي عام ١٤١٥هـ.

وقد خرج من مؤلّفاته:

١ ـ كفاية المفسّرين في تفسير القرآن المبين.

٢ ـ ذخائر العقبى في شرح العروة الوثقى.

٣ ـ منتهى العناية في شرح الكفاية، وغيرها [١].

٩ ـ سماحة السيّد محمّد كلانتر ﵀: عالم فاضل، ومؤلّف جليل، ومتتبّع خبير، وكاتب محقّق. ولد في النجف الأشرف عام ١٣٤٣هـ، وقرأ مقدّمات العلوم والأوّليات، ثمّ حضر على أقطاب الحوزة، كالسيّد الخوئي والسيّد السبزواري ﵏، وتولّى عمادة «جامعة النجف الأشرف الدينيّة» التي أسّسها في حي السعد، وهي من أوسع وأضخم مدارس النجف الدينيّة، وقام بإدارتها [٢].

له من المؤلّفات:

١ ـ دراسات في أُصول الفقه (١ ـ ٣)، وهو من خيرة الشروح النافعة لكتاب (كفاية الأُصول).

٢ ـ الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة (١ ـ ١٠).

٣ ـ شرح المكاسب (١ ـ ١٧).

٤ ـ البداء.

٥ ـ شرح دعاء الصباح، وهو آخر ما طبع له ﵀.

١٠ ـ سماحة الشيخ محمّد آصف المحسني: عالم، فاضل، متتبّع، محقّق.

---

(١) منتهى العناية في شرح الكفاية: المقدّمة.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣/١٠٨٩.

ولد في مدينة (قندهار) في أفغانستان عام ١٣٥٢هـ، وأخذ فيها دراسته الأوّليّة، ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣٧٣هـ، فحضر عند كبار أساتذتها، كآية الله العظمى السيّد الخوئي ﷺ، وآية الله العظمى السيّد الحكيم ﷺ، وآية الله العظمى الشيخ حسين الحلّي ﷺ، وآية الله العظمى الميرزا باقر الزنجاني ﷺ، وآية الله العظمى السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ، حتّى وصل إلى المراتب العليا في الفقه والأُصول.

له من المؤلّفات:

١ ـ حدود الشريعة (١ ـ ٤).

٢ ـ بحوث في علم الرجال.

٣ ـ صراط الحقّ (١ ـ ٣).

٤ ـ فوائد رجاليّة[١].

وآخر ما صدر عن قلمه كتاب (مشرعة البحار)، وقد أحدث هذا الكتاب ضجّة كبيرة في أوساط الحوزة العلميّة؛ لأنّه اعتبر مشروع إسقاط المئات، بل الآلاف، من الروايات الشريفة، وليت المترجم قد كتب بدلاً عنه كتاباً يحاول فيه تصحيح الروايات من خلال إقامة القرائن الخارجيّة على صحّتها، عوضاً عن إسقاطها والإعراض عنها، فإنّه لو فعل ذلك لكان قد أسدى للتشيّع خدمة كبيرة لا يمكن أن تقدّر.

١١ ـ سماحة الشيخ غلام رضا عرفانيان (دام ظلّه): عالم متتبّع، فاضل، محقّق جليل، كثير البحث والتأليف، ومن ذوي الخبرة في الرجال والأحاديث.

ولد عام ١٣٤٩هـ، وأخذ المقدّمات والسطوح من فضلاء عصره، وهاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣٧٥هـ، وواصل الدراسة وطلب العلم، فحضر على السيّد

---

(١) أفغانستان / الشيخ حسين الفاضلي: ٢٨١. بحوث في علم الرجال: ٥٢٤.

الحكيم، والسيّد الخوئي، والسيّد السبزواري، والشيخ محمّد رضا المظفّر ﷺ، واشتغل بالبحث والتأليف، والتتبّع والمباحثة، إلى جانب التواضع وكرم الأخلاق، هاجر إلى قم إثر تهجير الإيرانيّين عام ١٣٩٨هـ، ومنها إلى مشهد الإمام الرضا ﷺ.

له من المؤلّفات:

١ ـ الثقات في أسانيد كتاب كامل الزيارات.

٢ ـ صلاة الليل.

٣ ـ الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد، وهو تقرير لبحث المحقق الخوئي ﷺ.

٤ ـ المغانم الحسنى في شرح العروة الوثقى.

٥ ـ تتمّة كتاب (أُصول الفقه) للشيخ المظفّر ﷺ[1].

١٢ ـ سماحة السيّد عبدالعزيز الطباطبائي ﷺ: عالم فاضل، بحّاثة محقّق، من أعلام المتتبّعين والمحقّقين، ومن أهل الورع والتقوى.

ولد في الحادي والعشرين من جمادى الثاني عام ١٣٤٨هـ في مدينة النجف الأشرف، وتتلمذ على أيدي كبار علماء النجف، كالسيّد هاشم الطهراني، والسيّد عبدالأعلى السبزواري، والشيخ البادكوبي، والسيّد عليّ الفاني، وحضر الدروس العليا عند السيّد الخوئي، والسيّد عبدالهادي الشيرازي ﷺ.

وتردّد خلال هذه الفترة على العلَمين العملاقَين الشيخين: آقا بزرك الطهراني صاحب الذريعة، والشيخ الأميني صاحب الغدير، ولازمهما طوال ربع قرن، واستفاد منهما كثيراً في مجال تخصّصهما، فاتّبع أثرهما، ومن خلال هذه الملازمة أصبحت له خبرة واسعة بالكتاب الإسلامي، مخطوطه ومطبوعه، وأماكن وجوده؛ إذ سافر سماحته إلى الكثير من البلاد التي فيها خزانات المخطوطات، كالأردن

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٢/٨٩٠.

وسوريا ولبنان وتركيا وبريطانيا والولايات المتّحدة، وعمل كثيراً على إخراجها ووضع الفهارس لها، كما استدرك على موسوعة (الذريعة).

وفي عام ١٣٩٦هـ هاجر إلى قم المقدّسة، وواصل جهاده العلمي من أجل إحياء التراث الإسلامي حتّى توفّي في شهر رمضان عام ١٤١٦هـ.

له من المؤلّفات:

١ ـ الغدير في التراث الإسلامي.

٢ ـ أضواء على الذريعة.

٣ ـ نهج البلاغة عبر القرون.

٤ ـ معجم أعلام الشيعة (المهدي في السنّة النبويّة)، وغيرها[1].

١٣ ـ سماحة الشيخ حسين الراستي الكاشاني (حفظه الله):

ولد في مدينة كاشان عام ١٣٤٨هـ، وأخذ فيها المقدّمات على أيدي فضلائها، ثمّ هاجر إلى قم المقدّسة وحضر السطوح العليا عند كبار أساتذتها آنذاك، كالسيّد المرعشي والعلّامة الطباطبائي ﷺ، وبعدها هاجر إلى النجف الأشرف ونهل من عمالقة مدرّسيها في الدراسات العليا، كالمحقّق الخوئي والميرزا باقر الزنجاني والسيّد الخميني ﷺ، واستفاد في علم الحديث والحكمة من محضر السيّد السبزواري ﷺ، وبعد عودته إلى قم المقدّسة أصبح عضواً في جماعة مدرّسي الحوزة العلميّة فيها.

١٤ ـ سماحة الأُستاذ الشيخ حسنين الباكستاني النجفي (دام ظلّه): عالم جليل، من أساتذة المعقول والمنقول في النجف الأشرف.

---

(١) مرآة الكتب ـ العدد ١٧: ٣٢.

ولد عام ١٩٤٢م في محافظة «اسكاردو» من مقاطعة «جموكشمير» المتنازع عليها حالياً بين حكومتي الهند والباكستان.

وفيها تعلّم القراءة والكتابة، وأخذ بعض المقدّمات على يد والدته ووالده الشيخ عليّ، الذي كان من أبرز علماء تلك المنطقة.

إلّا أنّه طلباً لتحقيق طموحاته العالية هاجر إلى النجف الأشرف عام ١٩٦٣م، فأخذ عند أساتذتها ما تبقّى من المقدّمات والسطوح، ثمّ حضر الأبحاث العليا عند كبار أساتذتها، كالسيّد الخوئي والسبزواري والصدر ﷺ، حتّى استقلّ بالتدريس معتمداً على جهده النفسي، فكان من مبرزي أساتذة الحوزة في الفترة الأخيرة، ولم يزل بها حتّى أُلزم بالخروج منها من قِبل بعض الجهات، فهاجر منها قبل فترة قريبة إلى قمّ المقدّسة، ولا زال فيها مشغولاً بالتدريس والتأليف، وقد خرج من قلمه العديد من المؤلّفات، ومن أهمّها شرحه على كتاب (التجريد).

١٥ ـ سماحة السيّد محمّدجواد فضل الله ﷺ: عالم جليل، وشاعر رقيق مجيد. ولد في النجف الأشرف عام ١٣٥٧هـ، وقرأ على والده المقدّس السيّد عبدالرؤوف فضل الله ﷺ، ثمّ حضر أبحاث الخارج على عمالقة البحث آنذاك، كالمحقّق الخوئي والشيخ الحلّي والسيّد السبزواري والسيّد الروحاني ﷺ.

يقول عنه الأميني ﷺ: «زاملته سنين طويلة، وما شاهدت منه غير الأدب والفضل والكمال».

وفي السنيّ الأخيرة من عمره رجع إلى لبنان وأقام فيها إلى أن داهمه المرض، فتوفّي على أثره عام ١٣٩٥هـ، تاركاً وراءه مؤلّفات ثمينة، منها: صلح الإمام الحسن عليه السلام، وحياة الإمام الرضا عليه السلام، والإمام الصادق عليه السلام، وغيرها [١].

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٢/٩٤٤.

١٦ ـ سماحة السيّد إبراهيم الموسوي الزنجاني ﷺ: عالم جليل، ومؤلّف فاضل، عبّر عنه فخر الطائفة السيّد الخوئي ﷺ في مقدّمة كتاب المترجم (عقائد الإماميّة) بـ(جناب العلّامة، ركن الإسلام، عماد العلماء الأعلام والفضلاء الكرام).

كثير البحث والمطالعة، والتجوال والحركة، والاختلاف إلى المجالس والأندية، ومن رجال الوعظ والإرشاد والهداية، هاجر إلى النجف الأشرف وأخذ عن أساتذتها، كالسيّد الحكيم، والسيّد الخوئي، والسيّد عبدالهادي الشيرازي، والسيّد السبزواري ﷺ[1].

له من المؤلّفات:

١ ـ مدارك العروة الوثقى.

٢ ـ أحسن التقارير في أصول الفقه (١ ـ ٤).

٣ ـ بداية الفلسفة.

٤ ـ نهاية الفلسفة.

٥ ـ شرح التجريد.

٦ ـ بداية الأصول.

٧ ـ عقائد الإماميّة (١ ـ ٣).

١٧ ـ سماحة السيّد محمّد مهدي البجنوردي: المولود عام ١٣٥٢هـ، عالم فاضل، من أجلاء الفضلاء والعلماء، وفي طليعة المشتغلين المثابرين، حضر على يد والده سماحة آية الله العظمى السيّد حسن البجنوري ﷺ، وكذا على يد الآيتين العظميين: سماحة الشيخ حسين الحلّي، وسماحة السيّد السبزواري ﷺ، وبقي في النجف الأشرف مفيداً ومستفيداً، إلى أن طالته حملة التسفير الغاشمة فغادرها إلى

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٢/٦٤٣.

طهران واستقرّ فيها ، وهو إلى جانب ذلك كان يحمل ملكات نفسيّة فاضلة ، برزت في تواضعه ورحابة صدره وحسن خلقه .

له من المؤلّفات :

١ ـ مباحث الألفاظ .

٢ ـ تقريرات الأُصول ، من بحوث والده ﷺ .

٣ ـ تقريرات الطهارة ، من بحوث الشيخ الحلّي ﷺ [١] .

١٨ ـ سماحة السيّد علاء الدين الغريفي (حفظه الله) :

المولود في بغداد عام ١٣٦٥هـ، وفيها أخذ مقدّمات العلوم والسطوح العليا على يد فضلائها المعروفين ، كالسيّد مسلم الحلّي ﷺ ، ثمّ هاجر منها إلى النجف الأشرف فحضر على أساطين أساتذتها ، كالمحقّق الخوئي والسيّد السبزواري ﷺ ، وغيرهما ، وله مؤلّفات عديدة ، منها : غنية المتّقين في أحكام الدين ، وفضائل القرآن وعلومه ، وغيرهما ، وأغلب مؤلّفاته فتوائيّة [٢] .

١٩ ـ سماحة السيّد جمال الدين الاسترآبادي (دام ظلّه) : فاضل جليل ، عالم محقّق ، أديب ورع ، من أجلّاء الفضلاء وأعلام المتتبّعين .

ولد في طهران عام ١٣٥٣هـ، وهاجر إلى النجف الأشرف ، وأكبّ على البحث والدرس والتأليف والمطالعة ، تتلمذ على السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ ، ثمّ عاد إلى طهران مواصلاً مسيرته العلميّة .

له من المؤلّفات :

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف : ٢٠٢/١ .

(٢) الترجمة مستقاة من موقعه على الانترنت .

١ ـ المحجّة العظمى في شرح العروة الوثقى ، تقريراً لأبحاث السيّد السبزواري ﵀ ، وقد طُبع منه مجلدٌ في الصلاة ، مزيّناً بتقريض من السيّد ﵀ ، جاء فيه : « وبعد ، فإنّ جناب العالم الفاضل ، عماد الأعلام ، ثقة الإسلام والمسلمين ، الحاج السيّد جمال الدين الاسترآبادي ـ دامت تأييداته ـ قد جمع جملة وافية من أبحاثنا الفقهيّة والأُصوليّة ، وقد رأيت ماضبطه وجمعه ، فرأيته قد أتعب فيه نفسه ، وسهر ليله . . . » .

٢ ـ شرح الكفاية (١ ـ ٢) .

٣ ـ المحصول في فنّ الأُصول[1] .

٢٠ ـ سماحة الشيخ منصور البيّات القطيفي ﵀ : عالم جليل ، فاضل كامل ، كاتب متتبّع ، شاعر مقل ، من علماء القطيف وفضلائها ، يعيش سلوكاً خاصّاً في ورعه وتقواه وتعلّقه الشديد بمأساة الحسين ﵇ ، يحكي به سلوك قدماء علماء الطائفة .

ولد في القطيف عام ١٣٢٥هـ ، وأخذ فيها مقدّمات العلوم وقسماً من السطوح على يد بعض علمائها ، كالشيخ عليّ الجشي ، والشيخ فرج العمران ﵏ ، ومن ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف ، وهناك أتمّ السطوح على يد بعض علمائها ، كالسيّد محمّد جمال الهاشمي ، والسيّد محمّد حسين الحكيم ﵏ ، وحضر الأبحاث العليا في الفقه والأُصول عند السيّد الحكيم ، والسيّد الخوئي والسيّد السبزواري ﵏ ، واختصّ بهذا الأخير حتّى أُجيز منه بالاجتهاد .

وهو مع ذلك مكفوف البصر ، إلّا أنّ عزمه وإصراره وجدّه واجتهاده صهره في العلم والمعرفة ، بين درس وتدريس ، وبحث وتأليف ، حتّى رجع إلى مسقط رأسه عالماً جليلاً عام ١٤٠٠هـ ، واشتغل بالإمامة والجماعة والوعظ والإرشاد

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف : ١/١١٨ .

والهداية والتأليف .

له من المؤلّفات :

موسوعة (النظرات) ، وهي موسوعة علميّة متضمّنة للكثير من البحوث الجيّدة منها :

١ ـ النظرة الفقهيّة (١ ـ ٣).

٢ ـ النظرة الحسينيّة .

٣ ـ النظرة العلويّة .

٤ ـ النظرة النفسيّة .

٥ ـ النظرة الرشيدة .

٦ ـ النظرة الأزليّة (١ ـ ٣).

٧ ـ النظرة الروحانيّة .

٨ ـ النظرة الميثاقيّة .

٩ ـ النظرة التوحيديّة .

١٠ ـ النظرة العدليّة (١ ـ ٢).

١١ ـ النظرة الشرعيّة في العلقة الرحميّة .

١٢ ـ النظرة العلميّة في دفع الإشكال عن النظرة الحسينيّة .

١٣ ـ النظرة الظالميّة .

وما زال يثري القطيف بعطائه الروحي والمعرفي ، حتّى انتقل إلى جوار ربّه عام ١٤٢٠هـ، فشيّع تشييعاً باهراً ، ودفن في مقبرة القطيف العامّة المعروفة بالحباكة .

وقد رثيته بقصيدة ، كما أرّخته بقولي :

إلى النـعيم والجـنان العـالية ... هاجر سـيّد العـيون البـاكـية

لمن بكى على الحسين لحظةً ... بـيت بـجنّة الخـلود البـاقية

فكم لمن بكاه طول عمره من البيوت والقصور الزاهية
بدمعه (المنصور) أرخه: **نجا لصدره ضمّ الحسينُ باكيه**

٢١ ـ سماحة السيّد جلال الدين اليزدي: من مبرزي تلامذة السيّد السبزواري ﷺ، ومقرّري أبحاثه الشريفة، وقد طَبَع تقريراته حول كتاب الخمس تحت عنوان «المحجّة العليا في شرح العروة الوثقى» في مجلّد واحد، يتصدّره تقريض من أستاذه السبزواري ﷺ جاء فيه: وممّن شملته العناية، السيّد السند، والثقة المعتمد، ثقة الإسلام، الحاج السيّد جلال الدين الموسوي اليزدي (دامت تأييداته)، فضبط ما نقّحه العبد القاصر بين أوراق ذخائره، ثمّ أبرزه للطبع والنشر، جزاه الله تعالى خيراً، ورفعل له ذكراً.

٢٢ ـ سماحة الشيخ طالب الخليل ﷺ: المولود في الغبيري من ضواحي بيروت عام **١٣٦١**هـ، ومنها هاجر إلى النجف الأشرف عام **١٣٨٨**هـ، فأخذ فيها مقدّمات العلوم على يد ثلّةٍ من أساتذتها، كالسيّد جمال الخوئي والسيّد محيي الدين الغريفي والشيخ محمّدتقي الأيرواني والسيّد محمّد حسين الحكيم ﷺ، ثمّ حضر الدراسات العليا عند السيّد الشهيد الصدر والسيّد نصر الله المستنبط والسيد السبزواري والسيّد الخوئي ﷺ، حتّى اعتقل عام **١٤١١**هـ فانقطعت أخباره في سجون طاغية العراق، وقضى فيها شهيداً.

وله من الكتابات:

١ ـ وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ شرح الباب الحادي عشر[1].

---

(١) علماء ثغور الإسلام: ٤٠٨/١.

٢٣ ـ سماحة الشيخ نور الدين الواعظي ﷺ: من أجلّاء العلماء، وفضلاء الطلاب، ورع، صالح، خيّر.

ولد في الكاظميّة عام **١٣٥٢**هـ، وفيها أخذ مقدّمات العلوم، وفي سنة **١٣٧٦**هـ هاجر إلى النجف الأشرف، فتتلمذ على السيّد حسن البجنوردي، والشيخ حسين الحلّي، والميرزا محمّدباقر الزنجاني، والسيّد عبدالأعلى السبزواري، والسيّد محمود الشاهرودي، والسيّد أبو القاسم الخوئي ﷺ.

كان مجدّاً في دراسته، إلّا أنّه أُصيب بالسرطان، فكابد أشدّ الآلام حتّى توفّي في الرابع عشر من شهر ذي القعدة عام **١٣٩١**هـ.

من مؤلّفاته:

١ ـ حكم الأواني.



٢ ـ حرمة الغناء.

٣ ـ العلم الإجمالي.

٤ ـ تقريرات أبحاث أساتذته[١].

٢٤ ـ سماحة السيّد محمّدتقي الحكيم الموسوي: المولود عام **١٣٤٥**هـ، عالم فاضل، أديب كامل، مؤلّف متتبّع، هاجر إلى النجف الأشرف، وتتلمذ على يد الأعلام الثلاثة: الحكيم والخوئي والسبزواري ﷺ، ثمّ عاد إلى مدينة الأهواز وتصدّى للبحث والتدريس، ومنها انتقل إلى طهران مواصلاً مسيرته العلميّة والإرشاديّة.

وقد أنتج كثيراً من المؤلّفات، منها:

١ ـ فلسفه واسرار حجّ.

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٣/١٣٢٠.

٢ ـ حقوق زن در اسلام.

٣ ـ اربعين حديث[١].

٢٥ ـ سماحة السيّد محمّد الحسيني الغروي القمشهي: عالم فاضل، كاتب متتبّع. ولد في النجف الأشرف عام ١٣٥٩هـ، ونشأ وترعرع ودرس بها، وأكمل المقدّمات والسطوح، ثمّ دخل البحوث العليا، فحضر على السيّد الخوئي والسيّد محمّدباقر الصدر والسيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ، واشتغل بالبحث والتدريس، وفي عام ١٣٩٥هـ خلال العاصفة السياسيّة العارمة ترك النجف الأشرف وتوجّه إلى لبنان وأقام في مدينة صور، واشتغل بالإمامة والوعظ والتأليف والإرشاد، وقام مقام المجاهد العلم السيّد موسى الصدر[٢].

له من المؤلّفات: الله والمادة، المرأة في الفقه الإسلامي، التشيّع مذهب أهل البيت ﷺ، مع علماء النجف الأشرف؛ إلّا أن كتابه الأخير قد اشتمل على الكثير من الاشتباهات، وتعدّى فيه المترجم على عدّة من أعلام الطائفة، لاختلافه معهم في التوجّه السياسي، علماً بأنّهم ينطلقون من منطلقات اجتهاديّة خاصّة، وهي بلا ريب معذرة لهم بين يدي الله تعالى كما هي معذرة لمن يخالفهم الرأي.

٢٦ ـ سماحة الشيخ عبدالله المحمّدي الكلامي: فاضل جليل، عالم متتبّع، طيّب المعشر، حسن الحديث.

ولد عام ١٣٦٨هـ، وتتلمذ على الشيخ محمّد عليّ المدرس الأفغاني، والشيخ مجتبى اللنكراني، والسيّد نصرالله المستنبط، والسيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ، وكان معروفاً بالفضيلة والمعرفة، ترك النجف الأشرف إثر المحنة السياسيّة،

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١/ ٤٣٤.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٢/ ٩١٦.

وهاجر إلى مدينة قم مواصلاً الدرس والتدريس والبحث والتأليف[١].

٢٧ ـ سماحة الشيخ محمّدحسن الاصطهباناتي: عالم فاضل، جليل، ورع، ثقة، صالح، من أهل الفضل والكمال والتحقيق والتتبّع والتأليف.

ولد في مدينة قم عام ١٣٥٠هـ، وهاجر بصحبة والده عام ١٣٥٥هـ إلى النجف الأشرف، وقرأ عند والده وغيره من فضلاء عصره، فأكمل المقدّمات بتفوّق، وحضر الأبحاث العالية، فتتلمذ على السيّد عليّ البهشتي، والشيخ محمّدرضا المظفّر، والسيّد الخوئي، والسيّد أحمد الخوانساري، والسيّد الحكيم، والسيّد السبزواري ﵏، واستقلّ بالبحث وعاد إلى طهران عام ١٤٠٠هـ[٢].

٢٨ ـ سماحة الشيخ أسد الله الدهاقاني الأصفهاني: كاتب فاضل، كثير البحث والمطالعة، درس في النجف الأشرف عند علمائها، أمثال: السيّد الخوئي، والسيّد السبزواري، والسيّد المستنبط ﵏.

من مؤلّفاته: أبوذر الغفاري، الفهارس الفنيّة لشرح ابن أبي الحديد، وغيرهما[٣].

٢٩ ـ سماحة السيّد مرتضى النجومي الكرمانشاهي: عالم فاضل، صالح تقيّ، ذو حظّ وافر من الفنون الجميلة.

ولد في كرمانشاه، وأخذ مقدّمات العلوم والسطوح من فضلاء عصره، وفي عام ١٣٦٩هـ هاجر إلى النجف الأشرف، وأخذ عن الشيخ عليّ الفلسفي، والسيّد علي البهشتي، والسيّد الروحاني، والسيّد السبزواري، والشيخ الزنجاني، والسيّد

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١١٦٥/٣.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١٢٨/١.

(٣) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١٢٠/١.

الشاهرودي، والسيّد الحكيم، والسيّد عبدالهادي الشيرازي، حتّى أُجيز بالاجتهاد من قِبل السيّد السبزواري ﷺ، ثمّ اشتغل بالبحث والتأليف والكتابة.

وفي عام ١٣٩٠هـ عاد إلى وطنه، وتصدّى للوظائف الشرعيّة، وواصل عمله الفنّي والعلمي[١].

٣٠ـ سماحة السيّد محمّد الخرسان الموسوي (دام موفّقاً): عالم فاضل، من أجلاء طلاب الحوزة العلميّة.

ولد في النجف الأشرف عام ١٣٦٤هـ، وتتلمذ على يد الشيخ مجتبى اللنكراني، والسيّد عبدالأعلى السبزواري، والسيّد نصر الله المستنبط ﷺ، وكان معروفاً بالعلم والفضيلة والمعرفة، ترك النجف على إثر المحنة السياسيّة، وهاجر إلى مدينة قم المقدّسة مواصلاً الدرس والتدريس والبحث والتأليف[٢].

٣١ـ سماحة السيّد محمّد السبزواري المختارشاهي: عالم فاضل، خطيب جليل، شاعر حسن السيرة، متواضع، أخذ مقدّمات العلوم في سبزوار وقم المقدّسة، ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف، وواصل دراسته في الفقه والأُصول، وحضر على السيّد الخوئي، والسيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ.

ثمّ سافر إلى الباكستان، واشتغل بالوعظ والإرشاد والتوجيه[٣].

٣٢ـ سماحة السيّد جواد آل شبّر ﷺ: عالم جليل، من ذرّيّة السيّد الفقيه السيّد شبّر البحراني، ورث من جدّهِ وأبيه السكنى في منطقة (دبي) أداءً للوظيفة الشرعيّة، وكان ﷺ من تلامذة السيّد السبزواري ﷺ المجازين من قِبله بالاجتهاد.

---

(١) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١٢٨٢/٣.

(٢) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ٤٩٢/٢.

(٣) معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف: ١١٧٩/٣.

٣٣ ـ سماحة السيّد أبوالحسن الزارعي ﷺ: وُلد في قرية مزارعي في محافظة «بوشهر» عام ١٣٤٩هـ، وتوفّي فيها عام ١٤١٤هـ.

قرأ المقدّمات في شيراز، ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف، وقرأ عند بعض أساتذتها، كالشيخ محمّد تقي الجعفري والسيّد السبزواري ﷺ.

ثمّ استقرّ في قم المقدّسة مدّة من الزمان، فبرزت فيها نشاطاته الأدبيّة والعلميّة، وقد تمخّض ذلك عن عدّة من المؤلّفات:

١ ـ سيرة المعصومين ﷺ.

٢ ـ رسائل في الفقه.

٣ ـ دوافع قيام الإمام الحسين ﷺ وشهادته[١].

٣٤ ـ سماحة السيّد محمّدرضا المدرّسي الحسيني ﷺ: المولود في مشهد المقدّسة عام ١٣٥٠هـ تقريباً، ومنها هاجر إلى النجف الأشرف، فأخذ السطوح العليا عند أساتذتها، ثمّ حضر أبحاث الخارج عند السيّدين: الخوئي والسبزواري ﷺ واستفاد منهما، وبعدها عاد إلى مسقط رأسه عام ١٣٨٩هـ، وأقام فيها إماماً للجماعة ومرشداً ومبلّغاً، حتّى اختاره الله تعالى إلى داركرامته عام ١٣٩٨هـ[٢].

٣٥ ـ سماحة السيّد نسيم عطوي (حفظه الله): المولود في منطقة (مركبا) عام ١٣٥٧هـ، وقد ابتدأ بطلب العلم عام ١٣٧٧هـ على يد الشيخ حسين معتوق والسيّد محمّدحسن فضل الله، ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف ١٣٨٩هـ فحضر السطوح العالية عند السيّد عبدالصاحب الحكيم والسيّد محمّدحسين الحكيم والشيخ محمّد تقي

---

(١) موسوعة مؤلّفي الإماميّة: ٥٦/٢.

(٢) مشاهير مدفون در حرم رضوي: ٢٨١.

الأيرواني ﷺ، ثمّ حضر دروس الخارج عند السيّدين العلَمين الخوئي والسبزواري ﷺ إلى أن عاد إلى لبنان عام ١٤٠٠هـ فأسّس في مقرّ ولادته (المعهد الشرعي الجعفري)، وعلى يديه تخرّج العشرات من طلبة العلوم الدينيّة[١].



(١) علماء ثغور الإسلام: ٥٩٨/١.

مؤلّفاته

الحديث عن مؤلّفات السيّد السبزواري ﷺ ومصنّفاته حديث عن فكر ثاقب، وعبقريّة نادرة، وعلميّة واسعة.

الحديث عن مؤلّفاته: حديث عن «الفقه» في قمّة حركته الموسوعيّة، وحديث عن «الأُصول» في منعطفه الخطير وصياغته الحديثة.

فالأفق الواسع، والفكر الشمولي الموسوعي؛ اللذان كان يتمتّع بهما السيّد السبزواري ﷺ انعكسا على سلسلة مؤلّفاته المتعدّدة والمتنوّعة[1].

١ ـ مؤلّفاته على صعيد الفقه

➢ **مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام**[2]: وهو شرح استدلالي على كتاب

---

(١) والأهمّ من كلّ ذلك: أنّ مؤلّفاته الشريفة قد توّجت برضا أهل البيت ﷺ ـ الذين يرضى الله لرضاهم ـ حيث يُحكى أنّ أحد محبّيه رآه في المنام بعد وفاته على أحسن حال، فطلب منه أن يحدّثه عمّا جرى له في الليلة الأُولى من دفنه، فقال له: «كنت جالساً في غرفتي فدخل عليَّ أمير المؤمنين ﷺ، وكانت مؤلّفاتي حولي، فأخذ واحداً منها فورّقه وتصفّحه وقال: نِعم ما كتبت، فقال له صاحب الرؤيا: إذا سألني أحد عن مؤلّفاتك وكتبك، هل أقول: إنّها مرضيّة عند الإمام الحجّة (عج)؟ فقال ﷺ: «إنّ أمير المؤمنين ﷺ قال: إنّها حسنة». جمال السالكين: ٢٤.

(٢) قال في الذريعة ما نصّه: «(معين الفقيه) فقه استدلالي مستخرج من الأخبار للحاج السيّد عبدالأعلى ابن السيّد عليّ رضا ابن السيّد عبدالعلي الموسوي السبزواري، المولود ١٣٢٩هـ.

في مجلّدات:

⇦

« العروة الوثقى » لفقيه عصره السيّد اليزدي ﷺ ، مع إضافة المتن وشرحه لبعض الأبواب الناقصة . يقع في ثلاثين مجلّداً ، وقد طبع في النجف ولبنان ، وأُعيدت طباعته في قم المقدّسة .

➢ **تعليقة على جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**: للشيخ محمّدحسن الجواهري ﷺ ، وهو غني عن التعريف ، تقع في مجلّدات كثيرة ، المعدّ منها حالياً للطبع باب (النكاح) في أربعة مجلّدات ، والبقيّة قيد الإشراف والتحقيق .

➢ **تعليقة على « الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة »**: للفقيه المحدّث الشيخ يوسف البحراني ﷺ ، وهو من أشهر الموسوعات الفقهيّة الاستدلاليّة عند الشيعة .

➢ **تعليقة على « مستند الشيعة »**: للمولى الشيخ أحمد النراقي ﷺ[1] .

➢ **أحكام العِدد في الوطء المحرّم**

➢ **التقيّة**

⇨ ١ ـ الطهارة .

٢ ـ الصلاة .

٣ ـ الصوم إلى آخر الحجّ .

٤ ـ المعاملات إلى الصلح ، وشبيه لشرح (العروة الوثقى) .

بلغت الفروع التي ذكر أدلّتها من الأخبار إلى اثني عشر ألف فرع ، إلى هذه السنة (١٣٧٢هـ) » . انتهى . الذريعة : ٢١/٢٨٥ .

والظاهر أنّ « معين الفقيه » هو الإسم الأسبق للكتاب المذكور .

(١) نُقل عن سماحة آية الله السيّد محمّد السبزواري ﷺ بأنّ والده المقدّس ﷺ كان لا يقرأ كتاباً إلّا والقلم بين يديه للنقد والتعليق .

- **جامع الأحكام الشرعيّة**: وهو عبارة عن رسالته العمليّة، وتقع في مجلّد واحد.
- **تعليقة على «العروة الوثقى»**: للسيّد محمّدكاظم اليزدي ﷺ، وتقع في مجلّدين.
- **تعليقة على «وسيلة النجاة»**: للسيّد أبي الحسن الأصفهاني ﷺ، وتقع في مجلّدين.
- **تعليقة على «منهاج الصالحين»**: للسيّد محسن الحكيم ﷺ، تقع في مجلّدين.
- **مناسك الحجّ**

٢ ـ مؤلّفاته على صعيد الحكمة والكلام:

- **تعليقة على كتاب «الحكمة المتعالية»**: المعروف بـ(الأسفار) لصدر المتألّهين الشيرازي ﷺ، المعروف بالملّا صدرا، وقد كتب السيّد السبزواري ﷺ هذه التعليقة في مرحلة تدريسه لهذا الكتاب الفلسفي العميق، الذي يعدّ من أعقد الكتب الفلسفيّة.
- **إفاضة الباري في نقض ما كتبه الحكيم السبزواري**: وقد كتب السيّد السبزواري ﷺ هذا الكتاب لنقض بعض المباني الفلسفيّة التي أسّسها وبنى عليها الفيلسوف الملّا هادي السبزواري ﷺ.
- **تعليقة على الكتاب الدراسي المشهور «المنظومة»** للملّا هادي السبزواري ﷺ، ويحتمل أن يكون هو نفس الكتاب السابق.
- **لباب المعارف**: وهو كتاب كلامي في خصوص الأُصول الاعتقاديّة الخمسة[1].

---

(١) قال عنه صاحب الذريعة ﷺ ما نصّه: «لباب المعارف في الأُصول الخمسة الدينيّة ⇦

٣ـ مؤلّفاته على صعيد الأُصول

➢ **تهذيب الأُصول**: دورة أُصوليّة كاملة تقع في مجلّدين، وقد طبع لعدّة مرّات في النجف الأشرف ولبنان وقم المقدّسة.

٤ـ مؤلّفاته على صعيد التفسير:

➢ **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**: يقع في ثلاثين مجلّداً تقريباً، طبع منه إثنا عشر جزءً، وبقيّة المجلّدات لا زالت قيد الإشراف والتحقيق[1].

➢ **حاشية على تفسير «الصافي»** للفيض الكاشاني ﵀.

٥ـ مؤلّفاته على صعيد الحديث والرجال:

➢ **حاشية على «بحار الأنوار ١ ـ ١١٠»** للشيخ المجلسي ﵀.

➢ **تعليقة على «الوافي»** للفيض الكاشاني ﵀.

➢ **اختلاف الحديث.**

➢ **تعليقة على إسناد «وسائل الشيعة ١ ـ ٢٠»** للحرّ العاملي ﵀.

➢ **مباحث مهمّة فيما تحتاج إليه الأُمّة** (مجهول الموضوع).

⇦ من التوحيد إلى آخر المعاد والخلود والجنّة والنّار... يقع في مجلّدين متوسّطين بخطّه». الذريعة: ٢٨١/١١٨.

(١) ذكر ﵀ أنّه قبل عدّة سنوات رأى الرسول الأعظم ﷺ في عالم الرؤيا، وقد أعطاه نسخة من المصحف الشريف، قائلاً له: «خذ مواهب الرحمن».

فسمّى تفسيره «مواهب الرحمن» تيمّناً بهذه الرؤية المباركة.

آراؤه العلميّة وإبداعه الفكري

« العقليّة المبدعة » هي العقليّة المتحرّكة في ميادين التغيير ، وهي العقليّة ذات الروح التجديديّة الساخطة على التقليد ، والطامحة إلى الرقيّ والتقدّم .

وللإبداع ميادينه ، وللابتكار مجالاته ، فمن مبدع في الميدان التأسيسي ، إلى مبدع في ميدان النقض والإبرام .

ومن مبدع في الصياغة الفنيّة لبنيّة الأُطروحة إلى مبدع في استخلاص النتيجة من المقدّمات . ومن مبدع في مجال « التحقيق » إلى مبدع في مجال « التدقيق » .

فلكلّ ميدان إبداعه ، ولكلّ إبداع ميدانه .

ومن أُولئك العباقرة المبدعين ، الذين حملوا راية التجديد ، وعاشوا روح الابتكار : السيّد السبزواري ﷺ .

وللتعرّف على أبعاد « العقليّة المبدعة » عند السيّد السبزواري ﷺ نسلّط الضوء على بعض آرائه العلميّة في ميادينها المختلفة[1] .

أوّلاً : في الميدان الفقهي :

من آرائه الفقهيّة في هذا الميدان : رأيه بأنّ معظم القواعد الفقهيّة قواعد عقلائيّة ، كقاعدة السلطنة (النّاس مسلّطون على أموالهم) ، وقاعدة الضرر (لا ضرر ولا ضرار) ، وقاعدة الميسور (لا يسقط الميسور بالمعسور) .

وعليه : فلا حاجة للإسهاب في البحث عن طرقها وإسنادها ، بعد فرضها قواعد

---

(١) ومن خلال هذا البيان يتّضح بأنّ الإبداع لا يعني الابتكار دائماً ، وعليه فليس المراد من نسبة بعض هذه الآراء إلى السيّد ﷺ كونه مؤسّساً لها ومبتكراً .

عقلائيّة كشف عنها الشارع وأمضاها وأقرّها.

وتقرأ هذه الأُطروحة في الكثير من المواضع في كتابيه (مهذّب الأحكام) و(تهذيب الأُصول) ككلامه ـ مثلاً ـ حول قاعدة «الضرر» الذي يقول فيه: «إنّها من القواعد العقلائيّة الدائرة بين النّاس في جميع الملل والأديان؛ إذ السلطة على النفس والعِرض والمال، ممّا اتّفقت عليه آراء العقلاء، والتنقيص في كلّ واحد منها من المقبّحات لديهم، ويؤاخذون مَن تصدّى لذلك ويلومونه ويعاقبونه، وعلى ذلك يدور نظام معاشهم.

فهذه القاعدة من صغريات أصالة احترام النفس والعِرض والمال، التي هي من أهمّ الأُصول النظاميّة العقلائيّة، بل الضرر من الظلم المنفي بالأدلّة الأربعة، فلا وجه لإتعاب النفس في سند حديث نفي الضرر والضرار، وفي وجه دلالته»[1].

ثانياً: في الميدان الأُصولي:

ومن آرائه الأُصوليّة في هذا الميدان: رأيه في وجود التصويب الجزئي.

ومحصّل هذا الرأي: أنّ في الشريعة أحكاماً كلّيّة، تعبّر عن قوانين عامّة، ولا شكّ في وجود واقع لهذه القوانين كامن في ملاكاتها من المصالح والمفاسد، كالأحكام العامّة للعبادات والمعاملات، وفي هذا المورد يقول بالتخطئة.

ولكن في الأحكام الجزئيّة، كأحكام الشكّ والسهو، لا دليل على وجود واقع في عالم التشريع وراء هذه الأحكام؛ لعدم الدليل على انبعاثها عن مصالح ومفاسد واقعيّة. وبالتالي: فلا مانع من القول بأنّها تركت لما تؤدّي إليه الأفهام من النصوص الشريفة[2].

---

(١) تهذيب الأُصول: ٢/٢١٤.

(٢) شذرات من حياة السيّد السبزواري ﷺ: ٤.

ثالثاً: في الميدان الفلسفي

رأيه في عدم وجود الوجود الرابط ؛ خلافاً لصاحب المنظومة الحكيم السبزواري ﷺ القائل :

إنّ الوجود رابط ورابطي ثمّت نفسي فهاك واضبط

ولأستاذه المحقّق الأصفهاني الكمپاني ﷺ الذي تبنّى وجود الوجود الرابط .

مستدلّاً ﷺ على ذلك : بأنّ الوجود مساوق للتشخص ، والوجود الرابط محض ربط لا نفسيّة له وراء طرفيه ، وما لا نفسيّة له لا تشخص له ، وما لا تشخص له لا وجود له .

فالمتحصّل : أنّ الوجود الرابط ليس بوجود ، اللّهمّ إلّا أن يراد بالتشخّص ما هو أعمّ من التشخّص النفسي والتشخّص التبعي[(١)] .

ومن آرائه الفلسفيّة أيضاً : عدم تسليمه بلزوم السنخيّة بين العلّة والمعلول ـ والمعبّر عنها بقاعدة السنخيّة ـ بشكل مطلق ؛ إذ هو ﷺ يفصّل بين العلل الطبيعيّة وبين الفاعل المختار سبحانه وتعالى ، فيرى أنّ السنخيّة بين العلّة والمعلول إنّما تلزم في العلل الطبيعيّة فقط ، وأمّا بالنسبة إلى الخالق القادر فهي محلّ منع ؛ لأنّه تبارك وتعالى محيط بكلّ شيء ، ويفعل ما يشاء .

وقد أكّد على هذا الرأي في غير موضع من تفسيره المبارك ، ومن جملتها قوله ﷺ : «المعروف بين جمع من الفلاسفة لزوم السنخيّة بين العلّة والمعلول ، فالمباين من كلّ جهة لا يمكن أن يصير علّة لمباينه كذلك ، كما انّ المباين من كلّ جهة لا يصدر عن المباين كذلك ، وبنوا عليه مباحث فلسفيّة وعرفانيّة .

ولكن ظاهر قوله تعالى : ﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وغيره من الآيات المباركة الكثيرة

---

(١) تهذيب الأُصول : ١/١٨ .

ـ التي يأتي بيانها ـ ينفي ذلك، فإنّ موجد العوالم ومربّيها لا سنخيّة بينه وبينها، إذ لا سنخيّة بين الممكن بالذات والفقير المحض، وبين الواجب بالذات والغني المطلق كذلك[1].

رابعاً: في الميدان الكلامي:

من آرائه الكلاميّة في هذا المضمار: رأيه بأنّ صفات الذات المقدّسة يجب تفسيرها بالمعاني العدميّة.

ومحصّل هذا الرأي: أنّ ذات الحقّ جلّ وعلا فوق ما يتعقّله الإنسان من المعاني، وبالتالي فالصفات المقدّسة أسمى من تحديدها بالعقل البشري القاصر، لملاحظة العينيّة بين الذات الأقدس والصفات «صفاته عين ذاته».

وعليه: فليس من المناسب تفسيرها إلّا بالمعاني العدميّة، فيقال في تفسير القدرة ـ مثلاً ـ: هي عدم العجز، ويقال في تفسير العلم: هو عدم الجهل، وهكذا.

وتقرأ هذه الأُطروحة في عدّة مواضع من تفسيره (مواهب الرحمن)، ككلامه ـ مثلاً ـ حول الآية المباركة: ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، حيث يقول في بيان الواسع والسعة: «وليس للعقول تحديدها بما تتعقّلها، فهو جلّت عظمته واسع في جميع شؤونه وجهاته، وفوق ما نتعقّله من معنى السعة، ولهذا كان الأوْلى تحديدها بالمعنى السلبي، أي: لا يحدّه ولا يعجزه شيء، وإنّما التحديد يكون في المتعلّق، ولا نقص في العقل إن عجز عن درك ذلك، بل كمال العقل الاعتراف بالتقصير والعجز أمام عظمته وكبريائه»[3].

---

(١) مواهب الرحمن: ٦١/١.

(٢) البقرة ٢: ٢٤٧.

(٣) مواهب الرحمن: ١٢٣/٤ ـ ١٢٤.

وفي موضع آخر يقول: «وكما لا مطمع للممكن في درك الذات الأقدس الربوبي، كذلك لا مطمع له في درك حياته جلّت عظمته، وهي عين ذاته، فلابدّ وأن تعرّف الحياة فيه بمعنى عدمي، أي: عدم الموت؛ إذ لا يمكن الإحاطة بحقيقتها فيه تبارك وتعالى، لفرض أنّها عين ذاته الأقدس»[1].

خامساً: في الميدان الحديثي:

من آرائه في ميدان «علم الحديث»: رأيه في «أصول الحديث».

ومحصّل هذا الرأي: أنّ علماء هذا الفنّ اصطلحوا على تقسيم خبر الواحد باعتبار اختلاف حال رواته إلى أقسام أربعة، وأطلقوا عليها «أُصول الحديث»، والأقسام الأربعة هي:

١ ـ **الصحيح:** وهو ما اتّصل سنده إلى المعصوم عليه السلام بنقل العدل الإمامي.

٢ ـ **الموثّق:** وهو ما دخل في طريقه مَن نصّ الأصحاب على توثيقه مع فساد عقيدته.

٣ ـ **الحَسَن:** وهو ما اتّصل سنده إلى المعصوم بإمامي ممدوح، من غير نصّ على عدالته.

٤ ـ **الضعيف:** وهو ما يقابل الأقسام الثلاثة[2].

إلّا أنّ السيّد السبزواري قدس سره لم يرتض هذا التقسيم، وناقشه في حديثه عن اعتبار خبر الواحد الموثوق به وعدمه، وأشار إلى أنّ النزاع بينهم في الاعتبار وعدمه، ما هو إلّا نزاع صغروي، وليس نزاعاً كبروياً؛ لأنّ الوثوق والاطمئنان العقلائي معتبر عند الجميع.

---

(١) مواهب الرحمن: ٤/٢٤٤.

(٢) أُصول الحديث وأحكامه في علم الدراية: ٤٣.

وبالتالي : فالنزاع بينهم ينحلّ بالنهاية إلى أمرين :

الأوّل : خبر الواحد ، هل هو موجب للوثوق والاطمئنان أم لا ؟

الثاني : ما هو القسم المولّد للاطمئنان من الأقسام الأربعة ؟

قال ﷺ : « فالمحقّقون يقولون : إنّ مجرّد الوثوق بالصدور من أي جهة حصل يكفي ، والحقّ معهم ، وبعض القدماء يقول باعتبار العلم بالصدور ، فإن كان مرادهم به العلم العادي الذي يشمل مطلق الوثوق والاطمئنان ، فلا نزاع في البين أصلاً ، وإلّا فلا دليل لهم على مدّعاهم ، بل الدليل على الخلاف ، كما مرّ.

من ذلك يظهر أنّه لا وجه لتقسيم الخبر إلى الأقسام الأربعة : الصحيح ، والموثّق ، والحسن ، والضعيف ، المعروفة »[1].



سادساً : في الميدان التفسيري :

رأيه في أسباب النزول والنصّ المفسّر ، ومحصّله : أنّ تخصيص الآيات القرآنيّة المباركة بزمن النزول لا يلتقي مع الهدف القرآني في واقعه الشمولي ؛ لأنّ الآيات المباركات «كلّيات» تنطبق على «مصاديقها» في جميع الأزمنة ، فلا وجه لتخصيصها بزمان نزولها ، أو بفرد دون آخر.

والكلام هو الكلام في الروايات الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السلام المفسّرة للآيات القرآنيّة ببيان بعض المصاديق ، فهي ليست من باب التخصيص ، بل هي من باب تطبيق الكلّي على أفراده . وهذا طبعاً بحسب الأعمّ الأغلب ، لوضوح أنّ بعض الآيات القرآنيّة واردة مورد التحديد ، كآية الولاية وآية التطهير ونحوهما ، فلا يمكن التعدّي عن سبب نزولها[2].

---

(١) تهذيب الأصول : ٢/١٠٣.

(٢) مواهب الرحمن : ١/٧ و : ١٢/٧٠.

سابعاً : في الميدان الأدبي :

رأيه ﷺ في أنّ إسميَ الإشارة : « هذا » و« ذلك » لا يدلّان على القرب والبعد ، كما هو المسلّم عند النحاة والبلاغيّين ، حيث ذكروا بأنّ « ذلك » اسم إشارة للبعيد ، بينما « هذا » إسم إشارة للقريب ، وقد تستعمل « ذلك » للإشارة للقرب ، ولكن بنحو من العناية والمجاز .

ووجه إنكاره ﷺ لهذه المسلّمة الأدبيّة يعود لأُمور ثلاثة :

الأوّل : إنّ النحاة إن أرادوا بدلالة الإسمين المذكورَين على القرب والبعد الدلالة المجازيّة ، فإنّ الأصل ـ أي : أصالة الحقيقة ـ ينفي ذلك .

الثاني : إنّهم إن أرادوا بدلالة الإسمين المذكورين على القرب والبعد الدلالة الوضعيّة ، فإنّ الأصل أيضاً ينفي ذلك : والمراد من الأصل : أصالة عدم ملاحظة الخصوصيّة الزائدة على الإشارة في الوضع والموضوع له .

الثالث : إنّهم إن أرادوا بدلالة الإسمين المذكورَين على المعنيين المذكورين الدلالة بحسب الاستحسان ، فهو مخالف لما ثبت عندهم من أنّ اللغة لا تثبت بالاستحسان .

وعلى ذلك : فإمّا أن يلتزم النحاة بأنّ أسماء الإشارة لا فرق بينها في الدلالة على القرب والبعد ، وإمّا أن يلتزموا بوجود الفرق بينها ، ولكن لا بحسب الوضع ؛ لأنّه غير مسلم حتّى فيما بينهم ، بل بحسب الاستعمال ، وهو صحيح في الجملة ، ولكنّ المحقّقين منهم لا يقولون بصحّة أخذ ما حصل من الاستعمال في الموضوع له[1] .

---

(١) مواهب الرحمن : ٦٩/١ .

الجانب الفقهي

نظراً لما يشغله علم الفقه من مكانة كبرى في المنظور الإسلامي، وانعكاساً لموقعيّته المبرزة ما بين سلسلة العلوم الإسلاميّة، فقد أولته الحوزات العلميّة عناية فائقة، حتّى أصبح الرحى الذي تدور عليه، والمحور الذي تتوجّه إليه.

ومن هنا أيضاً كانت انطلاقة الفقهاء الأجلّاء لبذل أقصى قدراتهم وطاقاتهم من أجل تطوير الحركة الفقهيّة في واقع الفكر الشيعي الإسلامي، وقد ساعدهم على ذلك فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، بخلاف غيرهم من أصحاب المذاهب الذين آثروا إغلاق ذلك الباب، وفتح باب آخر لا يعرف إلّا الجمود والتعصّب، ممّا أدّى إلى انعدام الوعي الفقهي على مستوى الواقع التشريعي.

وعندما نقوم بملاحظة خاطفة لمسيرة الحركة الفقهيّة في واقع الفكر الشيعي ابتداءً بشيخ الطائفة ﵀ وانتهاءً بالثلّة المتبقّية من الفقهاء ﵏، نجد أنّ هناك عدداً من الفقهاء استطاعوا أن يتركوا بصمات واضحة على المسيرة التطوّريّة لعلم الفقه، أمثال صاحب الجواهر، والشيخ الأنصاري، والسيّد الطباطبائي صاحب الرياض، والشيخ صاحب الحدائق، والسيّد الحكيم، والسيّد الخوئي، وغيرهم من أساطين العلم ﵏.

ومن أُولئك العظماء الذين ساهموا في إثراء الحركة الفقهيّة وتطويرها: فقيه عصره السيّد السبزواري ﵀ الذي بذل نفسه الطاهرة طوال عمره الشريف من أجل دعم الحركة الفقهيّة والمساهمة في تطويرها.

فقد قرأ كتاب جواهر الكلام البالغ (٤٢) مجلّداً من البداية حتّى النهاية ستّ مرّات كاملات، كما قرأ كتاب بحار الأنوار البالغ (١١٠) مجلّداً من البداية حتّى النهاية مرّتين[1]، وقرأ أيضاً كتاب القضاء من الوسائل ستّين مرّة.

وقام بتدريس الفقه على مستوى البحث الخارج طوال خمسين سنة تقريباً، وذلك بعد أن قضى من عمره الشريف خمسة وعشرين سنة في دراسته ودراسة مقدّماته. واستطاع من خلال الخمسين عاماً المتقدّمة أن يباحث ثلاث دورات فقهيّة، وهو أمر تفرّد به ولم يتسنّى لغيره، وذلك لعلّه لما تميّز به من منهجيّة تختلف عن منهجيّة الآخرين.

---

(١) حدّثنا سماحة آية الله الشيخ الكاشمري ﷺ بأنّ السيّد السبزواري ﷺ نتيجة قراءته للكتاب المذكور أصبح قادراً على تمييز الرواية المضمرة من أي المعصومين صدرت، والمراد من الرواية المضمرة: الرواية التي لم يذكر فيها اسم المعصوم الواردة عنه.

وفي أثناء الاشتغال بتنضيد حروف هذا الكتاب وصلنا تذييل من سماحة الشيخ ﷺ، هذا نصّه: «إنّ السيّد الأُستاذ كثيراً ما يقول لي: إذا حُذف من كلّ حديث السند والإمام المروي عنه، وقرئ عليّ نفس متن الحديث، فأنا متمكّن من أن أقول: إنّ هذا المتن صدر من أي معصوم من المعصومين ﷺ، وهذه دعوى ليست بعيدة عن السيّد الأُستاذ ﷺ، ولم تكن في قبولها منه (طاب ثراه) أي صعوبة وإشكال، وهو في هذه أتعب من بعده وأنسى من قبله».

وحكى بعضٌ من كتب عن سماحة السيّد ﷺ: «أنّ أحد العلماء ذهب لزيارته ﷺ، وكان يحمل معه كتاباً يشتمل على رواية أراد أن يستفسر عنها، فقال للسيّد ﷺ: ما تقولون في الرواية الكذائيّة الواردة عن الإمام الباقر ﷺ؟ فقال له السيّد ﷺ: إنّي لا أشمّ من هذه الرواية رائحة الإمام الباقر ﷺ، وإنّما أشمّ منها رائحة الإمام الصادق ﷺ، فقال له السائل: ولكن هامش الكتاب الذي معي يشير إلى أنّ الرواية باقريّة، فأمر السيّد ﷺ بإحضار كتاب وسائل الشيعة، فلمّا أحضروه وجدوا أنّ الرواية واردة عن الإمام الصادق ﷺ». جمال السالكين: ٣٢.

واستطاع أيضاً أن يباحث دورتين كاملتين في المكاسب ، ولم يكتفِ السيّد السبزواري ﷺ بهذا المقدار من المساهمة في دعم الحركة الفقهيّة ، بل قام أيضاً بالكتابة والتصنيف في الفقه الاستدلالي بأسلوب متميّز ومنهجيّة جديدة ، جاءت منها موسوعته الفقهيّة الاستدلاليّة الموسومة بـ(مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام) والتي تقع في ٣٠ مجلّداً .

وقد أضاف السيّد السبزواري ﷺ بهذه الموسوعة رقماً جديداً ومتميّزاً في تاريخ المكتبة الفقهيّة الاستدلاليّة ، وعلاوة على هذه الموسوعة كتب السيّد ﷺ كتابات أُخرى في هذا المجال ، إذا قدّر لها أن ترى النور فإنّها ستكون هي الأُخرى أيضاً من الموسوعات الرائدة والمهمّة في المكتبة الفقهيّة ، كتعليقته على كتاب الجواهر ، وتعليقته الأُخرى على كتاب الحدائق .

مؤشّرات لامعة حول المنهج الفقهي عند السيّد السبزواري ﷺ

الأوّل : القدرة على التفريع

وهذا المؤشّر يكشف عن عمق الروح الاستدلاليّة عند الفقيه ، بل هو أحد العناصر المقوّمة للفقاهة ، التي هي تطبيق القواعد الكبرويّة على صغرياتها ؛ إذ أنّهم قد ذكروا بأنّ الفقاهة تتقوّم من ثلاثة عناصر :

١ ـ حسن السليقة .

٢ ـ سرعة البديهة .

٣ ـ الالتفات إلى خصوصيّات الفروع .

وقد لعب السيّد السبزواري ﷺ دوراً كبيراً في تفريع الفروع الفقهيّة ، حتّى أصبح كتاب « مهذّب الأحكام » حاوياً للكثير من الفروع الفقهيّة .

وعن ذلك يقول ﷺ في مقدّمة كتابه : « وتعرّضت ـ فيه ـ لعامّة القواعد بحسب

المناسبات والفروع التي خلت منها كتب أصحابنا في العبادات والمعاملات »[١].

حتّى ذكر صاحب الذريعة ﷺ بأنّ السيّد السبزواري ﷺ وقبل إتمام كتابه كان قد ذكر فيه إثني عشر ألف فرع[٢].

الثاني : الرؤية العرفيّة في فهم النصّ الشرعي

السيّد السبزواري ﷺ فقيه عرفي لا فقيه عقلي ، فهو يتعامل مع النصوص بالذوق العرفي العامّ ، من دون إصرار على تعميق المداليل وتوسعتها بما يخرجها عن الحدّ المأنوس عرفاً ، فهو يرى أنّ الفقاهة لا تكمن في كثرة المعلومات ، ولا في القدرة العقليّة على النقض والإبرام والبراعة في استخدام الجهات العقليّة في مقام الاستنباط ، بل الفقاهة في سلامة الذوق وحسن السليقة في فهم النصوص ، وتحصيل الجمع العرفي بين المتعارضات منها[٣].

والذي يبدو أنّ مسلك السيّد السبزواري ﷺ يتفق مع مسلك المحدّث البحراني ﷺ صاحب الحدائق في أنّ مدار الفقاهة والاستنباط هو الفهم العرفي ، فكلّما كان المجتهد ألطف ذوقاً وأشدّ عرفيّة في فهم ألفاظ الكتاب والسنّة من ناحية ، وقوانين المجتمع العقلائي الممكن تطبيقها على الفقه ، والمعبّر عنها بالسيرة العقلائيّة والعرفيّة من ناحية أُخرى ، فإنّه يكون أقرب من واقع الحكم الشرعي .

بخلاف التعمّق في المطالب العقليّة من أُصوليّة ومنطقيّة وغيرها ، فإنّها قد تورث اعوجاج السليقة العرفيّة ، وصعوبة الفهم اللطيف السلس لألفاظ الكتاب والسنّة .

---

(١) مهذّب الأحكام : ٥/١.

(٢) الذريعة : ٢٨٥/٢١.

(٣) شذرات من حياة السيّد السبزواري ﷺ : ٣.

الثالث : الاهتمام بعمل القدماء

وهذا مؤشّر آخر للمنهجيّة الفقهيّة عند السيّد السبزواري ﷺ ، فهو يرى بأنّ العمل الفقهائي للمتقدّمين أقرب إلى واقع الأحكام الشرعيّة ، وذلك لأمرين :

الأمر الأوّل : كونه قريباً من زمن النصّ .

الأمر الثاني : بعده عن العلوم الدخيلة على علم الفقه .

ومن هنا كان لا بدّ للفقيه في مقام الاستنباط أن يعتني بعمل المتقدّمين ، ويأخذه بعين الاعتبار .

وقد كان هذا مسلكاً لمجموعة من علمائنا الأعلام ، وعلى رأسهم المرجع الديني الكبير السيّد البروجردي ﷺ .

ولعلّه بناءً على هذا المسلك بنى السيّد السبزواري ﷺ رأيه في اعتبار الشهرة العمليّة ، حيث يقول ﷺ :

« والمعروف بين الإماميّة أنّ مثل هذه الشهرة ـ العمليّة ـ جابرة لضعف السند ، كما أنّ ترك عملهم لخبر صحيح موهن له ، وقد استقرّت سيرتهم على العمل بما عمل به المشهور وإن كان ضعيفاً ، وترك العمل بما لم يعملوا به وإن كان صحيحاً ، إذا لم يثبت خلافهم بدليل صحيح .

قال صاحب الجواهر ﷺ : ولو أراد الإنسان أن يلفّق فقهاً من غير نظر إلى كلام الأصحاب ، بل من محض الأخبار ، يظهر له فقه خارج عن ربقة جميع المسلمين ، بل سائر المتديّنين .

أقول : وهو حقّ كما هو معلوم عند أهله »[1] .

---

(١) تهذيب الأصول : ٢/٨٠ .

نقاط سريعة حول موسوعته الفقهيّة (مهذّب الأحكام):

النقطة الأُولى: احتواؤها على كثير من الفروع الفقهيّة النادرة، التي قد لا توجد في غيرها من الموسوعات الأُخرى، فهي شاملة لأُمّهات المسائل وفروعها، وقد تقدّم ذكر ذلك.

النقطة الثانية: احتواؤها على كثير من القواعد الفقهيّة مع بيان مداركها وأدلّتها، بخلاف غيرها من الموسوعات الفقهيّة، التي أقصى ما تتعرّض إليه هو الاستدلال بالقاعدة الفقهيّة دون الاستدلال عليها.

النقطة الثالثة: سلاسة البيان ووضوح العبارة، فمطالبها لا تمتنع عن أفاضل الطلبة فضلاً عن أهل الاجتهاد والتحقيق.

النقطة الرابعة: اختصار المطالب الصعبة الطويلة في عبارات سهلة قصيرة، فهو قادر على صياغة المطالب التي تستغرق عشرات الصفحات في سطور قليلة.

النقطة الخامسة: استعراض «المسائل المستحدثة» متناً واستدلالاً، كمسألة «التأمين» مثلاً.

الجانب الأُصولي

في أوساط المجتمع الحوزوي ينكفئ الطالب على علمي الفقه والأُصول بالمقدار الذي يؤهّله للوصول إلى مرحلة الفقاهة والاستنباط.

وبعد وصوله لهذه المرحلة، يفسح له المجال للقيام بإعداد الطلبة الحوزويّين الذين لم يتخطّوا تلك المرحلة، وتمرينهم من أجل الوصول إلى ما وصل إليه.

وهنا تبدأ المرحلة الحرجة في مسيرة الطالب، إذ أنّه بمجرّد أن يضع أُولى خطواته في طريق هذه المرحلة، يكون مميّزاً في الوسط الحوزوي، إمّا على الصعيد الفقهي، وإمّا على الصعيد الأُصولي، والفرد النادر هو الذي يبرز على كلا الصعيدين بمستوى واحد.

ومن هنا برز السيّد السبزواري ﷺ فقيهاً وصنّف في عِداد صنف «الفقهاء»، كالسيّد اليزدي والسيّد الأصفهاني والسيّد الحكيم ﷺ، ولم يصنّف في عِداد صنف «الأُصوليّين» كأساتذته المحقّقين الثلاثة وبعض أقرانه، كالسيّد الخوئي ﷺ.

ومن هذا المنعطف بدأ السيّد السبزواري ﷺ يعيش مشكلة مع بعض الحوزويّين، إذ أشاعوا عنه بأنّه لا حظّ له من علم الأُصول.

وبدأت الإشاعة تشقّ طريقها في مجتمع الحوزة، وانعكست آثارها على الشخصيّة الأُصوليّة عند السيّد السبزواري ﷺ.

إلّا أنّ هذا التحرّك لم يقف أمام الرقيّ العلمي عند السيّد السبزواري ﷺ،

بل واجهه بكلّ ما لديه من عزم وصمود، حتّى استطاع أن يفرض شخصيّته الأُصوليّة على المجتمع الحوزوي.

فبدأ ﷺ بتدريس الأُصول على مستوى البحث الخارج، واستطاع أن ينهي ستّ دورات متكاملات.

وقام بتأليف كتابه القيّم (تهذيب الأُصول) الذي يقع في مجلّدين.

ملامح الفكر الأُصولي عند السيّد السبزواري ﷺ

الأوّل: علم الأُصول بين الأصالة والتجديد

وللتمهيد نقرّر بأنّ الفكر الأُصولي في مسيرته الزمنيّة مرّ بعصور ثلاثة:

العصر التمهيدي: وهو عصر وضع البذور الأساسيّة لعلم الأُصول، ويبدأ هذا العصر بابن أبي عقيل وابن الجنيد، وينتهي بظهور الشيخ الطوسي ﷺ[1].

العصر العلمي: وهو العصر الذي اختمرت فيه تلك البذور وأثمرت وتحدّدت معالم الفكر الأُصولي، وانعكست على مجالات البحث الفقهي في نطاق واسع،

---

(١) في تحديد الفترة الزمنيّة الأُولى لتأسيس علم الأُصول يسلك الباحثون أحد اتّجاهين:

الاتّجاه الأوّل: وهو الذي يرى بأنّ الذي غرس البذرة الأُصوليّة هو ابن عقيل، فابن الجنيد انتهاءً بالشيخ الطوسي ﷺ، وقد تبنّى هذا الاتّجاه السيّد الشهيد الصدر ﷺ في معالمه الجديدة.

الاتّجاه الثاني: وهو الذي يرى بأنّ بداية الفكر الأُصولي كانت على يد الإمامين الصادقين ﷺ، وبعض أصحابهما، كهشام بن الحكم، ويونس بن عبدالرحمن، وقد سلك هذا الاتّجاه الكثير من الأعلام، بل صنّف بعضهم كتباً أُصوليّة روائيّة على منوال الكتب الأُصوليّة المتأخّرة وترتيبها، ولكنّها في جميع أبوابها مستخرجة من الأحاديث والروايات. فانظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣١.

ورائد هذا العصر هو الشيخ الطوسي ﷺ، ومن رجالاته الكبار: ابن إدريس والمحقّق الحلّي والعلّامة والشهيد الأوّل وغيرهم من النوابغ.

العصر التكاملي: وهو العصر الذي افتتحته في تاريخ العلم المدرسة الجديدة التي ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر على يد الوحيد البهبهاني ﷺ، وبدأت تبني للعلم عصره الثالث بما قدّمته من جهود متظافرة في الميدانين: الأُصولي والفقهي.

وقد تمثّلت تلك الجهود في أفكار وبحوث رائد المدرسة الأُستاذ الوحيد البهبهاني ﷺ وأقطاب مدرسته، الذين واصلوا عمل الرائد حوالي نصف قرن، حتّى استكمل العصر الثالث خصائصه العامّة ووصل إلى القمّة.

وفي هذه المدّة تعاقبت أجيال ثلاثة من نوابغ هذه المدرسة:

يتمثّل الجيل الأوّل في المحقّقين الكبار من تلامذة الوحيد ﷺ، كالسيّد مهدي بحرالعلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء، والميرزا أبي القاسم القمّي والسيّد عليّ الطباطبائي والشيخ أسدالله التستري ﷺ.

ويتمثّل الجيل الثاني في النوابغ الذين تخرّجوا على بعض هؤلاء، كالشيخ محمّدتقي بن عبدالرحيم وشريف العلماء والسيّد محسن الأعرجي والمولى أحمد النراقي والشيخ محمّد حسن النجفي الجواهري ﷺ.

وأمّا الجيل الثالث فعلى رأسه تلميذ شريف العلماء ﷺ الشيخ الأعظم الأنصاري ﷺ، الذي ولد بُعيد ظهور المدرسة الجديدة عام ١٢١٤هـ، وعاصرهافي مرحلته الدراسيّة، وهي في أوج نموّها ونشاطها، وقدّر له أن يرتفع بالعلم في عصره الثالث إلى القمّة.

وعلى هذا الأساس أصبح الشيخ الأنصاري ﷺ (المتوفّى عام ١٢٨١هـ) رائداً لأرقى مرحلة من مراحل العصر الثالث.

وهي المرحلة التي يتمثّل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مئة سنة حتّى اليوم،

ولا يزال علم الأُصول والفكر العلمي السائد في الحوزات العلميّة الإماميّة يعيش العصر الثالث الذي افتتحته مدرسة الأُستاذ الوحيد ﷺ[١].

وبعد بيان هذه المقدّمة التمهيديّة، ينبغي التنبيه على أنّ الفكر الأُصولي في أواخر القرن العاشر كان قد بلغ ذروته على يد الحسن بن زيد الدين ﷺ صاحب كتاب «المعالم».

إلّا أنّه بعد رحيل صاحب المعالم ﷺ فوجئ علم الأُصول بصدمة شديدة عارضت نموّه وتطوّره، وذلك نتيجة ظهور الحركة الإخباريّة في أوائل القرن الحادي عشر على يد الميرزا محمّد أمين الاسترآبادي، والتي استفحل أمرها بعد وفاته عام ١٠٢١هـ، وخاصّة في أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرن الثاني عشر.

ومن أنجح الأساليب التي اتّخذها المحدّث الاسترآبادي وأصحابه لإثارة الرأي العامّ الشيعي ضدّ علم الأُصول، هو استغلال حداثة علم الأُصول للقضاء عليه، ببيان أنّه علم لم ينشأ في النطاق الإمامي إلّا بعد الغَيبة، وهذا يعني أنّ أصحاب الأئمّة ﷺ من قبيل: زرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم، ومحمّد بن أبي عمير، ويونس بن عبدالرحمن (رضي الله عنهم) وغيرهم، كانوا في غنىً عن علم الأُصول في فقههم، فلا ضرورة للتورّط فيما لم يتورّطوا فيه، ولا معنى للقول بتوقّف الاستنباط والفقه على علم الأُصول.

وبالرغم من هذه الصدمة العنيفة التي مُني بها علم الأُصول في تلك الفترة، إلّا أنّه لم تنطفئ جذوته، ولم يتوقّف نهائيّاً، فقد كتب الملّا عبدالله التوني ﷺ الوافية في الأُصول، وجاء بعده المحقّق الجليل السيّد حسين الخوانساري ﷺ، وكان على قدر كبير من النبوغ والدقّة، فحرّك الفكر الأُصولي بقوّة جديدة كما يبدو من أفكاره الأُصوليّة في كتابه الفقهي: «مشارق الشموس في شرح الدروس».

---

(١) المعالم الجديدة للأُصول: ٨٧.

ونتيجة لمرانه العظيم في الفكر الفلسفي انعكس ذلك على الفكر الأُصولي بصورة لم يسبق لها نظير ، وسرى الاتّجاه الفلسفي في الفكر الأُصولي بروحيّة متحرّرة من الصيغ التقليديّة التي كانت الفلسفة تتبنّاها في مسائلها وبحوثها ، وكان لهذه الروح أثرها الكبير في تاريخ العلم فيما بعد(١).

وهنا نكون قد وصلنا إلى بداية المرحلة التي غرس فيها الاتّجاه الفلسفي بذوره الفكريّة في الاتّجاه الأُصولي ، وفي العصر الثالث نتيجة لرواج البحث الفلسفي على الصعيد الشيعي بدلاً عن علم الكلام ، وانتشار فلسفات كبيرة ومجدّدة ، كفلسفة صدر الدين الشيرازي ﷺ ، أدّى ذلك إلى إقبال الفكر الأُصولي في العصر الثالث على الاستمداد من الفلسفة واستلهامها أكثر من استلهام علم الكلام ، خصوصاً من التيّار الفلسفي الذي أوجده صدر المتألّهين ﷺ .

فتجد ـ مثلاً ـ مسألة واحدة من المسائل الفلسفيّة ، وهي مسألة (أصالة الوجود وأصالة الماهيّة) ، قد أخذت مساحة شاسعة في العديد من الأبحاث الأُصوليّة ، كالبحث في اجتماع الأمر والنهي ، والبحث في تعلّق الأوامر بالطبائع والأفراد ، وغيرها من المسائل الأُخرى .

ومن هنا يكون الفكر الأُصولي قد امتزج بالفكر الفلسفي في الكثير من بحوثه وصياغاته ، حتّى أصبح البحث الأُصولي في بعض الموارد خارجاً عن الغرض المحدّد له .

ومع استفحال هذه الفجوة في روح الفكر الأُصولي ، إلّا أنّه لم يتعدّ ذلك المسار الذي رفع لواءه السيّد الخوانساري ﷺ ، بل لا زال الطابع الفلسفي هو المهيمن على عدد ليس بالقليل من النظريّات والصياغات الأُصوليّة .

ومن هذا المنطلق تحرّكت روحيّة التغيير في أعماق «الأُصوليّين» من أجل

---

(١) المعالم الجديدة للأُصول : ٧٦ و ٩٢ .

محاولة استئصال الغزو الفلسفي وإعادة الفكر الأُصولي على ما كان عليه سابقاً.

إلّا أنّ هذه المحاولة تبدو خطرة جدّاً في نظر «الحوزويّين»، فإنّه ليس من السهل بمكان مقاومة الغزو الفلسفي الذي استمرّ قرابة مئة عام بل أكثر، والمطالبة بتنقيحه وتهذيبه.

وما زالت هذه المحاولة حلماً يداعب نفوس «الأُصوليّين» حتّى سطع النجم الأُصولي للسيّد السبزواري ﷺ، وبدأ بتحطيم جميع تلك القيود والمخاوف رافعاً شعار التهذيب والتنقيح في كتابه «تهذيب الأُصول»، وقد أشار إلى هذا المعنى في مقدّمة الكتاب، فقال: «هذه خلاصة ما حقّقناه وحقّقه مهرة مشايخنا ﷺ المبتكرين في هذه الصناعة بعد طول الجهد وتحمل المتاعب، أبرزتها في أسهل العبارات وأيسر الجملات، خالية عن جميع الزوائد، مشتملة على كثير من الفوائد، وسمّيتها بـ(تهذيب الأُصول عن الزوائد والفضول)، راجياً أن يهذّبنا الله تعالى عن كلّ ما لا يرضيه، وأن يجعله كافياً لصحّة الاعتذار في أحكامه»[1].

وبهذا يعتبر السيّد السبزواري ﷺ الرائد الأوّل من روّاد الثورة التهذيبيّة في البحث الأُصولي، ومن تتبّع كتابه (تهذيب الأُصول) لا يخفى عليه أنّ الكتاب مع ما فيه من الصياغة التهذيبيّة إلّا أنّه لم يتأثّر من ناحية إطاره الشمولي والاستيعابي.

الثاني: مستوى العلاقة بين الفقه والأُصول

وإن كان هذا البحث بالنهاية يعود إلى البحث الأوّل، إلّا أنّ الكلام فيه يختلف عن الكلام في الأوّل، فهناك انتهى بنا الكلام إلى أنّ السيّد السبزواري ﷺ هو رائد الثورة التهذيبيّة في البحث الأُصولي؛ إذ خلّصه من أكثر الزوائد الطفيليّة عديمة الثمرة، بحسب ما أدّى إليه نظره الشريف.

---

(١) تهذيب الأُصول: ٥/١.

وهنا يقع الكلام حول مستوى العلاقة بين الفقه والأُصول في نظر السيّد السبزواري ﷺ ، وذلك بعد معرفة مدى العلاقة الوثيقة بين علم الفقه وعلم الأُصول ، إذ أنّ العلاقة بينهما علاقة النظريّة والتطبيق ، فعلم الأُصول يمارس وضع النظريات العامّة عن طريق تحديد العناصر المشتركة في عمليّة الاستنباط ، وعلم الفقه يمارس تطبيق تلك النظريّات والعناصر المشتركة على العناصر الخاصّة التي تختلف من مسألة إلى أُخرى(١).

وبعد معرفة واقع العلاقة بين العلمين نستطيع أن نتعرّف على مستوى هذه العلاقة بين علم الأُصول وعلم الفقه ، ويوجد لدينا هنا مسلكان :

المسلك الأوّل : وهو الذي يرى مستوى العلاقة بين العلمين عميقاً جدّاً ، بحيث إنّ الطالب الحوزوي لا يستطيع تكوين العلاقة بين العلمين إلّا بعد الغور في أعماق المباحث الأُصوليّة تحقيقاً وتدقيقاً .

المسلك الثاني : وهو الذي يرى مستوى العلاقة بين العلمين ليس بذلك المستوى التعميقي ؛ إذ أنّ الطالب يكفيه لتحقيق العلاقة بين العلمين التحقيق في المباحث الأُصوليّة بالمقدار الذي يحتاج إليه في مجال الاستنباط والتطبيق .

وهذا المسلك هو المسلك الذي تبنّاه السيّد السبزواري ﷺ ، وأشار إليه في مقدّمة كتابه (تهذيب الأُصول) وفي مواضع أُخرى فيقول ﷺ .

ولا يخفى أنّ الأُصول مقدّمة وآلة للتعرّف على الفقه ، وليس هو مطلوباً بالذات ، فلا بدّ أن يكون البحث فيه بقدر الاحتياج إليه في ذي المقدّمة لا زائداً عليه(٢).

ويقول في موضع آخر : « وقد جرت السيرة على الاهتمام بصناعة الأُصول ؛

---

(١) المعالم الجديدة للأُصول : ١٩ .

(٢) تهذيب الأُصول : ٦/١ .

لأنّه مجمع مبادئ الاجتهاد ومؤلّف متفرّقاتها ، وقد ذكرنا في الجزء الأوّل عند تعريفه أنّه : بداية الاجتهاد ونهاية العلوم الدخيلة في الاستنباط ، وإن اشتمل على ما ليس فيه ثمرة عمليّة ، بل ولا علميّة معتنى بها ، كجلّ مباحث الوضع والصحيح والأعمّ والمشتقّ ، واتّحاد الطلب والإرادة ، وبحث الإنسداد ونحوها ممّا هو كثير ، كما هو واضح على الخبير.

ويكفي في الاجتهاد في الأصول : الإحاطة بالمسلّمات والمشهورات بين العقلاء والعلماء ، وما هو المعتبر لدى الأذهان المستقيمة ، ولا عبرة بالدقيات العقليّة والاحتمالات البعيدة ؛ لعدم ابتناء الفقه عليها ، كما لا يعتبر إبداء الرأي المسبوق بالعدم في الأصول ؛ لأنّ الآراء محصورة بين النفي والإثبات ، بل يكفي الإذعان الاعتقادي عن تأمّل واجتهاد بما هو المألوف بين أهل المحاورة في كيفيّة الاحتجاج والاستظهار ، وتآليف الفقه الاستدلالي في هذه الأعصار وما قاربها تشتمل على القدر اللازم من الأصول ، ويمكن أن يعدّ الزائد عليه من الفضول »[1].

وعن جوانب مسلكه ﷺ كتب أحد تلامذته الفضلاء ، فقال :

« وأمّا على مستوى علم الأصول ، فالملاحظ من كتابه « تهذيب الأصول » عدم الإغراق والاسترسال في البحوث الأصوليّة لما يستلزم من تلف العمر في ذلك ، وعدم إعطاء الفقه ـ وهو علم أهل البيت ﷺ ـ حقّه من الوقت والجهد العقلي »[2].

والنقطة التي ينبغي إلفات النظر إليها قبل الخروج من هذه النقطة ، هي : أنّ المسلك الأصولي للسيّد السبزواري ﷺ لا يعني تهميش علم الأصول وإلغاء أهمّيته ، كما يستوحي ذلك عنه بعض الطلبة ، بل هو ﷺ يرى أنّ الاجتهاد لا يمكن أن يتحقّق إلّا بضبط القواعد الأصوليّة واستيعاب المقصود منها ، وقد صرّح بذلك في العديد

---

(١) تهذيب الأصول : ٢/١١١.

(٢) شذرات من حياة الإمام السبزواري ﷺ : ٣.

من كلماته ، ومنها قوله : « ويكفي في فضله أنّه في الجملة من شؤون الفقه ، الذي هو من أفضل العلوم بعد التوحيد ، بل به يستكمل التوحيد ، وحيث إنّه نفسه مقدّمة للفقه ، يكون فضله فضلاً ترشّحيّاً منه .

وأمّا غايته : فلا ريب في أنّها من أفضل الغايات وأعظمها ؛ لأنّها الاقتدار على تشخيص الأحكام الربوبيّة ، وتعيين الوظائف الإلهيّة لعباده ، وهذا من فروع النبوّة والخلافة الإلهيّة .

وأمّا مرتبته : فهي فوق جميع العلوم الدخيلة في الفقه ، فالأُصول من حيث المرتبة بداية الاجتهاد ونهاية العلوم الدخيلة في الاستنباط »(١) .

الثالث : علم الأُصول بين الدقّة العقليّة والفهم العقلائي

وهذه وقفة ثالثة عند ملامح الفكر الأُصولي لدى السيّد السبزواري ﷺ ؛ إذ أنّ الفكر الأُصولي يعيش بين اتّجاهين :

الاتّجاه الأوّل : ونستطيع أن نعبّر عنه بـ(الاتّجاه العقلي) ، وهو الاتّجاه الذي يبني مبانيه الأُصوليّة وصياغاته العلميّة على الأُسس العقليّة الدقيقة .

الاتّجاه الثاني : ونستطيع أن نعبّر عنه بـ(الاتّجاه العقلائي) ، وهو الاتّجاه الذي يبني مبانيه الأُصوليّة على ما تبانى عليه المجتمع العقلائي والسيرة العرفيّة .

والذي يظهر من ملامح الفكر الأُصولي عند السيّد السبزواري ﷺ أنّه يميل إلى هذا الاتّجاه الأخير ، فهو في كثير من بحوثه الأُصوليّة يبني نظريّاته على الاعتبارات العقلائيّة .

يقول ﷺ في مقدّمة كتابه (تهذيب الأُصول) : « أن تكون كيفيّة الاستدلال فيه

---

(١) تهذيب الأُصول : ٧/١.

ـعلم الأصول ـ مثلها في الفقه في مراعاة السهولة ، وما هو أقرب إلى الأذهان العرفيّة ، لابتناء الكتاب والسنّة اللذين هما أساس الفقه على ذلك ، فالأصول من شؤون الفقه لا بدّ أن يلحظ فيه خصوصيّاته من كلّ جهة[١] .

وقفة أخيرة مع كتاب « تهذيب الأُصول »

التجديد في الصياغة الفنيّة

ولعلّ الدافع نحو هذا التجديد هو : أنّ علم الأُصول بما أنّه وضع كمقدّمة لعلم الفقه ، فلا بدّ أن تكون صياغته الفنيّة متلائمة مع وضعه المقدّمي ، فبما أنّ علم الفقه تدور أبحاثه حول تحديد وظيفة الإنسان الشرعيّة ، وعلم الأُصول يبحث عن كيفيّة تلك الوظيفة . إذن فالمناسب أن تكون الصياغة الفنيّة لعلم الأُصول منسجمة مع كونه مقدّمة لعلم الفقه .

ومن هنا نجد أنّ الفكر الأُصولي على طول الخط كان يسير على منهجيّة واحدة ، وهي تقسيم المباحث الأُصوليّة إلى قسمين :

القسم الأوّل : الأُصول اللفظيّة .

القسم الثاني : الأُصول العمليّة .

إلّا أنّ هذه الصياغة طرأت عليها روح التجديد عند المحقّقين الأُصوليّين ، كالشيخ الأصفهاني ﷺ[٢] .

ولعلّ منه قد استلهم السيّد السبزواري ﷺ هذه الروح التجديديّة ، فقام بتجديد الصياغة الفنيّة للمباحث الأُصوليّة بهذه الهيكليّة :

---

(١) تهذيب الأُصول : ٦/١.

(٢) لاحظ كتاب أُصول الفقه / الشيخ المظفّر ﷺ : ٧/١.

المقدّمة: وقد ضمّنها باختصار شديد الأُمور العامّة، التي لا ثمرة عمليّة فيها غالباً، كمبحث موضوع العلم ومبحث المشتقّ وغيرها من البحوث[١].

المقصد الأوّل: مباحث الألفاظ، وقد أدرج في ضمنه مبحث التعارض.

المقصد الثاني: الملازمات العقليّة.

المقصد الثالث: ما يصحّ الاعتذار به، وضمّنه مباحث القطع، والأمارات، والأُصول العلميّة، والاجتهاد والتقليد.

والملاحظ في هذه الصياغة أمران:

الأمر الأوّل: إنّ الصياغة الفنّيّة القديمة كانت قد منهجت مبحث الملازمات العقليّة في ضمن مباحث الألفاظ، إلّا أنّ السيّد السبزواري ﷺ جعل لمبحث الملازمات العقليّة باباً مستقلاً، وهذا يعود بالنهاية طبعاً إلى جهة البحث في المسألة.

فمثلاً: مسألة «الضدّ»، وهي هل أنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه، تارة يبحث عنها من جهة أنّ الأمر بالشيء عين النهي عن ضدّه، أو أنّ النهي عن الضدّ جزء مدلوله، أو من لوازمه العرفيّة المتوقّفة على الاستظهار من الأدلّة، وعلى هذه الفروض تكون المسألة من مباحث الألفاظ. وتارة يبحث عنها من جهة الملازمة، أو من جهة المقدّميّة، فتكون من مباحث الملازمات العقليّة.

الأمر الثاني: جرت السيرة عند الأُصوليّين أيضاً أن يجعلوا مبحث التعارض خاتمة بحوثهم الأُصوليّة، إلّا أنّ السيّد السبزواري ﷺ أدرجه في ضمن «مباحث الألفاظ»، وقال: «لا بدّ أن يذكر هذا البحث في مباحث الألفاظ، لرجوعه إلى كيفيّة الاستفادة من الدليلين المتعارضين بحسب المحاورات العرفيّة»[٢].

---

(١) تهذيب الأُصول: ٥/١.

(٢) تهذيب الأُصول: ١٦٣/١.

الجانب التفسيري

الحديث عن الجانب التفسيري في شخصيّة السيّد السبزواري ﴿ يقودنا للحديث عن إحدى المشاكل الحوزويّة ، وهي مشكلة عدم الاهتمام المكثّف بالعلوم القرآنيّة ، فإنّه رغم الجهود الجبّارة التي بذلها رموز الفكر الشيعي في الزمن المتقدّم ، إلّا أنّها لم تحظَ بمزيد من الاهتمام في المرحلة المتأخّرة .

مع أنّ الواقع الإسلامي في عمر هذه المرحلة بدأ يفرض على الكيان الحوزوي أن يقوم بحركة تنشيطيّة في مجال العلوم القرآنيّة .

وقد بدأت بوادر هذه الحركة في المرحلة المتأخّرة تشقّ طريقها في كيان المجتمع الحوزوي ، ممّا أدّى إلى إنتاج مثمر يتصدّر بجدارة قائمة الحركة التفسيريّة المعاصرة .

ومع ذلك فإنّ المجتمع الشيعي بمختلف طبقاته لا زال يتعطّش لمزيد من العطاء القرآني ، إذ أنّ المشكلة لا زالت مهيمنة على بعض الجوانب .

وفي معرض حوار جرى بيني وبين الشيخ السعيدي الكاشمري ﴿ قال فيه : « الملاحظ على الفقهاء الإماميّين أنّهم إذا أرادوا أن يستنبطوا حكماً فقهيّاً ـ حتّى ولو لم يكن إلزاميّاً ـ يدقّقون في الرواية سنداً ودلالة بما لا مزيد عليه ، بينما في المجال القرآني يوجد عندنا كمّ هائل من الروايات المعصوميّة ، إلّا أنّها لم تحظ بهذه العناية سنداً ودلالة » .

ثمّ أضاف قائلاً: «إنّ كتاباً، كالكفاية للمحقّق الخراساني، لم يمض على وفاة مؤلّفه قرن واحد، وعليه من الشروح ما يفوق المئة، والقرآن الكريم الذي يعتبر الكتاب المقدّس والمصدر التشريعي الأوّل لو استقرأنا ما حظي به من الشروح والتفاسير لما تجاوز هذا المقدار.

ومن منطلق هذه المشكلة تحرّك جمع من الأعلام الأجلاء لخدمة الفكر القرآني، فعقدوا للعلوم القرآنيّة مجالاً خاصّة على صعيد الدرس والتأليف.

وقد كان في طليعة هؤلاء القرآنيّين سيّدنا السبزواري ﷺ، الذي كان يعقد جلسات خاصّة في علوم القرآن لعائلته وأهل بيته في كلّ ليلة عقيب صلاة العشاء، إضافة إلى دروسه العامّة في التفسير يومي الخميس والجمعة.

وقد تجلّى إبداعه التفسيري ليس في هذا الإطار المحدّد فحسب، بل في تفسيره الكبير (مواهب الرحمن) الواقع في ٣٠ مجلّداً تقريباً.

وبهذا التفسير استطاع السيّد السبزواري ﷺ أن يصل إلى قمّة هرم التفسير والمفسّرين.

ولاستعراض الجانب التفسيري عند السيّد السبزواري ﷺ نتناوله من خلال سماته الواضحة:

الأولى: ملامح المدرسة التفسيريّة عند السيّد السبزواري ﷺ

ولبيان ملامح المدرسة التفسيريّة عند السيّد السبزواري ﷺ يستحسن استعراض سلسلة المدارس التفسيريّة الأخرى، التي تحفل بها المكتبة الإسلاميّة، وهي عبارة عن ستّ مدارس:

المدرسة الأولى: الروائيّة

وهي المدرسة التي تعتمد على النصّ الروائي في تفسير النصّ القرآني، وتوضيح

مفرداته، وبيان معانيه، وقد كان لها مجموعة من الروّاد أمثال: عليّ بن إبراهيم القمّي صاحب تفسير القمّي، وكذا صاحب تفسير العيّاشي، والسيّد هاشم البحراني ﷺ صاحب تفسير (البرهان).

المدرسة الثانية: الأدبيّة

وهي المدرسة التي تتبنّى تفسير القرآن الكريم من خلال قنواته الأدبيّة، المستوعبة للإبداع الفنّي من حيث إطاره البلاغي، وما يتعلّق به من صرف ونحو وإعراب، ومن روّاد هذه المدرسة الزمخشري صاحب (الكشّاف).

المدرسة الثالثة: الفلسفيّة

وهي المدرسة التي تنتهج التفسير القرآني، وكشف غوامض أسراره العميقة من خلال الفكر الفلسفي، ومن الروّاد الأوائل لهذه المدرسة الفيلسوف المتألّه صدر المتألّهين ﷺ صاحب كتاب (تفسير القرآن الكريم)، والرازي صاحب تفسير (مفاتيح الغيب) المشهور بتفسير الرازي.

المدرسة الرابعة: الفقهيّة

وهي المدرسة التي تعتني بالفكر الفقهي في الاستفادة من النصّ القرآني، وبعض روّاد هذه المدرسة لا يكتفي بالسرد الفقهي، بل قد يستطرد لإقامة أدلّة الفروع الفقهيّة التي لا تعلّق لها بالآية، ويجيب عن أدلّة المخالفين، كالقرطبي صاحب التفسير المشهور.

المدرسة الخامسة: القرآنيّة

وهي المدرسة التي تستقي فكرها التفسيري من خلال القرآن نفسه، فهي تعتمد في تفسير النصّ القرآني على النصوص القرآنيّة الأخرى، ومن روّاد هذه المدرسة

العلّامة الكبير الطباطبائي ﷺ.

المدرسة السادسة: الشموليّة

وهي المدرسة ذات الرؤية الشموليّة، التي ترى بأنّ الفكر التفسيري يجب أن لا يتأطّر بإطار معين، ويخضع لاتّجاه محدّد، بل يجب أن يتحوّل إلى دائرة معارف قرآنيّة شاملة.

ومن روّادها: الشهيد الحجّة السيّد مصطفى الخميني ﷺ، وكذا الشيخ يعسوب الدين رستگار، صاحب تفسير البصائر في ٦٠ مجلّداً.

ولعلّ من أبرز روّاد هذه المدرسة الذين حالفهم التوفيق الربّاني سماحة السيّد السبزواري ﷺ، وليس من شذوذ القول لو اعتبرنا السيّد السبزواري ﷺ أحد روّاد المدرسة الشموليّة، وله يعود الكثير من الفضل في إرساء قواعدها، وبيان أبعادها المتعدّدة.

السمة الثانية: المنهج التفسيري عند السيّد السبزواري ﷺ

وهو يرتكز على عدّة خطوات:

الخطوة الأُولى: بيان المضمون الإجمالي للآية.

الخطوة الثانية: بيان المفردات.

الخطوة الثالثة: عرض البحث الدلالي.

والمراد منه: بيان المعنى العامّ ممّا تشير له الآية المباركة من الدلالات الظاهرة أو الدقائق العلميّة.

الخطوة الرابعة: عرض البحوث العلميّة المختلفة التي ترتبط بالآية، وهي البحوث التالية:

١ ـ البحث الروائي .

٢ ـ البحث الأدبي : ووظيفته بيان الأبعاد البلاغيّة والصرفيّة والنحويّة للآية .

٣ ـ البحث الفقهي .

٤ ـ البحث الكلامي : ووظيفته بيان الأبعاد العقائديّة للآية .

٥ ـ البحث الفلسفي .

٦ ـ البحث الأخلاقي .

٧ ـ البحث التاريخي .

٨ ـ البحث العرفاني .

٩ ـ البحث الاجتماعي .

١٠ ـ البحث العلمي .

١١ ـ البحث القرآني .



السمة الثالثة : وقفات مع (مواهب الرحمن)

الوقفة الأُولى : الشموليّة والموسوعيّة

فالقارئ فيه كالمتجوّل في الحقول والبساتين يقطف من كلّ حقل زهرة ، يمهّد لك المضمون والمحتوى ، ثمّ يسير بك إلى الأعماق لتعيش مع النصّ القرآني في كلّ أبعاده ، وقد تقدّم بيان ذلك .

الوقفة الثانية : الجمال الصياغي

إذ الغاية منه هي : « النفع للجميع ، وإتمام الحجّة به عليهم » ، كما صرّح بذلك في مقدّمة التفسير[١] ، فتقتضي أن يكون الكتاب جميل الصياغة ، سهل العبارة ، متحرّزاً

---

(١) مواهب الرحمن : ١/٧.

عن الإيجاز المخلّ ، والإطناب المملّ ، وأبعد ما يكون عن العبارات المغلقة والألفاظ الصعبة .

الوقفة الثالثة : النفَس العرفاني

فهو مع ما فيه من العمق الدلالي والدقائق العلميّة ، إلّا أنّه يحلّق بالإنسان في الآفاق الروحيّة ، ويسلك به إلى آفاق السير والسلوك العرفاني .

الوقفة الرابعة : التهذيب العلمي

فإنّ الكثير من التفاسير لا تخلو من الفكر التفسيري المنحرف ، والآراء المزيّفة ، والفرضيّات التي تتغيّر بمرور الزمن ، بينما مواهب الرحمن برز مهذّباً عن جميع هذه الزوائد .



الوقفة الخامسة : التوثيق العلمي

فلا يستند السيّد السبزواري ﷺ إلى رواية في فهم المغزى القرآني ، إلّا بعد ملاحظة القرائن المفيدة للاطمئنان ، ومن هنا يلاحظ في بعض الموارد إعراضه عن بعض الروايات للضعف السندي مثلاً .

الوقفة السادسة : التتبّع العلمي

فقبل أن يطرح رأيه الخاصّ ، يستعرض جميع الآراء المطروحة التي تحمل وساماً علميّاً وقيمة تفسيريّة ، ويناقش ما يحتاج منها إلى النقاش ، ويرجّح ما فيه قابليّة الرجحان ، ثمّ إن وافقه وركن إليه ، وإلّا طرح رأيه الخاصّ به .

الوقفة السابعة : التحرّر الفكري

فالسيّد السبزواري ﷺ رغم شيخوخته وكبر سنّه ، إلّا أنّه يحمل روحاً شبابيّة نشطة ، تتجلّى في طيّات أبحاثه التي يستعرض فيها نظريّات المدرسة الغربيّة

في العلوم الحضاريّة، كعلم النفس والاقتصاد والاجتماع، مع الحوار الفكري والمناقشات العلميّة.

السمة الرابعة: مواهب الرحمن ورؤية المفكّرين الإسلاميّين

تفسير (المواهب) لما يحتويه من الرصيد العلمي، ولعوامل أُخرى أيضاً، استطاع وبكلّ جدارة أن يصل إلى قمّة الهرم، وقد انعكس ذلك على رؤية المفكّرين الإسلاميّين.

ففي حوار أجريته مع سماحة آية الله محمّد صادق السعيدي ﷺ سألته عن موقعيّة تفسير (المواهب) ما بين سلسلة التفاسير الإسلاميّة؟

فأجاب بما هو محصّله: «إنّ تفسير (مواهب الرحمن) هو أفضل التفاسير الموجودة في المكتبة الإسلاميّة».

ومن المناسب أن نضيف كلمات بعض المفكّرين حول (المواهب):

١ ـ كلمة العلّامة الشيخ أحمد الوائلي ﷺ:

«عرف في بواكير عمره بتدريس الحكمة الإلهيّة، فكان بارعاً فيها، وانعكست في مؤلّفه الثمين (مواهب الرحمن في تفسير القرآن). والقارئ لهذا التفسير يلمس الروح العرفانيّة العالية في آراء السيّد ﷺ.

وفي تفسيره لفتات في غاية الروعة، وفي تفسيره عطاء غاية في الثراء، فهو إلى جانب الفقه وإلى جانب الحكمة كان ضليعاً في التفسير»[١].

٢ ـ كلمة السيّد حسين الصدر (دام موفّقاً):

«ولم يقتصر تأليفه على الفقه، فألّف موسوعة أُخرى في التفسير، حيث أنهى

---

(١) مجلّة النور: ٣٢.

أحد عشر جزءً وهو لم يزل في سورة المائدة... يتناول السيّد الآية من مختلف الجهات: المدلول، اللغة، ثمّ يبحث روائيّاً، ويبحث فلسفيّاً، يربط الآية حيث يبحث عرفانيّاً في نظريّاتها، في موضوعها.

هذا التفسير بحقّ يعدّ عملاً علميّاً رائداً، يستحقّ من كلّ باحث وكلّ منصف حتّى ولو لم يكن مسلماً أن يعترف بهذه الريادة، وبهذا الجهد العلمي المتميّز»[1].

٣ـ كلمة الشيخ محمّدحسين الأنصاري (دام موفّقاً):

«وهو كتاب في تفسير القرآن العظيم، قد بيّن فيه زوايا كثيرة، وأظهر خفايا عجيبة، قد تفوح منه نسائم العرفان وتطغى، مع ما فيه من الجوانب الفلسفيّة القيّمة، والنواحي الأخلاقيّة القويمة، والحوادث والتحليلات التاريخيّة، والأمور الأدبيّة والروائيّة، مضافاً إلى ذلك كلّه فإنّه يظهر فيه العمق الدلالي»[2].

٤ـ كلمة أحد فضلاء تلامذته:

«فكتابه: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، يتميّز على كثير من التفاسير بالمسحة العرفانيّة على بحوثه الروحيّة والأخلاقيّة، ممّا يجعل القارئ للقرآن لا ينفصل تعامله العلمي مع عطاء القرآن عن الآفاق الروحيّة التي تضفيها الآيات القرآنيّة، كما أنّه يتميّز أيضاً باستعراضه للنصّ المفسّر، وقيامه بالجمع والترجيح بين النصوص المختلفة في التفسير، وهذه الجهة، أي: التأمّل في النصّ المفسّر للمادّة القرآنيّة، والتركيز عليه مقرّب من الوصول للمقصود القرآني المنزّل»[3].

---

(١) مجلّة النور: ٣٣.

(٢) جذوة مقتبسة من حياة السيّد السبزواري ﷺ: ٢١.

(٣) شذرات من حياة السيّد السبزواري ﷺ: ٤.

الجانب الشعري

جانب ممارسة نظم الشعر وقرضه ، من الجوانب التي تكاد تخفى في حياة السيّد السبزواري ﷺ ، وقد أحببت إيضاح معالم هذا الجانب في حياته ﷺ ، من خلال عرض بعض مقطوعاته الشعريّة التي عثرنا عليها ضمن موسوعته الفقهيّة (مهذّب الأحكام).



المقطوعة الأُولى : في السجود

سِرُّ العبوديّةِ للمعبودِ
يَظهرُ في الإتيانِ بِالسجودِ

وَهُوَ مَقامٌ شامخٌ للساجدِ
أفضلُ فِعلٍ للمصلّي العابدِ

قَدْ مُدِحَ السُّجودُ في القرآنِ
مَدْحاً بليغاً ظَاهِرَ البيانِ

وَضْعُ الوجوهِ الغرّ في تُربِ الفَلا
تخضّعاً لربِّ الارضِ والسّما

غايةُ قُربِ العَبدِ للهِ العَليّ
إفاضَةُ الخَفيِّ مِنهُ وَالجَليّ

وَلو رَأى قَلبُكَ حالَ الأوليا
مِن راكعٍ أو ساجدٍ أو في الدُّعا

رَأيتَ فِيهمْ شَرَفاً عَظِيماً
ومَنبتاً ـ طابَ لَهمْ ـ كَريما

تَجَلَّتِ الأنوارُ في قُلوبِهمْ
وَالنُّورُ وَالسِّيماءُ في وُجُوهِهِمْ

وَأخلَصوا نيّاتِهمْ مِن رَيبِ
وَرابَطوا بِجُهدِهمْ بِالغَيبِ

جاريةٌ دُموعُهمْ في الخَدِّ
يُطالبونَ رَبَّهمْ بالجِدِّ

في حالِ عَبْرَةٍ وَخَوفٍ وَبُكا تَخفيفَ أهوالٍ تُرى يومَ الجَزا
قُنُوتُهمْ في ظُلماتِ الليلِ لَهُ هَديرٌ كهَديرِ السَّيلِ
أنينُهُمْ يُرفعُ للسماءِ دُمُوعُهمْ تَجْري مِنَ البكاءِ
اضْطَربوا بِكلِّ مَعنى القَولِ لما يُلاقي الخَلْقُ يَومَ الهَولِ
قَدْ أنحلُوا أبدانَهمْ بالطاعَة أدهشَهُم خَوفُ قِيامِ السّاعَة
حالاتُهمْ داعيةٌ إلى الله أحَوالُهمْ حاكِيةٌ عَنِ الله
فَلوْ نَظرت نَحو أطرافِ الفَلَك تَرَى سُجوداً فِرَقاً مِنَ المَلَك
لا يَرْفَعونَ رأسَهُمْ إلى الأبَد تَخضُّعاً للواحِدِ الفَردِ الصَّمَد
أنفاسُهمْ تَسبيحٌ أوْ تَقديسٌ شِعارُهمْ يا نُورُ يا قُدوس
أشواقُهُمْ خارِجَةٌ عَن حَدٍّ حالاتُهمْ مَشُوبَةٌ بالوَجْدِ
لَقَدْ تَفانوا في حَريمِ الكِبْرِيا فاكتشفوا بِذاكَ سِرَّ الأوليا
نَشاطُهُمْ مِن عالمِ السُّرورِ لا كَنَشاطِ عالمِ الغُرورِ
تَغشاهُمُ الجَذبةُ مِن نورِ الأحَد وَهْيَ عِنايةٌ بِهِمْ مِن غَيرِ حَدّ
إنّ السُّجودَ مَعَ ما فيهِ اعتُبِرْ أعظمُ بابٍ لِحَوائجِ البَشَر
حَبْواً إلى أوْسَعِ بابِ الرَّحْمة وكانَ ذاكَ مِن علوِّ الهِمَّة
أفضلُ حالٍ لاستجابةِ الدُّعا حالُ السُّجودِ فاستَمِعْ لِمَنْ وَعى
وَحَقِّقوا حاجاتِكمْ في السَّجدَة فإنَّها لذاكَ نِعمَ العِدَّة
فَكَمْ دُعاءٍ استُجِيبَ فِيهِ وَنالَ جَمْعٌ فيهِ ما يُرضيهِ
فاغتَنِموا حالَ السُّجودِ مُطْلَقاً إلى مَقامِ القُرب مِنهُ يُرتَقى (١)

---

(١) مهذب الأحكام: ٧/٤٤.

المقطوعة الثانية: في القيام

وقُم قِيامَ الْبائِسِ الذَّليل — بَينَ يَدَي مُهَيمِنٍ جَليلِ
فَالسِّرُّ في حُضورِهِ عَلانِيَة — وَلَيسَ مَستوراً عَلَيهِ خافِيَة
وَلازِمِ الْوَقارَ في حُضورِ مَن — أسرارُنا لَدى جَنابِهِ عَلَن
يُحِبُّ كُلَّ مَن دَنا إلَيهِ — يُفيضُ مِنْ ألطافِهِ عَلَيهِ[1]

المقطوعة الثالثة: في الركوع

وَاركَعْ رُكوعَ خائِفٍ مِسكينِ — لَدى مَليكٍ راحِمٍ مُعينِ
وَطَوِّلِ الرُّكوعَ في الصَّلاةْ — فَإنَّها مِن سُبُلِ النَّجاةْ
وَاخلِص لِمَن قَدْ فَرَضَ الْعِبادَة — قَد رَفَعَ اللهُ بِها عِبادَه
اسْتِكانَةُ الْعُبّادِ في رُكوعِهِم — تُنَزِّلُ الرَّحمَةَ في رُبوعِهِم
إنَّ الرُّكوعَ وَالسُّجودَ وَالثَّنا — أعظَمُ طاعَةٍ لِخالِقِ السَّما
واخضَع بِها للقاهِرِ الْعَظيمِ — مُكَوِّنِ الأكْوانِ بِالتَّنظيمِ
إنَّ الرُّكوعَ وَالسُّجودَ حَقُّهُ — بِذاتِهِ لِذاكَ يَسْتَحِقُّهُ[2]

المقطوعة الرابعة: في الصوم

الصَّومُ جُنَّةٌ من العذابِ — وهو نَجاةُ نَشأةِ الْحِسابِ
تقرُّبٌ من حضرةِ الرَّحيمِ — تشبّهٌ بِالمَلَكِ الكَريمِ
يُقَرِّبُ النَّفسَ إلى الْمعارِفِ — يَعرِفُهُ وُجدانُ كُلِّ عارِفِ

---

(١) مهذّب الأحكام: ٦/٢٤٩.

(٢) مهذّب الأحكام: ٦/٤١٤.

يَـربِطُها بِـالْمَلكُوتِ الأَعْـلى بَـل جَـبَروتِ صـارَ مِـنْهُ أَوْلى

يُــنَوِّرُ الْــقُلُوبَ بِـالْعِرفانِ يَــهْدِي إلىٰ حَــقائِقِ الْــقُرْآنِ

يُــرِيهِمُ مَــراتِبَ التَّــنزِيلِ يَكشِــفُ عَـنْهُم شُـبَهَ التَّـأْوِيلِ

لَــيْسَ لأجــرِهِمْ بِـهِ حُـدودُ ولا جَــزاءُ صَــبْرِهِمْ مَـعدُودُ

بَـلْ أجـرُهُم يُـعطى بـلا نِـهايَةْ لِــظاهِرِ الحَـديثِ وَالرُّوايَــة

لَــقَد تَــجَلّى مَـبدَأُ المَـبادي فــي مــظهر الصــوّام والعـبّادِ

أنــفاسهم تسـبيحُ ذات البـاري ونَــومُهُم عِــبادَةُ الجَــبّارِ

لَــهُم نَشَــاطُ سـاعَةَ الإفـطارِ وَأَخْــرُ عِــندَ لِــقَى القَـهّارِ

وَالنُّــورُ نُـورُ اللهِ فـي جَـبينِهِم وَالسِّــرُّ سِــرُّ اللهِ فـي حَـنينِهِم

تَــخُصُّهُم زُمـرَةُ أَمـلاكِ السَّـما تَـبَرُّكـاً بِـما لَـدَيهِم مِـن دُعا

فَـأَمْسِكُوا عَـن شَـهَواتِ النَّفسِ تُـوافِكُـمْ نَـعماءُ ذاتِ القُـدسِ

وَاسـتَدرِكُوا مـا فـاتَ مِن أعـمارِ وَامــتَثِلُوا لِـعالِمِ الأَسـرارِ

وَاغْـتَنِمُوا الصَّـومَ فَـفيهِ احتِرَزا عَنْ كُلُّ مَكـروهٍ يُـرىٰ يَـومَ الْجَزا

هــذا الصِّـيامُ هُـوَ كَـفُّ الشَّـهْوَةِ فَكَـيْفَ صَـومُكُمْ بِكَـفِّ الخَـطْوَةِ

عَــنْ غـير ذاتِ الأَحَـدِ القَـيُّومِ الْــمُهَيمِنِ العَـظيمِ وَالدَّيـمُومِ

وَلا زِمُــوا أحكـامَ مـا لِلـصائِمِ لِــتَخرُجُوا عَــنْ رُتـبَةِ الْـبهائِمِ

وَالصَّــومُ سـلَّمٌ إلَـى السَّـلامَةْ في النَّشـأةِ الدُّنيا وفـي الْـقِيامَةْ[1]

المقطوعة الخامسة: في العدالة

أعْـلى صِـفاتِ نَـفسِكَ الْـعَدالَة لِــقُرْبِها مِــن ســاحَةِ الجَـلالَة

---

(١) مهذّب الأحكام: ٣٣٩/١٠.

خِصِّيصَةُ اللهِ العَلِيِّ الأَعْلى ... ونُورُهُ الَّذي بِهِ تَجَلّى
فَكُلُّ مَخلُوقٍ رَأَيْتَ فِعلَه ... فيهِ عَلاماتٌ تُحاكي عَدلَه
فَليَكتَسِب هذا المَقامَ العالي ... تَقَرُّباً مِن مَصدَرِ الجَلالِ
جِهادُكَ النَّفسَ جِهادٌ أكْبَرُ ... وَالقَتلُ بِالسَّيفِ جِهادٌ أصغَرُ
فَهوَ الكَمالُ المَحضُ للإنسانِ ... دَلَّ عَليهِ واضِحُ البُرهانِ
فَوازِنُوا أعمالَكُمْ بِالعدَلِ ... مِنْ قَبلِ أن يَأتِيَ يَومُ الفَصلِ
وَراقِبوا حالاتِكُمْ في الدُّنيا ... لِكَي تَنالُوا الدَّرجاتِ العُليا
وَنَبذُ ما عُدَّ مِنَ الكَبائِرِ ... وَهَجرُ الإِضرارِ عَلَى الصغائِرِ
تُزَيِّنُ الإنسانَ بِالفَضائِلِ ... تَحفَظُهُ عن دَنَسِ الرَّذائِلِ
فَليَجْتَهِد فِيها جَميعُ النّاسِ ... فَإنَّها المَنجى بِلا التِباسِ
عَن حادِثاتِ نَشأةِ الغُرورِ ... وَمُهلِكاتِ عالِمَ النُّشُورِ
وَالجِدُّ في مُخالَفاتِ النَّفسِ ... يَرفَعُها إلى مَحَلِّ القُدْسِ(١)

المقطوعة السادسة: في الحجّ

لَبَّيكَ يا مَقصَدَ كُلِّ عارِفِ ... وَمَلجَأَ النّاسِ مِنَ المَخاوِفِ
لَبَّيكَ يا كاشِفَ كُلِّ كُربَةِ ... وَمَبدَأَ الخَيرِ وَكُلِّ نِعْمَةِ
لَبَّيكَ يا سِرَّ القُلُوبِ الوالِهَةْ ... ومالِكَ المُلْكِ وَنَنفي الآلِهَةْ
نَنفِي شَريكاً لَكَ مِنْ كُلِّ جِهَةِ ... في الذّاتِ والفِعلِ وَفي كُلِّ صِفَةِ
لَبَّيكَ يا ذَا العِزِّ وَالمَعارِجِ ... وَمُنزِلَ القُرانِ ذِي المَناهِجِ
جِئتُكَ مُحتاجاً إلى نَوالِكَ ... وَمُسْتَجيراً بِكَ في المَهالِكِ

---

(١) مهذّب الأحكام: ١٢٩/٨.

مـا قَدْرُ ذَنْبٍ بَلْ ذُنوبٍ تَنْتَهي — في جَنبِ فَضلٍ هُوَ لَيْسَ يَنْتَهي

المقطوعة السابعة: في الحجّ أيضاً

وَفَـدنا إِلَـيْكَ بِشَـوقٍ شَـدِيد — وَأَفـئِدَةٍ وُلَّـهٍ مِـنْ بَـعِيد
أَتَـيْناكَ يـا شـاهِداً لا يُـرى — بِـآمالَ لَـيْسَ لَـها نـاظِرا
سِوى فَيضِ إحسانِكَ المُنْتَظَر — لِـتَعفُ بِـهِ ذَنْبَ كُـلَّ البَشَـر
أَلَـيْسَ دَعـانا إِلَـيْكَ الخَـليلْ — وَنـادى هَـلُمُّوا لِـبَيْتِ الْـجَليلْ
أَلَـيْسَ المُـضِيفُ يَـبِرُّ الضُّـيوفْ — أَلَسْتَ المَـلِيكَ العَطُوفَ الرَّءُوفْ
أَلَسْتَ تُـرَغِّبُنا بِـالْكَرَمْ — وَتَـطلُبُ مِـنَّا مَـعالي الشِّـيَمْ
وَتَـطلُبُ أَنْ نَـعفُوَ عَـمَّن ظَـلَمْ — فَـأَنْتَ الأَحَـقُّ وَوالِـي النِّـعَمْ
وَمِـنْ كُـلِّ فَـجٍّ بَـعيدٍ عَـميقْ — وَفَـدنا إِلَـيْكَ وَأَنْتَ الشَّـفيقْ
أَتَـيْنا لِـتُرفِدَنا مِـن نَـداكْ — أَنَـجْبَهُ رَدّاً إِلى مَـنْ سِـواكْ
وَحَـقِّكَ لا يَـنْبَغي مِـنْكَ ذاكْ — وَلا أَرْتَـضي ما يُنافي عُـلاكْ(١)

معالمُ شعر السيّد السبزواري ﵀:

١ ـ **المعلم الأوّل**: التمكّن من إنشاء الشعر باللغة العربيّة. وهذا المعلم يستحقّ الإكبار في حدّ ذاته. فإنّ من يلتفت إلى أنّ اللغة العربيّة ليست هي اللغة الأُمّ للسيّد ﵀، وإنّما هي لغته الثانية، ومع ذلك لا يجده متمكّناً من اللغة العربيّة ـ كتابةً ونطقاً ـ فحسب، بل يراه متمكّناً حتّى من ممارسة العمليّة الشعريّة بلغته الثانية، مع سلامةٍ في الألفاظ وجزالةٍ في التعبير، فإنّه لا يملك إلّا الانحناء لهذه الملكة إكباراً وإعظاماً.

---

(١) مهذّب الأحكام: ١١٥/١٣.

٢ ـ **المعلم الثاني:** الشعر الحكمي. وهذا المعلم اتّسم به شعر السيّد ﷺ في الكثير من مفاصله ومقاطعه، ممّا جعله مصداقاً واضحاً لقول النبيّ الأعظم ﷺ: «إنّ من الشعر لحكمة»[1]، وهذا ما يتّضح عند قرائتك لمثل قوله ﷺ:

والجد في مخالفات النفس ... يرفعها إلى محلّ القدس

وكذا قوله ﷺ:

ما قدر ذنب بل ذنوب تنتهي ... في جنب فضل هو ليس ينتهي

٣ ـ **المعلم الثالث:** النفَسُ العرفاني، وهذا ما يتميّز به شعر السيّد السبزواري ﷺ من ألفه إلى يائه، ألفاظاً ومضموناً، فكما هو مزيّن بالألفاظ والمفردات العرفانيّة، نظير (حريم الكبرياء، الجذبة، مقام القرب، التجلّي)، كذلك هو مشرّب بالمضامين الروحيّة والعرفانيّة الراقية، نظير قوله:

سرّ العبوديّة للمعبود ... يظهر في الإتيان بالسجود

وقوله ﷺ:

أنفاسُهمْ تَسبيحٌ أوْ تَقديسُ ... شِعارُهمْ يا نُورُ يا قُدوس

أشواقُهُمْ خارِجَةٌ عَن حَدٍّ ... حالاتُهُمْ مَشُوبَةٌ بالوَجْدِ

لَقَدْ تَفانوا في حَريمِ الكِبْريا ... فاكتشفوا بِذاكَ سِرّ الأوليا

نَشاطُهُمْ من عالمِ السُّرور ... لا كَنَشاطِ عالمِ الغُرور

تَغشاهُمُ الجَذبةُ مِن نورِ الأحَد ... وَهيَ عِنايةٌ بِهِمْ مِن غَيرِ حَدّ

وليس هذا المعلم مثاراً للتعجّب بالنسبة للسيّد ﷺ، سيّما مع الالتفات إلى أنّ

---

(١) بحار الأنوار: ١٥٩/٧٤.

شعره إنّما يجري على لسانه ارتجالاً في حالات الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، كما يشعر بذلك قوله ﷺ بالنسبة إلى مقطوعة الحجّ : وقد جرت على لساني في بعض تلك المشاعر العظام ، جملةً من التلبيات المنظومة . نشير إلى بعضها [١].



(١) مهذّب الأحكام : ١١٥/١٣.

الجانب المرجعي

مرجعيّته وقيادته:

أوّلاً: مسيرتها التاريخيّة

بداية الانطلاقة لمرجعيّة السيّد السبزواري ﷺ كانت بعد وفاة مرجع الطائفة في عصره السيّد محسن الحكيم ﷺ عام ١٣٩٠هـ.

وأخذ تقليده ينتشر في أوساط العراق، بعد أن كان المقلّدون في إيران فقط، رغم عزلته وعزوفه عن منصب المرجعيّة والزعامة.

وبعد وفاة المرجع الأعلى للشيعة السيّد الخوئي ﷺ اتّسع نطاق مرجعيّة السيّد السبزواري ﷺ، واتّجه العالم الشيعي لتقليده، فكان أحد فردي التقليد ـ رغم العواصف الهوجاء التي واجهت مرجعيّته ـ إلى جانب المرجع الديني الكبير السيّد محمّدرضا الگلبايگاني ﷺ، والظاهرة الملفتة للنظر في مرجعيّته، هي أنّه في العام الواحد الذي عاشه السيّد السبزواري ﷺ مرجعاً عاماً بعد رحيل السيّد الخوئي ﷺ ارتفع رقم طبعات «رسالته العمليّة» من الثالثة إلى الثامنة، وهو رقم قياسي للغاية جدّاً.

ثانياً: وكلاء مرجعيّته

بعد رجوع الناس إلى تقليده من مختلف بقاع العالم، قام بتنصيب مجموعة من الوكلاء في تلك البقاع المختلفة لتمثيله والنيابة عنه، وكان من بينهم:

١ ـ في قم المقدّسة: آية الله العظمى السيّد محمّد مفتي الشيعة (دام ظلّه).

٢ ـ في مشهد المقدّسة: آية الله الشيخ محمّد صادق السعيدي الكاشمري ﵀.

٣ ـ في سوريا: آية الله السيّد علي مكّي العاملي (دام ظلّه).

٤ ـ في لبنان: آية الله الشيخ محمّد مهدي شمس الدين ﵀.

٥ ـ في القطيف: سماحة العلّامة الحجّة الشيخ منصور البيّات ﵀[1]، وسماحة العلّامة الكبير الشيخ عبدالحميد الخطي ﵀[2]، وفضيلة العلّامة الشيخ عبدالله

---

(١) تقدّمت ترجمته في الصفحة: ١٢٨.

(٢) هو سماحة العلّامة الكبير، الحجّة الشيخ عبدالحميد الخطي ﵀، المولود عام ١٣٣١هـ في مدينة القطيف المحروسة، وفيها نشأ وترعرع تحت رعاية والده الحجّة آية الله المعظّم، الشيخ أبو الحسن الخنيزي ﵀، كما أخذ فيها مقدّمات العلوم عند تلامذة والده بإشراف وتوجيه منه.

ولما تاقت نفسه إلى السموّ والارتقاء إلى أقصى مراتب العلم والفضيلة، هاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣٥٦هـ، وأخذ السطوح العالية عند فضلاء أساتذتها، كالسيّد المقرّم والسيّد باقر الشخص والشيخ فرج العمران والشيخ عليّ الجشي والشيخ محمّد طاهر الخاقاني والسيّد نصر الله المستنبط ﵀، ثمّ حضر أبحاث الخارج عند السيّد الحمامي والشيخ عبدالكريم الزنجاني ﵏.

ولمّا توفّي والده المقدّس ﵀ رجع إلى القطيف عام ١٣٦٣هـ عاقداً عزمه على الرجوع إلى النجف الأشرف مرّة أُخرى، لولا معاكسة الظروف لنيّته، فبقي في القطيف مشتغلاً بالتدريس والتوجيه الاجتماعي، حتّى أُنيطت به مسؤوليّة القضاء الجعفري عام ١٣٩٤هـ، فكان الرجل المناسب في الموقع المناسب، حيث قام بمسؤوليّة القضاء أحسن قيام، فكانت له مواقف هامّة وحازمة في خدمة المنطقة والطائفة، كما شهد له بذلك المخالف قبل المؤالف.

وقد اختاره الله تعالى لدار كرامته في اليوم الرابع عشر من شهر المحرّم عام ١٤٢٢هـ، بعد أن امتدّت حياته الشريفة زمناً طويلاً، قضاها عالماً جليلاً، وقاضياً شجاعاً، وشاعراً مبدعاً، وأباً حانياً، فرحمه الله رحمة الأبرار، وحشره مع محمّد وآله الأطهار.

الخنيزي (حفظه الله)، وغيرهما من فضلاء المنطقة ووجوهها، كأستاذنا العلّامة الشيخ عبّاس المحروس (حفظه الله)، وكان هذا الأخير ممّن حظي بالحضور عند سماحة السيّد ﷺ والإفادة منه لمدّة سنتين أو ثلاث، كما سمعت منه.

٦ ـ في الكويت: سماحة العلّامة المرحوم السيّد جوادالعليّ الشاهرودي.

٧ ـ في البحرين: سماحة العلّامة السيّد علوي الغريفي (دام مؤيّداً).

٨ ـ في عمان: سماحة العلّامة السيّد شرف الموسوي (دام مؤيّداً).

٩ ـ في النمسا: فضيلة الخطيب الموفّق السيّد عامر الحلو (دام موفّقاً).

كما كان له وكلاء آخرون في: الباكستان، والهند، وأمريكا، وكندا، وبريطانيا، والبرازيل، والدانمارك، والسويد، والنرويج، والأحساء.

ثالثاً: مجلس فتواه

عندما كانت ترد عليه الاستفتاءات كان ﷺ يجيب عليها بنفسه، إلّا أنّه بعد أن اتّسعت مرجعيّته، وكثرت الاستفتاءات من قِبل المقلّدين، قام بتأليف مجلس للفتوى، كما عليه السيرة المتعارفة عند مراجع الدين، ويراد بمجلس الفتوى هو ذلك المجلس الذي يضمّ مجموعة من المجتهدين والفضلاء إلى جنب «المرجع المقلّد» يقومون فيه بعرض المسائل الواردة من قِبل المقلّدين، فيقوم المرجع بالإجابة عليها، ويفسح المجال لأعضاء المجلس للحوار والمناقشة حتّى يتعيّن الجواب النهائي.

وكان مجلس الفتوى للسيّد السبزواري ﷺ يتألّف من ثلاثة أعضاء:

١ ـ سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ البهشتي ﷺ[1].

---

(١) سنوافيك بترجمته ﷺ في بداية الجانب الثاني من الفصل الثاني، الصفحة ١٩١.

٢ ـ سماحة آية الله العظمى الشيخ ميرزا عليّ الغروي ﷺ[١].

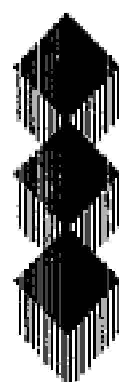
٣ ـ سماحة العلّامة الحجّة السيّد عليّ السبزواري (دام مؤيّداً).



(١) لقد فجع العالم الإسلامي برحيل هذا المرجع العظيم شهيداً على يد طاغية العراق وجلاوزته، حيث قُتل بعشرات الطلقات الناريّة التي أودت بحياته المباركة الزكيّة وهو في طريق العودة من زيارة سيّد الشهداء ﷺ إلى مدينة النجف، وذلك في ليلة الجمعة ٢٥ صفر ١٤١٩هـ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهمّ انتقم له ولأمثاله عاجلاً بظهور الطلعة البهيّة لجمال مولانا صاحب العصر والزمان (أرواحنا لتراب نعله الفداء).

وكان هذا الشيخ المقدّس ﷺ ـ المولود عام ١٣٣٤هـ ـ من كبار مراجع التقليد في مرحلة ما بعد السيّد الخوئي ﷺ، كما كان من كبار أساتذة النجف الأشرف ومدرّسيها في الفترة الأخيرة، ومن قبل ذلك كان من مبرزي تلامذة المحقّق الخوئي ﷺ، وأقوى مقرّري أبحاثه، وكان لكتابه «التنقيح في شرح العروة الوثقى» دور كبير في إبراز فقاهة المحقّق الخوئي ﷺ في مقام الإثبات.

الفصل الثاني



السيّد السبزواري قدس سره إلى عالم الملكوت

السيّد السبزواري قدس سره في كلمات الأعلام

السيّد السبزواري قدس سره في مواكب الشعراء



السيّد السبزواري ﷺ إلى عالم الملكوت

«إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء»[1]

في ليلة يوم الإثنين ـ وما أدراك ما يوم الإثنين ـ الموافق للثامن والعشرين من شهر صفر الجريح، من سنة ألف وأربعمائة وأربعة عشر من الهجرة النبويّة الشريفة، شاء الله تعالى (لعبده) المتفاني في عشقه، أن يهاجر إلى الملكوت (الأعلى) ليلتقي المحبّ بأعظم محبوب.

يقول نجله الحجّة السيّد عليّ حفظه الله: «عندما كان السيّد ﷺ يعيش أيّامه الأخيرة، كنّا قد تعوّدنا أن نجلب حليباً لسماحة السيّد ﷺ ـ من مكانٍ معيّن ـ في كلّ ليلة من ليالي مرضه.

وفي تلك الليلة لمّا جئته بالحليب ـ كما هي العادة في كلّ ليلة ـ وشرب منه ﷺ قليلاً، قال: أجد طعم الحليب متغيّراً، ممّا دعاني أن أذوق منه شيئاً، فلمّا ذقته وجدته لا يطاق.

ولم يكن في الأمر بهذا المقدار ما يوجب الإثارة، ممّا جعلني أُودّع السيّد ﷺ قاصداً إلى محلّ سكناي، غير أنّ الذي لم يكن في الحسبان أنّني بمجرّد الوصول

---

(١) بحار الأنوار: ١/٢٢٠.

إلى محلّ سكناي ، فاجئني الهاتف مخبراً بأنّ السيّد ﷺ بعد انصرافي عنه قد ساءت حالته جدّاً ، فلمّا رجعتُ إليه ﷺ وجدته يتقيّأ دماً من فمه الشريف .

وحينها تمّ استدعاء لجنة طبيّة لإسعاف السيّد ﷺ فاستطاعت إيقاف دمه الشريف عن الزيف ، غير أنّ الحال لم يدم طويلاً ، حيث عاد السيّد ﷺ إلى ما كان عليه ، وساءت أحواله للغاية .

وكان ﷺ طوال هذه الفترة مشغولاً بذكر الله تعالى وتسبيحه ، وفي الساعة الأخيرة من عمره الشريف ـ كما ينقل نجله السيّد حسين ـ أراد ولده أن يتحدّث معه ، فقال له : بني ، لا تشغلني عن ذكر الله ، وأنا في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، فقال له : ولمن تترك الشيعة والمؤمنين ؟ فقال له : أبلغ المؤمنين أنّي أدّيتُ ما عليَّ من الواجب تجاه الحضرات ، وبقي عليهم أداء واجبهم .

وفي هذه الأثناء احتضر ﷺ وعرجت روحه الطاهرة إلى عالم الملكوت ، راضية مرضيّةً ، بعد عمر مبارك ، وحياة طيّبة ، طواهما ﷺ بالعلم والعبادة والعمل .

وفي صبيحة يوم الإثنين أصرّ جلاوزة النظام البائد على نقل جنازته الشريفة إلى حرم أمير المؤمنين ﷺ ، ولم يُسمح بتشييعه إلّا في حدود الحرم العلوي الشريف ، وهناك صلّى على جسده الطاهر سماحة آية الله العظمى السيّد البهشتي ﷺ ، وبعدها نُقل إلى المقبرة التي أعدّها لنفسه ، بجوار مسجده ومصلّاه الذي عمّره بالعلم والعبادة وخدمة الشرع الشريف ، ووُريَ الثرى فيها .

وكان لنبأ وفاته وقعٌ مؤلمٌ جدّاً ، تأثّر له العالم الشيعي ، فنعته الحوزات العلميّة ، وأبّنه المراجع العظام ، وفي طليعتهم المرجع الديني الكبير ، سماحة آية الله العظمى ، الراحل المقدّس ، السيّد محمّد الروحاني ﷺ[1] ، حيث أصدر بياناً تأبينيّاً

---

(١) هو سماحة آية الله العظمى ، عملاق الفكر الأُصولي ، الفقيه المحقّق ، السيّد محمّد الحسيني الروحاني ﷺ ، المولود عام ١٣٣٨هـ ، والمتوفّى عام ١٤١٨هـ ، هاجر إلى ⇦

جاء فيه : أتقدّم بالتعزية إلى ساحة قدس مولانا الحجّة صاحب الزمان (أرواحنا فداه) والحوزات العلميّة ، بفقدنا خادماً من خدّام الشريعة ، وأنعى للأمّة الإسلاميّة وأعزّيها بفقد علمٍ من أعلامها ، ومرجع من مراجعها العظام ، كما أعزّي أسرة الفقيد الراحل ، تغمّده الله برحمته ، وألحقه بآبائه الطاهرين الأئمّة الميامين ، ووفّقنا للسير على منهاج علمائنا الماضين (رضوان الله عليهم أجمعين) ، والالتزام بتعاليم الأئمّة الهداة المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين) ، ألهمنا الله وجميع المصابين الصبر ، وأجزل لنا ولهم الأجر .

محمّد الروحاني ٢٨/ صفر المظفّر /١٤١٤هـ»[١]

⇦ النجف الأشرف وتتلمذ على عمالقة أساتذتها ، كالمحقّق الأصفهاني ﷺ والشيخ محمّد عليّ الكاظمي ﷺ والمحقّق الخوئي ﷺ ، حتّى أصبح من كبار مدرّسيها المعروفين ، ومقصداً لفضلاء الحوزة المميّزين ، كسماحة آية الله العظمى الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر ﷺ ، وآية الله الشهيد السيّد عبدالصاحب الحكيم ﷺ ، وغيرهما كثير ممّن استفاد من محضره الشريف ، وقد طالته حملة التسفير الغاشمة ، فترك النجف مرغماً وهاجر إلى قم المقدّسة ، وواصل فيها البحث والتأليف وتربية الفضلاء ، ولمّا توفّي أستاذه الخوئي ﷺ توجّهت إليه الأنظار ، وطلبته المرجعيّة ولم يطلبها ، فتصدّى لها حتّى أصبح من وجوه مراجع الطائفة في مرحلة ما بعد السيّد الخوئي ، وقام بها أحسن قيام ، حتّى اختاره الله لدار كرامته .

(١) وقد قدّم مكتب السيّد الروحاني لهذا البيان بمقدّمة تستحقّ التسجيل ، وإليك نصّها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُون

بمزيد من الحزن والأسى ننعى إلى العالم الإسلامي بوجه عامّ ، وإلى الطائفة الشيعيّة في العالم بوجه خاصّ ، رحيل المرجع الديني ، آية الله العظمى ، السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ ، الذي كان بحقّ علماً من أعلام الحوزة العلميّة ، وسنداً وذخراً للطائفة الشيعيّة ، وكهفاً منيعاً للمظلومين المضطهدين في العراق . ⇦

وقد أرّخ وفاته مجموعة من الشعراء، كان منهم العلّامة الراحل الشيخ عبدالغفّار الأنصاري ﷺ الذي أرّخه بقوله:

القلبُ يسعرُ في آلامه ناراً والدمع في فقده ما زال مدرارا
وحوزة الدين قد أضحت منائرها تردّد الحزن أدواراً وأطوارا
بفقدها العابد الأعلى الذي احتفلت به الشريعة قديساً ومختارا
مصائب جمّة أرّختهن: لها خطب ألمّ بسور الدين فانهارا

وكذا أرّخه بقوله:

العابد الأعلى الذي في خطبهِ ليلُ الرزايا في البلاد مخيمُ
عرجت إلى أعلى الجنان بروحه نفحات قدس سرّه لا يُعلم
عظم المصاب به فقلت مؤرّخاً بمصابه أجر الجميع يعظمُ

وختاماً نقول: السلام على سيّدنا السبزواري ﷺ يوم وُلدَ في عيد الغدير الأغرّ، والسلام عليه يوم فاضت روحه الطاهرة إلى عالم الملكوت، يستقبلها الرسول الأعظم ﷺ في يوم وفاته، والسلام عليه يوم يبعث حيّاً، وكتابه بيمينه، مستبشراً عند أجداده الطاهرين ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

⇦ أجل.. لم يمرّ أكثر من عام على رحيل زعيم الطائفة الأكبر، ومرجعها الأعلى، السيّد الخوئي ﷺ، الذي أثكل الأمّة بفقده، حتّى فقد العالم الإسلامي ركناً آخر من أركانه، وعلماً كبيراً من أعلامه، في ظروف حسّاسة وراهنة، تكون الأمّة في أمسّ الحاجة إلى أمثال هؤلاء الأماثل الأماجد، وممّا لا يخفى على أحد تضحيات وتفاني سيّدنا الراحل في سبيل تعزيز حوزة النجف الأشرف، وحفظ كيانها، ودعم الحوزات الأخرى، ومتابعة عمله العلمي حتّى في أخريات حياته الشريفة، وموقفه المشرّف في مواجهة الظالمين في تحدّياتهم للنجف الأشرف والعراق وكيان الإسلام.

السيّد السبزواري قدس سره في كلمات الأعلام



كلمة سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ البهشتي رحمه الله[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] صدق الله العليّ العظيم

---

(١) هو قدوة الفقهاء الشامخين ، وآية الورع والزهد والتقوى والفقاهة ، سماحة آية الله العظمى السيّد عليّ البهشتي (طيّب الله ثراه). المولود عام ١٣١٩هـ، وعلى ضبط آخر عام ١٣٢٤هـ، تخرّج على عمالقة الفقه وأساطين الأصول ، كالمحقّق العراقي والشيخ الكاظمي والسيّد الميلاني والسيّد عبدالهادي الشيرازي والسيّد الخوانساري (قدّس الله أسرارهم) ، حتّى عُدّ من وجوه المجتهدين ، فاعتمده السيّد أبوالحسن الأصفهاني رحمه الله في مجلس إفتائه ، ⇦

---

(٢) إبراهيم ١٤: ٢٤ و ٢٥.

والحمد لله تعالى

إنّ الكلمة الطيّبة هي ذات الشريعة المقدّسة ، وهي كشجرة طيّبة الذات ، باعثة للحياة ، امتدّت جذورها الواهبة للحياة في عرض الأرض ، ونشرت فروعها وأوراقها المثقلة بالنعمة إلى عنان السماء ، كي ينعم كلّ ذي نفس ، وكلّ إنسان مبارك باستمرار ـ بمشيئة حضرته (سبحانه وتعالى) ـ من ثمرات حياتها اللذيذة .

ومن أجل أن تثمر هذه الشجرة المباركة ، حاز رسوله العظيم في بداية الخلق والوجود شرف قبول قضائه ، وعمل في حياته المليئة بالجدّ والجهاد ، بلياقة واستعداد ، دون بخلٍ أو رقادٍ ، على إعمارها وإثمارها ، وجعل ثمارها اللذيذة دوماً في متناول المجتمع البشري ، ثمّ سلّم أمر حمايتها ورعايتها حين حلّ زمان رحيله إلى مَن حلّ محلّه من أهل بيته الكرام ذوي الأرواح الطاهرة ، خزائن الحكمة ، وربيبي العصمة ، فبذلوا قصارى جهدهم في السرّ والعلن ، على مدى حياتهم الحافلة بالأخطار والمحن ، والمليئة بالأعداء والفتن ، الذين أرادوا لهم أن يبتعدوا عن رعاية هذه الشجرة الطيّبة ، والحفاظ على حياتها مستمرّة قائمة .

وانكبّوا عليهم السلام على تربية أصحاب جديرين ، وخُلّص مجدّين ، وفاحصين لاستمرار ازدهار وإثمار هذه الشجرة .

⇦ وتبعه في ذلك السيّد عبدالهادي الشيرازي رحمه الله ، ثمّ اختصّ بالمحقّق الخوئي رحمه الله فكان أحد أركان مجلس فتياه ، وبعد رحيله حضر مجلس فتيا السيّد السبزواري رحمه الله .

وقد توجّهت إليه الأنظار بعد وفاة السيّد الخوئي رحمه الله وتطلّع الجميع إلى مرجعيّته ، بل حتّى بعض المراجع كالسيّد الروحاني رحمه الله ـ الذي كان يتباحث معه لمدّة ثلاثة عشر عاماً ـ قد رفض التصدّي للمرجعيّة ما دام السيّد البهشتي متصدّياً ، إلّا أنّه رحمه الله قد نأى بنفسه عنها ، وبقي يعيش حياته بين العبادة والمطالعة والإشراف على أبحاث وكتابات معاصريه من المراجع التي كانت تعرض عليه ، حتّى توفّي في اليوم العاشر من شهر ربيع الأوّل من سنة ١٤٢٤هـ.

ومن هذا المنطلق : فإنّ ثمرات تلك الجهود اقترنت بالنصر في كلّ زمن وعصر ، وظلّت مبذولة للباحثين عن الحقيقة وسالكي طريق الشريعة ، ثابتة وواضحة ، ومنزّهة ومتقنة ، لا تستطيع أفكار الغرباء والبعداء الوصول إليها ، وبقيت مستمرّة في مجتمع لامع بالفحص والتمحيص ، مشغولة على الدوام بالبحث والتدريس .

وفي عصرنا هذا ، وهو زمن ازدهار قواعد عصر الغيبة وعصر اختفاء المصلح ، ذي الهيبة العظيمة ، وحافظ الدين ، حامي حمى الاعتقاد بالحقّ واليقين ، جُعلت هذه الصلاحية في البدر العظيم القدر لطالبي الهداية ، والسيّد ذي المنبت المبارك ، صاحب الطبائع الملائكيّة ، الآية الكبرى ، والحجّة العظمى ، الحاجّ السيّد عبدالأعلى السبزواري الموسوي (خُلّد ذكره السوي) ، وهو مصدر تعليم الفقاهة ، والجوهرة الساطعة للنباهة ، صاحب مبادئ التحقيق ، وناخب دورة الفقه الكاملة على نحو دقيق ، من أوّل بابها الشريف حتّى الأخير ، على نحو مرغوب وقدير ، وفروع مهذّبة وظاهرة ، مأخوذةٍ من الكتاب والسنّة ، والموازين المتّبعة من أساطين الأمّة ، وتحقيقات جامعة في الأصول الفقهيّة للمذاهب اللامعة .

وهو صاحب المسيرة المليئة بالبركة والخير ، لمرحلة تفسيره منقطع النظير ، الذي تمّت مسودّته ، وتزيّنت بالطبع والنشر مجلّدات من مبيضّته ، يستفيد منها الآن مجتمع المحافل العلميّة اللامع ، وهناك أمل سديد ، بأن يُبذل من الجهد المزيد لتهيئة مبيضّة معدّة عن بقيّة المسودّة ، ووضعها بين يدي مشتاقي شروح الآيات المحكمة الصفات .

إنّه لمن دواعي شديد الأسف أن يخيّم الحرمان الباعث لمزيد من الحزن على الجميع في هذا الزمن المضطرب ؛ إذ رحلت ثروة الحياة العظمى هذه بصورة مفاجئة من بين جميع الباحثين عن الأطهار ، وسالكي طريق السعادة .

وأن يسحب الراحل أحبّاء هذه الروضة إلى وادي الحسرة والحيرة ، ويصل بنفسه

إلى المحفل النوراني لعالم الرحمة والغفران ، بعيداً عمّن يتمنّى إدراك النور ، كي يكون فرحاً ومستقرّاً بمشيئة الخالق الرحمن في رحمته الواسعة ، وفردوسه ورضوانه مع أجداده الطاهرين ، وأسلافه الصالحين ، ذوي المقام المنيع ، والشأن الرفيع .

إنّ هذه المجموعة الكبرى ممّن نهل من منهله ، وفي هذه الدنيا البعيدة عن مصدر المبادئ السعيدة ، يبثّون تعازيهم بقلب آسف ، برحيل هذه الروح الطاهرة ، والجوهرة الباهرة ، إلى أصحاب العزاء في هذا البيت ، على الأخصّ خلفه ، ومن حلّ محلّ ذلك القمر المنير ، ومن كانوا نور بصره من الأعلام المحترمين ، وعامّة مَن نهل من فيض علومه ، سائلين المحضر الذي لا يناله زوال المنّان المتعال ، دوام قوام هذه الشجرة الطيّبة الأبديّة المنال ، حامدين لحضرته إجابة هذه الإنابة ، سائلين تذييل هذه النعمة بتعجيل فرج كفيل الأمّة ، وأصيل الحجّة ، وكثرة البهجة ، متضرّعين إلى القادر المتعال دوام الخدمة في حضرة ذلك العظيم أكثر وأفضل .

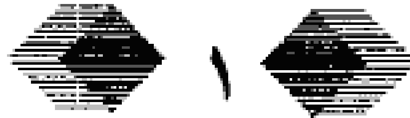
والحمد لله ربّ العالمين[١]

(١) الكلمة مستفادة من الملفّ المخطوط لمجلّة الموسم الخاصّ بالسيّد السبزواري ﷺ مع نحو من التصرّف .



كلمة سماحة العلّامة الشيخ باقر شريف القرشي (دام ظلّه)[١]

بسم الله الرحمن الرحيم



الإمام السبزواري.. صفحة مشرقة في تاريخ المرجعيّة الإسلاميّة

وقبل الحديث عن الإمام السبزواري نضّر الله مثواه، وما لشخصيّته الفذّة من مآثر وآثار جعلته في قمّة العظماء من علماء المسلمين ومراجعهم، نعرض بصورة موجزة إلى المرجعيّة العامّة عند الشيعة الإماميّة، وبيان أوصاف من يتقلّدها، ومسؤوليّاته، وما يسديه إلى المجتمع من خدمات، وغير ذلك ممّا يرتبط بالموضوع، ومن الطبيعي أنّ إلقاء الضوء على المرجعيّة هو مفتاح الحديث عن شخصيّة الإمام السبزواري، فقد تقلّد هذا المنصب الخطير الذي هو من أهمّ المراكز الاجتماعيّة، وقام بإدراته وشؤونه خير قيام، وفيما يلي ذلك:

معنى المرجعيّة

أمّا المرجعيّة فمعناها النيابة العامّة عن إمام العصر قائم آل محمّد ﷺ الذي تشرق بظهوره الدنيا، فيقيم الحقّ، ويسحق الباطل، وينشر العدل بجميع رحابه ومفاهيمه، وقد أوكل الإمام ﷺ بعد غيبته الكبرى إلى الفقهاء الممجدّين قضايا

---

(١) الكلمة مستفادة من الملفّ المخطوط لمجلّة الموسم الخاصّ بالسيّد السبزواري ﷺ.

المسلمين ومسائل الدين ، وقلّدهم وسام النيابة العامّة عنه ، ليحكموا بين الناس بما أنزل الله تعالى ، وألزم المسلمين بأخذ أحكام دينهم منهم ، والرجوع إليهم فيما شجر بينهم من خلاف ، وليس للمسلمين مخالفة أحكامهم ، والردّ عليهم حسبما دلّت عليه الأخبار.

صفات المرجع

ويجب أن تتوفّر في المرجع العامّ جميع الصفات الكريمة ، والمثل العليا من العلم والشجاعة ونكران الذات ، والإحاطة التامّة بقضايا الدين . . . ، وقد نصّ الفقهاء على بعض الشروط الأوّليّة التي يجب أن يتّصف بها المرجع وغيره من المجتهدين وحكّام القضاء ، وهي :

١ ـ **الذكورة:** ولا بدّ أن يكون المرجع ذكراً ، كما يجب ذلك في القاضي وإمام الجماعة للرجال ، فلا يجوز للمرأة أن تتصدّى لهذه المناصب ، لا للحطّ من قيمتها وشأنها ، فقد أحاطها الإسلام بهالة من التقدير والتكريم ، وإنّما لعجزها الذاتي ، وعدم قدرتها على تحمّل المسؤوليّة وأداء وظائف هذه المناصب على الوجه الكامل ، فهي بحسب تكوينها السيكلوجي عاجزة عن القيام بمثل هذه الوظائف الخطيرة.

٢ ـ **العقل:** من الشروط الأوّليّة التي يلزم أن تتوفّر في المرجع : العقل ، الذي هو من أسمى الهبات التي وهبها الله تعالى للإنسان ، أمّا فاقد العقل فلا يصلح لأي منصب من المناصب الدينيّة وغيرها ، وهو أحد الذين رُفع عنهم القلم وسقط عنهم التكليف.

٣ ـ **الإيمان:** ومن أهمّ الصفات التي يجب أن يتحلّى بها المرجع : الإيمان والتقوى ، وأن تشرق نفسه ودخائل ذاته بمعرفة الله تعالى وطاعته ، وإذا بلغ الشخص أعلى درجة من الاجتهاد وهو غير مؤمن فلا تجوز مرجعيّته وتقليده ،

ولا الترافع إليه، وإذا حكم بحكم فهو غير نافذ على الاطلاق.

٤ ـ **العدالة:** أمّا العدالة فهي من العناصر الأساسيّة في المرجع، ونعني بها أن تكون عنده ملكة تصدّه عن اقتراف الذنوب وارتكاب الموبقات، وإنّما تحصل الملكة عنده بترويض نفسه على تقوى الله وطاعته، فيجعله نصب عينيه في جميع تصرّفاته وشؤونه، فلا ينساب وراء الأهواء والعواطف، فلا يقدّم قريباً على بعيد، ولا قوماً على آخرين، وإنّما يساوي بين الجميع حتّى في اللحظة والنظرة، حتّى يحكي بذلك سيرة أئمّة أهل البيت ﷺ الذين كانوا المثل الأعلى لكلّ فضيلة خلقها الله تعالى.

٥ ـ **الاجتهاد:** ولا بدّ في المرجع أن يبلغ أسمى مراتب الاجتهاد، وعرّف الاجتهاد بأنّه «استنباط الحكم الشرعي من مداركه المقرّرة»، فإذا عرضت على المرجع أية مسألة من المسائل الشرعيّة من العبادات والمعاملات، وسائر المسائل المستحدثة، يكون قادراً على استنباط حكمها من الأدلّة الاجتهاديّة وغيرها، ويفتي بذلك على ضوئها، وللاجتهاد نوعان، وهما:

الاجتهاد المطلق: وهو أن يجتهد الفقيه بجميع أبواب الفقه، وتكون له القدرة التامّة على استنباط أي حكم شاء منها.

التجزّي في الاجتهاد: وهو الاجتهاد ببعض أبواب الفقه دون بعض، فيجتهد الفقيه ـ مثلاً ـ بالصلاة والزكاة والصوم دون غيرها من أبواب الفقه، وهذا لا تجوز مرجعيّته.

وقد عرضت مصادر الفقه بصورة موضوعيّة وشاملة إلى البحث عن شؤون الاجتهاد، ومن الجدير بالذكر أنّ الاجتهاد عند الشيعة الإماميّة مفتوح، وهو ممّا يدلّل على تطوّر الفقه الشيعي ومسايرته للزمن، ومعالجته لجميع المسائل المستحدثة، وهذا ممّا يدعو إلى إكباره، وقد طالب جماعة من علماء الأزهر وغيره

بضرورة فتح باب الاجتهاد اقتداءً بعلماء الشيعة ، وأكّدوا أنّ غلقه يوجب تجميد الفكر وتعطيل قواه في استنباط الحكم الشرعي .

وعلى أي حال ، فإنّ فتح باب الاجتهاد عند الشيعة دليل على إبداع فقههم وأصالته ، وإنّه لم يقف مكتوفاً أمام المسائل المستحدثة ، وإنّما له رأيه الحاسم فيها .

انتخاب المرجع

أمّا انتخاب المرجع العامّ ، وتعيينه قائداً عاماً للأُمّة ، فهو بيد الفقهاء والعلماء من المتحرّجين في دينهم ، فهم الذين ينتخبونه بعد اطّلاعهم التامّ على تقواه وورعه ، وقدراته العلميّة ، فإذا توفّرت الشروط المطلوبة أرشدوا الأُمّة إلى تقليده ومرجعيّته .

مسؤوليّاته

أمّا مسؤوليّات إمام الأُمّة ومرجعها فهي شاقّة ومرهقة ، وتحتاج إلى عناية من الله ورعاية منه ليقوم بتأديتها ، وهذه بعضها :

١ ـ السهر على مصالح المسلمين من دون فرق بين طوائفهم وقوميّاتهم ، فهو أب للجميع يرعى شؤونهم ، ويذبّ عن حماهم ، ويناجز عدوّهم ، ويدافع عن أوطانهم إذا تعرّضت للغزو من قِبل القوى المعادية للإسلام ، وكان من بين مواقف المرجعيّة في النجف الأشرف ، أنّها وقفت إلى جانب الشعب الليبي المسلم حينما تعرّض للغزو الإيطالي الصليبي ، فقد أفتى المراجع والعلماء بمناصرة الشعب الليبي ، وجهاد أعدائه ، وكذلك وقفت إلى جانب الشعب الفلسطيني حينما احتلّ الصهاينة فلسطين بتأييد ودعم من القوى الاستعماريّة في الغرب ، فهبّ علماء النجف وفقهاؤهم فأفتوا بالجهاد ودعوا المسلمين إلى مناصرة إخوانهم الفلسطينيّين ، ودحر القوى المعادية لهم .

إنّ المرجعيّة العامّة مصدر فيض وعطاء لجميع المسلمين ، لا تتحيز ولا تتعصّب لفئة دون أُخرى ، وإنّما تتبنّى مصالح المسلمين في جميع أقاليمهم وأوطانهم .

٢ ـ ومن مسؤوليّات المرجعيّة العامّة القيام بشؤون الحوزات العلميّة الدينيّة، والمنتمين إليها، والإنفاق عليهم بما يسدّ حاجتهم، ولا يجعلهم في ضائقة اقتصاديّة، فيرعاهم المرجع كما يرعى أبناءه وأسرته، كما يقوم بإلقاء المحاضرات في الفقه والأُصول على تلاميذه، بالإضافة إلى تنشيط الحركة العلميّة، وتأسيس المدارس الدينيّة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وغيره.

ومن بين ما تقوم به المرجعيّة الإنفاق على الفقراء والبؤساء، والبرّ بهم، ومساعدة المحتاجين إلى الزواج، إلى غير ذلك من ألوان البرّ بالناس... هذه بعض مسؤوليات المرجعيّة عرضنا لها بصورة موجزة.

واردات المرجعيّة

أمّا واردات المرجعيّة فهي كواردات دولة، وذلك لما يرد إليها من الحقوق الشرعيّة الهائلة التي يدفعها المؤمنون من أبناء الطائفة الشيعيّة، ولا أظنّ أنّ طائفة في العالم تنفق في أداء الواجب، وفي سبيل الله، وخدمة الدين، كما تنفق الطائفة الشيعيّة، ومن بين واردات المرجعيّة ما يلي:

الخمس: وهو واجب عند الشيعة الإماميّة، ويجب في سبعة أُمور ذكرها الفقهاء، ومن أهمّها ما يفضل عن مؤنة سنة الشخص له ولعياله من فوائد الصناعات والزراعات والتجارات والإجارات وحيازات المباحات، وغير ذلك، ممّا ذكره الفقهاء.

والخمس ينقسم إلى قسمين، وهما:

١ ـ حقّ الإمام ﵇، ويجب دفعه إلى المرجع في حال غيبة الإمام لينفقه على المشاريع الدينيّة، والتي منها تأييد الشريعة وخدمة الإسلام.

٢ ـ حقّ السادة، زادهم الله شرفاً، ويدفع إلى فقراء العلويّين، وقد عرضت بصورة شاملة رسائل الفقهاء إلى تفصيل الخمس، وبيان مصرفه ومستحقّيه.

الزكاة: ومن بين واردات المرجعيّة الزكاة، وهي أحد الأركان التي بُني عليها الإسلام، وقد شرعت لمكافحة الفقر، واستئصال البؤس والحاجة من المجتمع الإسلامي، ولشيوع المحبّة والمودّة بين فقراء المسلمين وأغنيائهم، وتجب الزكاة فيما يلي:

١ ـ **الأنعام الثلاثة:** الإبل، والبقر، والغنم، إذا كانت خاضعة للنصاب، وكانت سائمة طول الحول، ومضى عليها حول كامل.

٢ ـ **النقدان من الذهب والفضّة،** ويشترط فيهما أن يكونا مسكوكين بسكّة المعاملة، ومضى عليهما حول، وبلوغ النصاب.

٣ ـ **الغلات الأربعة:** الحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب، ويشترط فيها بلوغ النصاب، وتفصيل ذلك بصورة شاملة ذكره الفقهاء في رسائلهم العمليّة.

ما يوصي به المؤمنون: ومن واردات المرجعيّة ما يوصي به المؤمنون من إخراج ثلث أموالهم بعد وفاتهم، ودفعه إلى المرجع العامّ لينفقه في المبرّات والخيرات وغيرهما... وبالإضافة إلى هذه الأمور: النذور والكفّارات والأوقاف العامّة وغيرها.. هذه بعض واردات المرجعيّة ذكرناها على سبيل الإجمال.

عدم ارتباط المرجع بالدولة

والظاهرة الفذّة التي تدعو إلى الاعتزاز بالمرجعيّة العامّة عند الشيعة الإماميّة عدم ارتباطها بالدولة، وانفصالها عنها اقتصاديّاً وفكريّاً، فلم تخضع بأي حال لرغبات السلطة ومخطّطاتها السياسيّة، وإنّما هي حرّة ومستقلّة في جميع تصرّفاتها وشؤونها، وقد استطاعت في كثير من الأحيان أن تعلن رأيها الصريح في معارضة الدولة فيما إذا سنّت بعض القوانين المجافية لروح الإسلام، فقد أعلنت رأيها الحاسم في كفر الشيوعيّة وإلحادها، وكانت فتواها بذلك من أقسى الضربات الموجعة التي واجهتها الشيوعيّة العالميّة، فقد منيت بنكسة أدّت إلى إنهيارها في

العالم الإسلامي والعربي .

وقد اقتدى علماء الشيعة في انفصالهم عن الدولة وبعدهم عنها ، بالأئمّة الطاهرين ﷺ الذين كانوا يمثّلون الجبهة المعارضة للحكم القائم في عصورهم ، الذي لم يكن بأي حال يلتقي مع الإسلام في مخطّطاته السياسيّة والاقتصاديّة ، فقد أشاع ملوك الأمويّين والعبّاسيّين الظلم والجور ، وأرغموا الناس على ما يكرهون ، فكان موقف أئمّة أهل البيت ﷺ معهم متّسماً بالمعارضة والتنديد ، فتعرّضوا (سلام الله عليهم) إلى سخط أُولئك الملوك والتنكيل بهم .. وقد أراد المنصور الدوانيقي أن يستدرج الإمام الصادق ﷺ رائد الحركة العلميّة والفكريّة في الإسلام ويجعله من حاشيته ، فكتب إليه :



لِم لا تغشانا كما يغشانا سائر النّاس ؟

فأجابه الإمام بصراحة : « **ليس عندك من الآخرة ما نرجوك له ، وليس عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا أنت في نعمة فنهنّيك عليها ، ولا تراها نقمة فنعزّيك ، فما نصنع عندك** » .

لقد أجابه سليل النبوّة بالرفض الكامل لمزاملته ، والانضمام إليه ، فلم يكن الإمام برجوازيّاً ـ كما في لغة العصر ـ حتّى يخاف على عماراته وأمواله من مصادرة المنصور إذا لم يأتِ لزيارته ، كما أنّ المنصور لم يكن من رجال التقوى حتّى يتقرّب الإمام ﷺ إلى الله تعالى بزيارته .. وحاول المنصور أن يخدع الإمام فكتب إليه ثانياً :

إنّك تصحبنا لتنصحنا .

ورفض الإمام طلبه ، فأجابه : « **مَن أراد الدنيا فلن ينصحك ، ومن أراد الآخرة فلن يصحبك** » .

وحفل جواب الإمام ﷺ بالحجّة القاطعة التي لا مجال للتشكيك فيها ، فإنّ من يريد الدنيا وزينتها ، ويتّصل بالسلطة ، فإنّه لا ينكر عليها ما تقترفه من ظلم وجور ،

وإنّما يكون مسدّداً لها ، حفظاً على مصالحه ، وأمّا من يريد الآخرة ويرجو ثواب الله ، فإنّه يهرب من السلطة خوفاً على دينه .. ولمّا انتهت رسالة الإمام إلى المنصور بهر منها ، وراح يقول :

والله لقد ميّز عندي من يريد الدنيا ممّن يريد الآخرة ، وأنّه ممّن يريد الآخرة لا الدنيا .

وعلى أي حال ، فقد سارت المرجعيّة عند الشيعة على هذا الخطّ ، فابتعدت عن السلطة كأشدّ ما يكون الابتعاد ، وبذلك فقد كانت معرضاً لسخطها ونقمتها .



ونعود بعد هذا العرض الموجز عن المرجعيّة إلى الحديث عن سماحة الإمام السبزواري نضّر الله مثواه ، فقد كان عطاءً متواصلاً للفكر الإسلامي ، ومنبعاً أصيلاً للحياة العلميّة في دنيا الإسلام ، وذلك بما نشره بين الناس من طاقات علميّة نديّة تعمل على تنمية الفكر ، وتهذيب الأخلاق ، وتنمية السلوك .. كما كان قاعدة مشرقة لهدي الإسلام وروحانيّته ، فقد تجسّدت في سلوكه جميع القيم الأصيلة ، والمُثل العليا التي يسمو بها هذا الكائن الحيّ من بني الإنسان .. ونتحدّث ـ بإيجاز ـ عن بعض صفاته وشؤونه التي كان بها في قمّة العظماء من بناة التاريخ والمجد لأُممهم وشعوبهم ، وفيما يلي ذلك :

مظاهر شخصيّته

وتحلّى الإمام السبزواري بجميع الفضائل ، والصفات الكريمة ، فقد كانت ـ بالإجماع ـ من عناصره ومقوّماته ، ونقتطف شذرات منها ، وهي :

سموّ الأخلاق : من مميّزات الإمام السبزواري : سموّ الأخلاق ، ونكران الذات ، فقد كان على جانب عظيم من معالي الأخلاق ، مقتدياً بجدّه رسول الله ﷺ الذي

امتاز على سائر النبيّين بسموّ أخلاقه .

وكان ﷺ رحب الصدر ، منبسط الوجه مع الجميع ، ولم نؤثر عنه أنّه قابل أحداً بإساءة ، أو جرح عاطفة إنسان ، وإنّما كان مثالاً للخلق الكريم في جميع فترات حياته.

ومن معالي أخلاقه أنّه في أيّام مرجعيّته التي كثرت فيها أشغاله كان يأتيه طالب علم مبتدئ فيسأله عن أبسط المسائل فيرحّب به ، ويجيبه عنها ، وكان يوعز لأبنائه وحاشيته بالسماح له والترحيب به ، وهذا من آيات أخلاقه ، وتشجيعه للعلم .

السخاء : كان ﷺ نديّ الكفّ ، لا يعرف للمال قيمة سوى ما يردّ به جوع جائع ، أو يكسو به عارياً ، وكان يوصي أولاده بالتجاوب التامّ مع الفقراء ، والعطف عليهم ، وأن لا يردّوا أي سائل ، وأن لا يخرج أي فقير من داره إلّا وهو مسرور ناعم البال ، ومن المؤكّد عند جميع الأوساط الذين عرفوه أنّه لو بقي لأنعش الفقراء ، وبدّل بؤسهم بنعيم ، وقد شابه بهذه الظاهرة أجداده العظام أئمّة أهل البيت ﷺ الذين كانوا آيات للسائلين ، وملجأً لكلّ محروم وفقير.

الورع والتقوى : ومن مظاهر شخصيّة الإمام السبزواري الورع والتقوى ، فكان من أعبد الناس ، وكان لسانه في معظم أوقات فراغه رطباً بذكر الله ، فلم يترك نافلة ـ فيما يقول أبناؤه ـ ولا مستحبّاً إلّا أتى به ، وهذه سمة أهل البيت الذين أخلصوا لله تعالى كأعظم ما يكون الإخلاص .

رحم الله الإمام السبزواري لقد كان من أروع أمثلة المتّقين والصالحين ، وقد انطوت حياته بتقوى الله وطاعته ، فقد سار على منهج الأئمّة الطاهرين (سلام الله عليهم) متحرّجاً في دينه ، مطيعاً لأمر الله ، مبتغياً رضوانه تعالى .

قدراته العلميّة

ولم يخلد الإمام السبزواري في حياته إلى الراحة والسكون ، وإنّما كان مجدّاً ونشطاً في تحصيل العلوم ، حتّى برز في ساحة العلماء كأعظم عالم ومجتهد ، وذلك

بما قدّمه للنّاس من تراث علمي به عرف فضله ، وقد قيل : « من تراثهم تعرفونهم » ، وكان من أعظم ثرواته العلميّة ما يلي :

مهذّب الأحكام : وهو أعظم موسوعة في فقه أهل البيت عليهم السلام تناولت جميع أبواب الفقه ، وحفلت بحشد هائل من الفروع الفقهيّة ، والمسائل المستحدثة ، وتميّزت بعرض شامل لآراء الفقهاء مع ذكر أدلّتهم في المسائل ، ومناقشة بعضها بدقّة مع إبداء رأيه والاستدلال عليه .

كما تميّزت هذه الموسوعة بالوضوح التامّ ، وعدم التعقيد والغموض ، فكانت شبيهة في أُسلوبها بالحدائق الناضرة للمحقّق الكبير البحراني .

وعلى أي حال ، فإنّ مهذّب الأحكام من أروع الكتب الاستدلاليّة التي ظهرت في هذا العصر ، وسيكون له شأن كبير في المستقبل ، وذلك لما أودع فيه الإمام السبزواري من الإبداع والتحقيق في جميع أبوابه .

مواهب الرحمن : وهو موسوعة كبرى ، ودراسة موضوعيّة وشاملة لكتاب الله العزيز ، عرض فيه لجميع ما يتعلّق بالقرآن الكريم من بحوث روائيّة وفلسفيّة وفقهيّة وأخلاقيّة ولغويّة ، كلّ ذلك بأُسلوب رائع رصين ، خالٍ عن الغموض والتعقيد ، وقد دلّل على تضلّع الإمام السبزواري قدس سره وبراعته في كثير من العلوم ، وأنّه لم يكن متمرّساً في علم الفقه والأُصول فحسب ، وإنّما هو دائرة معارف ، قلّ أن يوجد مثلها .

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن بعض مؤلّفات الإمام السبزواري ، الذي كان فقده من أقسى النكبات ، التي مُني بها العالم الإسلامي ، عوّض الله المسلمين عن خسارتهم ، وأجزل لأبنائه المزيد من الأجر ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

النجف الأشرف

باقر شريف القرشي

١٢ رجب ١٤١٤هـ.



كلمة سماحة الخطيب الكبير العلّامة الشيخ أحمد الوائلي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[1]

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

بمزيد من الأسى واللوعة ننعى علماً من أعلامنا، ورائداً من روّاد الحركة العلميّة، وإماماً من أئمّة الفقه، ورجلاً مجاهداً مرّت عليه هذه السنين وهو في طريق الصمود إزاء ما كان يحدث داخل العراق، كان الرجل غاية في الصلابة في موقفه، ولقد تميّز بجملة من المميّزات.

لقد عرف بالتحقيق من بواكير عمره، أذكر وأنا طفل، وكان مستأجراً أحد بيوتنا (بيت الشيخ مهدي الكاظمي) تغمّده الله برحمته بالعمارة مقابل آل الشيخ راضي، كنت أخرج صباحاً ـ وأنا طفل ـ أذهب إلى بيت أخي، وأراه وأرى مجلسه حاشداً، لأنّ باب البرّاني مفتوح، فأرى رجالاً من الحوزة ومن طلاب العلم يتوافدون على مجلسه حيث كان يتولّى تدريسهم.

وفيما بعد كانت لنا به صلة أيضاً، حيث سكن في بيت آخر لنا بالكوفة ـ إلى أن ألجأونا إلى إخراجه منه ـ مقابل بيت السيّد الخوئي ﷺ، وكان يجلس به، فكنت على

---

(١) البقرة ٢: ١٥٦ و ١٥٧.

تماس بسماحته إلى حدّ ما ، وكان يتميّز بميزات عدّة ، منها :

أوّلاً : أنّه كان كثير الصمت (تغمّده الله برحمته) ، قليل الكلام ، كما أنّ كلماته كانت في غاية الانتقاء والروعة .

ثانياً : عرف في بواكير عمره بتدريس الحكمة الإلهيّة ، فكان بارعاً فيها ، وانعكست في مؤلّفه الثمين « مواهب الرحمن في تفسير القرآن » ، والقارئ لهذا التفسير يلمس الروح العرفانيّة العالية في أداء السيّد ﷺ .

وثالثاً : أنّه عرف بالصلابة في رأيه ، فكان لا يحيد عن رأيه ، ومرّت هذه النكبات ، وهو المعروف بمعارضته للأوضاع السياسيّة ، وتعرّض فيها إلى كثير من الضغوط فما لان ولا انهار أبداً .

وقد واصل مسيرته العلميّة ، فإنّ له الباع الطويل في الفقه ، وله الباع الطويل في التفسير ، وكان من المأمول أن يمدّ الله في عمره ليكمل مسيرة التفسير الذي صدر منه إلى الآن أحد عشر جزءً ، والأجزاء الباقية كانت في طريقها إلى الصدور ، وهناك أجزاء أُخرى كان ينوي إصدارها .

وفي تفسيره لفتات في غاية الروعة ، وفي تفسيره عطاء غاية في الثراء ، فهو إلى جانب الفقه ، وإلى جانب الحكمة ، كان ضليعاً في التفسير ، كبيراً في الأخلاق ، وعظيماً في النفوس على خطّ آبائه الطاهرين وأجداده المنتجبين ، وقد شاء الله لهذه الحياة الحافلة الحاشدة أن تختتم في مثل هذا اليوم ، في ليلة وفاة جدّه رسول الله ﷺ ليلتحق بجَده ، بعد أن ولد في يوم غدير خمّ .

والآن وقد انتقل علم من أعلامنا ، فلله الحمد أنّ ديار عليّ والحسين وجعفر غنيّة إن شاء الله بالعطاء ، وغنية بالأفذاذ الذين سوف لن يتركوا الساحة ، بل يملأونها .

ولئن رزئنا بالتدريج في واحد بعد واحد ، ولئن تمّ رزئنا في مثل هذا اليوم بهذا الراحل الجليل ، فإنّ أملنا بالله عزّ وجلّ أن يمدّ بأعمار قادتنا الموجودين ، الإمام

الگلپايگاني (أطال الله في عمره) والإمام السيستاني (أمدّ الله في بقاه) وباقي مراجعنا الكرام، سواء في النجف أو في قم أو في غير مكان، الله وحده هو المسؤول أن يمدّ في أعمارهم، وأن يأخذ بأيديهم لنشر فكر آل محمّد، ولإكمال مسيرتهم في طريق العطاء، وفي طريق حمل هذه الأمانة والرسالة المقدّسة.

وما خلت لنا مدرسة في يوم من الأيام، وسوف لا تخلو ما دمنا في ظلال آل محمّد، وما دمنا في ربيع آل محمّد، وفي فكر آل محمّد، فالله وحده المسؤول أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الفادحة.

ولئن تعرّض ﷺ إلى الضغوط في حياته، فقد تعرّض للضغط بعد وفاته، فما سمح لجنازته بالتشييع في هذا اليوم إلّا على مستوى أفراد قلائل، ونقل من الصحن إلى المقبرة، ووُوري عند أمير المؤمنين في ظلّ حامي الحمى ﷺ.

رحم الله تلك الروح الطاهرة، وأغدق علينا شآبيب رحمته، وعزاؤنا لأئمّة المسلمين وقادتهم، وللحوزة التي نأمل أن تكون منجبة ومنجبة أكثر من واحد وواحد.

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم،

وإنّا لله وإنّا إليه راجعون[1]

---

(١) مجلّة النور: ١٤١٤/٣/٢٨هـ المصادف ١٩٩٣/٩م.



كلمة سماحة العلّامة الحجّة الشيخ حسنين الباكستاني النجفي(١)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٢)

صدق الله العليّ العظيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد أشرف المرسلين، وآله الطاهرين المعصومين، واللعنة على أعداء الله وأعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

بعد الحمد والثناء: أُحرّر هذا البيان الوجيز، امتثالاً لطلب أخي الأعزّ الأفضل السيّد ضياء السيّد عدنان الخبّاز القطيفي، في أنْ أكتب ما اطّلعت عليه وعلمت به من حياة سماحة الحجّة، آية الله العظمى السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ في أيّام حضوري في درسه، ووقت معاشرتي معه.

---

(١) تقدّمت ترجمته ضمن تلامذة السيّد ﷺ: ١٢٤.

(٢) النساء ٤: ١٣٥.

أخي العزيز: إنّ كمالات آية الله السبزواري واضحة مثل وضوح الشمس في منتصف النهار، ومعروفة بيّنة، وقلمي قاصر عن الإحاطة بفضائله العالية، ولكن من باب توضيح الواضحات، أذكر شيئاً من صفاته الكريمة، من خلال ثلاث حيثيّات:

١ ـ حيثيّة العلم.

٢ ـ حيثيّة الخدمات الخيريّة.

٣ ـ حيثيّة الخُلق العالي.

فأمّا علماً: فقد كان يجتمع فيه من العلوم الإسلاميّة ما يبهر به العقول فقهاً وأصولاً، وكفى شاهداً على إحاطته في هذين العلمين كتابه مهذّب الأحكام، حيث يحتوي على قواعد أصوليّة وفقهيّة مبرهن عليها من قِبل سماحته، وقد كشف من خلال كتابه الكثير من أسرار هذين العلمين، التي صعب على غيره دركها، وعجزت عن كنهها أفكارهم.

وأمّا في الحكمة والعرفان وعلوم القرآن، فقد كان حاوياً لجانب كبير منها، يتّضح من خلال تفسيره مواهب الرحمن.

وكانت حلقات درسه في الأصول والفقه محضراً لكبار فضلاء الحوزة في النجف الأشرف، وطريقته في إلقاء دروسه الاهتمام بأصل المسألة، ثمّ البرهنة عليها، تاركاً للفروع قليلة الفائدة أو عديمتها، وكان يقول كثيراً: «العمر قليل، فلا بدّ أن يُصرف في المطالب المهمّة، ولا يجوز صرفه في الفروع قليلة الفائدة، التي تستلزم فوت الأهمّ».

وأمّا خدماته الخيريّة: بعد غضّ النظر عن أنه قد صرف حياته في سبيل نشر العلوم الإسلاميّة، قيامه بمهمّة الإنفاق على طلبة الحوزة العلميّة في قضاء أمورهم اللازمة، وكذلك إحياؤه لمسجد الحويش الكبير، وكذلك كتاباته الفقهيّة والأصوليّة وتفسيره للقرآن الكريم، وكذلك أيضاً تربيته للكثير من طلاب وفضلاء

العلوم الدينيّة .

وأمّا خلقه الشريف: فيعجز البيان عنه ؛ لأنّه قطع حياته في ظروف صعبة ، شعارها الهدوء والتواضع ، مع الشجاعة التامّة في مواجهة هذه المصاعب .

ومن تواضعه أنّه رضي أن يسجّل اسمه مع طلاب العلوم الدينيّة في الدوائر الرسميّة ، وأن يجعل نفسه كأحدهم ، مع كونه أباً للطلاب وزعيماً من زعماء حوزة النجف ، تاركاً وراءه جميع العناوين البرّاقة .

وقليل من العلماء وأولياء الله ، الذين يحصل لهم التوفيق في أن يكونوا كاملين من جميع الجهات المذكورة ، فأغلبهم يكون كاملاً من جهة وناقصاً من جهة أو جهات أخرى .

والخلاصة: إنّ الجمع بين كلّ من العلم والخدمات الخيريّة والخدمات العلميّة وتربية الطلاب والأولاد والصفات الخلقيّة العالية في الإنسان السالك ، عزيز الوجود ، ونادر الحصول .

ومن المعلوم أنّ آية الله العظمى السيّد السبزواري ﷺ قد جمع الكمال في جميع النواحي المذكورة[1] .

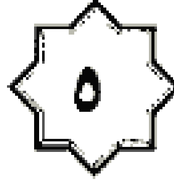
الراجي المفتقر إلى ألطاف ربّه

غلام حسنين

الخميس الربيع الثاني / ١٤١٦هـ.

---

(١) تمّ التصرّف في الشكل الصياغي للنصّ الأصلي مع محاولة التحفّظ بالقدر الممكن .



كلمة الدكتور عبدالرؤوف عبدالغفور[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج السيّد عبدالأعلى السبزواري في التفسير

من الواضح أنّ عمليّة التفسير للقرآن الكريم ـ إذا كانت تتناول المضمون العامّ للنصّ ـ تتطلّب أداتين رئيسيّتين، هما: الثقافة الشرعيّة والثقافة الفنيّة.

أمّا الأداة الأُولى: فتتمثّل في التوكّؤ على النصوص التفسيريّة الواردة عن المعصومين ﵃، وما يواكبها من عمليّة الاستدلال في استكشافها هذه الدلالة أو تلك، مضافاً ـ وهذا ما يهب عمليّة التفسير مزيداً من القيمة ـ إلى التوكّؤ على مطلق القنوات الثقافيّة التي تلقي إنارات فلسفيّة ونفسيّة واجتماعيّة... الخ على العمليّة المذكورة.

أمّا الأداة الفنيّة: فتتمثّل في الارتكان على الحاسّة الجماليّة لدى المستكشف، بما في ذلك إلمامه بأهمّ المبادئ النظريّة للفنّ..

طبيعيّاً، ثمّة تفاوت بين باحث وآخر بالنسبة إلى الثقافة الفنّيّة التي يمتلكها من حيث كونها موروثة أو جديدة (كالبلاغة ومبادئها مثلاً)، وكذلك بالنسبة إلى الثقافة

---

(١) كاتب معروف، له الكثير من المؤلّفات والمقالات المطبوعة، ومن أبرزها كتابه: «دراسات في علم النفس الإسلامي».

الثانويّة ، ونعني بها : المبادئ النفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ... الخ ، حيث إنّ الركون إلى الثقافة الحديثة يهب النصّ أبعاداً أكثر تغلغلاً إلى خفاياه .

وفي ضوء هذه الحقائق نتّجه إلى إحدى الشخصيات المعاصرة في كتابها التفسيري الكبير (مواهب الرحمن) لملاحظة مدى إسهامها في الميدان المشار إليه ، فنقول : إنّ شخصيّات من أمثال : الطوسي والطبرسي وسواهما من عصور الموروث قد توفّرت على دراسة النصّ القرآني الكريم ، كما أنّ الطباطبائي وغيره في الأزمنة المعاصرة قد اتّجه إلى الحقل المذكور أيضاً ، فيما تتميّز هذه الشخصيات بتناولها للدلالة العامّة من النصّ ، وبالتوفّر على دراسته كاملاً (أي : جميع السور القرآنيّة) ، وبكونها على نحو التفصيل ، فضلاً عن العمق والشموليّة في أمثلة هذه الدراسات .. وممّا لا تردّد فيه أنّ شخصّة « السبزواري » تنتسب بدورها إلى هذه السلسلة من الأسماء الرائدة في كتابة التفسير الشامل .

وإذا كان الطوسي والطبرسي من الموروثين يتماثلان من جانب في منهجهما التفسيري ، ويفترقان من جانب آخر ، ويفيد المتأخّر من المتقدّم من جانب ثالث ، ويضيف جديداً من جانب رابع .. فإنّ الطباطبائي والسبزواري من المعاصرين تطبعهما السمات المذكورة ذاتها ، أي : التماثل والاستقلال والتأثّر والحدّة .. وبما أنّنا لا نعتزم القيام بدراسة مقارنة بين هذا المفسّر أو ذاك بقدر ما نستهدف مجرّد التعريف أو العرض لطابع الدراسة التفسيريّة لدى السبزواري ، حينئذٍ يتعيّن علينا الوقوف عند منهجيّة كتابه ومادّته ، ومن ثمّ مدى إسهامه في إثراء عمليّة التفسير .

من حيث اللغة :

تتميّز لغة الباحث بالألفة والإحكام ، خلافاً لما نلحظه من ركاكة أو عتمة أو التواءات تعبيريّة لدى بعض المشتغلين في المؤسّسة الحوزويّة ، وهو أمرٌ يدعو إلى الدهشة ، خاصّة إذا عرفنا أنّ الباحث يكتب بلغته الثانويّة .. على أنّ الحقيقة الأُخرى

ـ فيما ينبغي لفت النظر إليها ـ هي أنّ المؤلّف يجمع بين أُسلوبي الكتابة : لغة العامّة والخاصّة ، أي : اللغة التي يفهمها القارئ العادي ، واللغة التي يفيد المتخصّص منها فحسب في حقل المصطلح الفلسفي والكلامي والأُصولي أو الحوزوي بنحوٍ عامّ .

طبيعيّاً ، قد يرتطم القارئ العادي أو المتوسّط باللغة الاصلاحيّة ، فيما تقطع عليه سلسلة متابعته التشويقيّة للدلالات الواضحة التي يتوفّر الباحث عليها ، إلّا أنّ ورودها عابرة في القسم الأوّل من عمليّة التفسير ، وتكثيفها فحسب في الأقسام الأُخرى التي يحمل كلّ واحدٍ منها عنواناً ثانوياً أو مستقلاً ، يخفّف الوطأة المشار إليها .. وفي تصوّرنا أنّ منهج المؤلّف في الجمع بين الأُسلوبين هو الخيار الوحيد لتحقيق الهدف من دراسة النصّ ، ونعني بها الإفادة للقرّاء جميعاً .. لكن مع ذلك ، كان من الممكن ـ مثلاً ـ أن يفكّ المصطلح نفسه ويكتبه باللغة المألوفة ، وبذلك يفيد القارئ المتوسّط أيضاً .

من حيث المنهج :

الكتاب عامّة يمكن شطره إلى قسمين :

القسم الأوّل منه ، وهو التناول الرئيس للنصّ ، يُدرجه المؤلّف ضمن عنوان (التفسير) .

وأمّا القسم الآخر فيتضمّن حقولاً ثانويّة ، مثل : بحث (دلالي) (روائي) (فلسفي) (كلامي) (عرفاني) (اجتماعي) (أخلاقي) (تاريخي) (فقهي) (علمي) .. الخ ..

وهذا النمط من المنهجيّة له مسوّغاته دون أدنى شكّ ، حيث إنّ القسم الأوّل منه هو الذي يتكفّل بتوضيح الدلالة العامّة للنصّ ، فيما يحقّق الإشباع الرئيس لعمليّة القراءة ، بينما يتكفّل الآخر منه بالإشباع الثانوي للقارئ ..

من حيث المادة:

إنّ تناول المادة التفسيريّة يتضمّن بالضرورة «منهجيّة» خاصّة أيضاً.. لذلك فإنّ عرضنا لهذا الجانب لا ينفصل من خلاله منهج التناول عن مادّته، بمعنى أنّ تركيزنا سوف ينصبّ على المادّة وطريقة تناولها، وهو أهمّ ما نُعنى به في قراءتنا لهذا الكتاب.

الخطوة الأُولى للمؤلّف:

هي انتقاؤه لمقطع قرآني قد يكون مجموعة آيات أو آية واحدة حسب الفكرة الجزئيّة التي تنطوي الآيات أو الآية عليها، فمثلاً: في استهلاله لسورة البقرة ينتخب مقطعاً يتألّف من خمس آيات، نظراً لانطوائها على فكرة جزئيّة هي سمات (المتّقين)، بينما نجده في تناوله لآخر السورة ـ مثلاً ـ ينتخب مقطعاً ينحصر في آية واحدة هي آية (المداينة) نظراً لانطوائها على فكرة جزئيّة أيضاً: هي المداينة وما يستتبعها من الكتابة والشهادة ونحوهما.. طبيعيّاً، قد تكون الآية الواحدة يستغرق حجمها سطوراً كثيرة حتّى لتقرب من الصفحة الواحدة كالآية المذكورة، وقد لا تستغرق السطر أو السطرين، كآية (الإنفاق) التي توسّطت آيتي (تفضيل الرسل) و(آية الكرسي) اللّتين يستغرق حجم كلّ واحدة منهما أربعة أسطر، حيث إنّ الحجم لا يتدخّل في تحديد (فكرة) المقطع المنتخب بقدر ما تشكّل الفكرة تحديد ذلك.

وفي تصوّرنا أنّ تناول النصّ القرآني الكريم من خلال (المقاطع) وليس من خلال الآيات (المستقلّة) هو أسدّ المناهج صواباً في عمليّة التفسير، وسرّ ذلك أنّ النصّ القرآني الكريم ليس مجرّد آيات ينفصل بعضها عن الآخر، بقدر ما ترتبط كلّ آية بما سبقها ولحقها من الآيات، كما أنّ السورة القرآنيّة عامّة ترتبط أجزاؤها بعضها

مع الآخر، وهذا يعني أنّ (المقطع) هو الأسلوب الأقوم في دراسة النصّ بصفة أنّ السورة الكريمة إمّا أن تتضمّن فكرة جزئيّة واحدة، كما هي سمة السور القصار في الغالب، أو تتضمّن مجموعة من الأفكار الجزئيّة، كما هي سمة السور الكبار، وحينئذٍ بما أنّ (المقطع) هو المظهر المعبّر عن (الفكرة الجزئيّة) حينئذٍ يتعيّن على الباحث أن يتناول النصّ من زاوية فكرته الجزئيّة متمثّلة في (المقطع)، وهذا ما توفّر عليه الباحث في دراسته التي نحن في صددها، ممّا يهبها مزيداً من الأهمّيّة دون أدنى شكّ.

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ الدراسة التفسيريّة تتضخّم أهمّيتها بنحو أشدّ إذا كان التناول للنصّ يتمّ من خلال البناء الهندسي العامّ للسورة جميعاً، أي: ملاحظة المقاطع من حيث ارتباط بعضها مع الآخر، وإخضاعها لخيط فكري عام يجمع بينها.

سرّ ذلك هو: أنّ النصّ القرآني الكريم ليس مجرّد مقاطع أو آيات ينفصل بعضها عن الآخر كما قلنا، بل هو ينتظم في هيكل هندسي خاصّ هو: (السورة القرآنيّة) ممّا يعني أنّ لكلّ سورة (موضوعاتها) الخاصّة بها من جانب، وبناؤها الهندسي الذي ينتظم أجزاءها من جانب آخر، فضلاً عن تناسب عناصرها اللفظيّة والإيقاعيّة والصوريّة مع موضوعاتها من جانب ثالث.. إلّا أنّ ممّا يؤسف له أنّ الدراسات التفسيريّة قديماً وحديثاً لم تتّجه إلى دراسة البناء العامّ للسورة بقدر ما كان اهتمامها منصبّاً على جزئيّاتها فحسب، خلا بعض الإشارات العابرة إلى ارتباط بعض المقاطع ببعضها الآخر في شرائح محدودة من السورة تحت عنوان (النظم)، ويبدو أنّ المؤلّف له وجهة نظر خاصّة في هذا التناول، حيث يوضّح لنا في مقدّمة كتابه سبب عدم اهتمامه ببناء السورة قائلاً:

«لم أتعرّض لبيان النظم بين الآيات؛ وذلك لأنّ الجامع القريب في جميعها

موجود ، وهو تكميل النفس أو الهداية ، ومع وجوده لا وجه لذكر النظم بين الآيات ؛ لأنّ الغرض القريب بنفسه هو الجامع والرابط بين الآيات ».

والحقّ أنّ ما أوضحه المؤلّف في هذا الصدد صائب ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الهدف من النصّ هو التعريف بمبادئ الله تعالى ، وأنّ القارئ يلمّ بها على نحو الإجمال (كما لو قرأ آية الإنفاق في سبيل الله تعالى ، وعمل بها) ، إلّا أنّ الكلام هو على تعميق المبادئ في نفسها والطرائق الفنيّة التي يسلكها النصّ في تحقيق هذا الهدف ، فعندما نواجه (في سورة البقرة مثلاً) أنّ النصّ تعرّض إلى الإنفاق في مواقع متفرّقة من السورة ولم يجمعها في مكان واحد ، أو أنّه عندما تعرّض إلى قضيّة (الإماتة والإحياء) وكرّرها في مواقع مجتمعة حيناً (كقصص نمرود والمارّ على القرية وتقطيع الطيور) ومتفرّقة حيناً آخر (كالبقرة التي أُحييت ، والأُلوف الذين هربوا من الموت وأحياهم الله تعالى) ، أمثلة هذا التكرار لقضيّة الإماتة والإحياء ليس الهدف منها مجرّد لفت النظر إلى قدرته تعالى ، وإلّا لجمعها في آيات متجاورة جميعاً ، بَيْد أنّ تفريقها في مواقع متنوّعة من السورة إنّما يساهم في تعميق الهدف وتركيزه في ذهن القارئ بنحو لا شعوري أو شعوري ، وذلك من خلال المعرفة بطرائق الاستجابة لدى الإنسان وكيفيّة تأثّره بهذا الهدف أو ذاك ، وهذا ما يتجسّد ـ في جملة ما يتجسّد به ـ في جعل القارئ (يتداعى) بذهنه من هذا الموضوع إلى موضوع آخر من خلال (التماثل) أو (التضادّ) بين بعض جزئيّاتهما ، أو جعله (يتدرّج) في تصعيد عواطفه حيال هذه القضيّة أو تلك من خلال الآليّة المشار إليها ، فضلاً عمّا نعرفه جميعاً (في حقل المعرفة النفسيّة) أنّ القارئ لأيّ نصّ عندما ينتهي من قراءته ، حينئذٍ يتحسّس بأنّ انطباعاً ينغرز في ذهنه من خلال المجموع العامّ الذي قرأه ، فمثلاً : عندما نقرأ سورة الكهف نتحسّس بأنّها تركت انطباعاً عامّاً في أذهاننا هو (نبذ زينة الحياة الدنيا) وذلك من خلال قصص أهل الكهف الذين نبذوا الزينة المذكورة ، ومن خلال قصّة (صاحب الجنّتين) الذي تشبّث بزينة الحياة

الدنيا ، ومن خلال قصّة (ذي القرنين) الذي مَلك شرق الأرض وغربها ولم يغترّ بذلك على عكس صاحب الجنّتين ، ومن خلال الآيات التي سبقت القصص ولحقتها حيث تكرّر مجيئها في مواقع متفرّقة من السورة ، مثل : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً...** ﴾ ومثل : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...** ﴾ إنّ تكرار الآيات المرتبطة بالزينة ، وتكرار القصص المرتبطة بها ، وجعلها في أماكن متفرّقة ، وإرداف الآية بالقصّة حيناً ، كما هو ملاحظ في قصّة الكهف ، حيث سبقتها الآية الكريمة ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً...** ﴾ ، وحيث إنّ الارتباط بين الآية والقصّة هو : إرداف النظريّة بالتطبيق ، أي : الإتيان بحادثة عن نبذ زينة الحياة بعد الإتيان بالآية المطالبة بذلك ، كلّ هذا يشكّل طرائق فنيّة لتعميق الهدف وهو (نبذ زينة الحياة الدنيا) وذلك من خلال البناء الهندسي للسورة ، وصلة أجزائها بعضها مع الآخر بالنحو الذي أوضحناه .

وأيّاً كان ، يعنينا أن نتابع موقف الباحث من هذه الظاهرة ، حيث لحظناه يقدّم وجهة نظر عن الأسباب التي دعته إلى عدم الارتكان إلى (النظم) بين الآيات .. بَيْد أنّنا نجده في الغالب ـ عندما يتناول (مقطعاً) جديداً من السورة ـ لا يتردّد في ربطه بما سبقه أو يلحقه من المقاطع ، مع ملاحظة أنّ هذا « الربط » ينحصر في الإشارة إلى الموضوعات السابقة والشروع في موضوعات جديدة مع التلميح حيناً إلى الأسباب الفنيّة لعمليّة الربط .

المهمّ أنّ الباحث ـ ونحن في صدد الحديث عن خطوته التفسيريّة الأُولى ، وهي : انتخابه لمقطع من السورة ـ يبدأ ذلك عادةً بتبيين موضوعاته المرتبطة بما سبقها ، ثمّ إردافه بعرض الخطوط العامّة له .

ومن الواضح أنّ انتخاب المقطع قد يكون استهلالاً للقسم الجديد من السورة أو امتداداً لمقاطعه ذاتها ، ففي سورة البقرة ـ مثلاً ـ عندما ينتقل من قسمها الأوّل

(وهو الخاصّ بذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين) إلى قسمها الثاني المتضمّن مطالبته تعالى بعبادة الناس إيّاه وتذكيرهم بمعطياته الإبداعيّة، يستهلّه الباحث بالقول: «بعد أن ذكر سبحانه في ما تقدّم أصناف خلقه وهم المؤمنون المهتدون الفائزون، والكافرون الذين اختاروا الكفر فطبع بذلك على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، والمنافقون...

دعا سبحانه وتعالى في هذه الآيات الناس إلى التوحيد والعبادة حتّى تستعدّ نفوسهم إلى التقوى، ثمّ عدّد جلائل نعمه في السماء والأرض...».

فالملاحظ هنا أنّ الباحث رَبَطَ بين قسمي السورة من حيث تسلسل موضوعاتها، وهو ربط يختلف عن (الربط العضوي) الذي يعني تنامي الموضوعات، وارتكانها إلى سببيّةٍ، وخضوعها إلى وحدة تنتظمها... من خلال بناء النصّ هندسيّاً، خلا إشارته السريعة إلى (التقوى) حينما قال: «حتّى تستعدّ نفوسهم إلى التقوى» بصفة أنّ المقطع الأوّل من السورة قد تناول سمة (المتّقين) فتكون الدعوة إلى عبادته تعالى في القسم الجديد من السورة استعداداً لتجسيد السمة المذكورة في السلوك.

إلّا أنّ المؤلّف حين ينتقل إلى القسم الثالث من السورة (وهي قصّة آدم عليه السلام) لم يتعرّض إلى صلتها بالقسم السابق، حيث يستهلّ ذلك بالقول: «شروع في بيان قصّة خلق آدم، والغاية من خلقه وعصيانه، وهبوطه إلى الأرض».

وعند انتقاله إلى القسم الرابع من السورة «وهو الحديث عن بني إسرائيل» يصله بالقسم السابق عليه، فيستهلّه بالقول: «بعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان وحالاته وأطواره، خاطب طائفة خاصّة وهم اليهود، وبدأ بذكرهم، لأنّهم أقدم الطوائف التي أرسل فيهم الأنبياء والرسل، وأنزل فيهم الكتب، وهم أوّل طائفة من الأمم هبطوا من ذروة المقام الإنساني إلى درك حضيض البهيمة».

من النماذج المتقدّمة نستخلص: أنّ المؤلّف يحاول حيناً أن يصل بين أقسام

السورة، وحيناً ينسج صمتاً حيال ذلك، إمّا تحفّظاً في استشفاف الصلة أو قناعته بعدم ترتّب الفائدة على ذلك.. ويهمّنا أن نقف على مستويات استكشافه -بعد ذلك- للأسرار الفنيّة الكامنة وراء الصلة بين جزئيّات هذا النصّ.. ومن ذلك -مثلاً- وقوفه عند البناء الفنّي لأُقصوصة البقرة، حيث إنّ القصة بدأت في عرض حوادثها ومواقفها من وسطها (وهو الأمر بذبح بقرة) ثمّ ارتدّت إلى البداية وعبرت الوسط وتحدّثت عن النهاية ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا**... ﴾ في حين أنّ تسلسلها الواقعي هو: حادثة قتل لأحد الأشخاص، والاختلاف في معرفة قاتله، واللجوء إلى موسى ﷺ في معرفة ذلك، وذبح البقرة، وإحياء القتيل.. وقد علّق المؤلّف على هذا الجانب قائلاً: «والمنساق من مجموع الآيات الكريمة أنّ قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا**... ﴾ مقدّم على قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ** ﴾ تقدّم العلّة على المعلول، وإنّما أخّر في ظاهر الكلام لمراعاة الفنون الأدبيّة المحاوريّة التي منها: الاهتمام بذكر المقدّم وتهيئة النفوس للإصغاء إليه، فيكون أدعى للبحث عن معرفة السبب، وجعله كلاماً مستقلاً في توجيه الأسماع والأذهان.. ومنها توجيه الخطاب ابتداءً إلى نبيّنا الأعظم ﷺ لعدم ذكر البقرة في التوراة فلم يكونوا مأنوسين به».

ممّا لا نقاش فيه أنّ استخلاص المؤلّف لنمطين من أسرار البناء القصصي المذكور ينطوي على ملاحظات صائبة وذات قيمة فنيّة.. ويمكننا -إذا أردنا وصل ذلك بالبناء العامّ للسورة- فضلاً عن البناء الجزئي لهذه القصّة أن نضيف إلى ذلك، بأنّ ملاحظة سورة البقرة يدلّنا على أنّها من حيث محاورها الفكريّة تركّز على جملة من الأهداف:

منها: الاتّقاء أو التقوى التي تخلّلت عصب السورة جميعها، منذ قسمها الأوّل وحتّى قسمها الأخير الخاصّ بالأحكام، حيث ذُيّل كلّ واحد منها بمفهوم التقوى أو الاتّقاء.

ومنها: التركيز على سلوك الإسرائيليّين بحيث استغرق ثلث السورة تقريباً.

ومنها: ظاهرة الإماتة والإحياء، حيث سبقت الإشارة إلى أنّ جملة من القصص ومواقع السورة تناولت الظاهرة المُشار إليها.. وأولى القصص هي قصّة البقرة التي ذُيّلت نهايتها بقوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ**...﴾، فبملاحظة هذا التعقيب على قضيّة إحياء الموتى، وبملاحظة إحياء القتيل نستكشف بأنّ القصّة تستهدف لفت الأنظار إلى عمليّة (الذبح) بصفتها بؤرة تتجمّع عندها ظاهرة إحياء القتيل، مضافاً إلى ذلك أنّ القصّة جاءت في سياق الحديث عن تمرّد الإسرائيليّين، ونعمه ـ تعالى ـ عليهم، وتمرّدهم على النعم المذكورة، حيث كشفت القصّة عن تردّدهم في عمليّة الذبح ﴿... **وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ فضلاً عن أنّ البقرة ذاتها تقترن في تصوّراتهم بقيمة خاصّة، فيجيء الاستهلال بالذبح له مسوّغاته الفنيّة حينئذٍ.

وأيّاً كان، فنحن إذا تابعنا محاولات الباحث في ربطه بين أجزاء النصّ، نجده عند وقوفه على قصّة أُخرى هي قصّة (الملأ من بني إسرائيل) يستهلّها بعمليّة ربط بين مقطع سابق عليها يتحدّث في آيتين عن القتال والإنفاق ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**...﴾، ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً**﴾، وبين القصّة الجديدة فيقول:

«الآيات الشريفة نزلت عقيب الأمر بالقتال والترغيب إلى القرض الحسن، وبذل النفس والمال في سبيل الله تعالى، وتبيّن مورداً خاصّاً ممّا يمكن أن ينطبق عليه ما ورد في الآيتين السابقتين من جميع الجهات التي بيّنها سبحانه وتعالى».

إنّ هذا الربط بين مقطعي السورة ينطوي على ملاحظة دقيقة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ المطالبة بشيء وإردافه بشيء حسّي أو واقعي، كالصورة أو القصّة مثلاً، يعدّ واحداً من أسرار البناء الهندسي للنصّ، لذلك فإنّ إشارة الباحث إلى ظاهرتي القتال والإنفاق وارتباطهما بحادثة عسكريّة تتطلّب قتالاً وإنفاقاً، تظلّ متّسمة بالدقّة دون أدنى شكّ..

هذا إلى أنّ عمليّة الربط ـ كما سبقت الإشارة ـ تأخذ أشكالاً متنوّعة من الخطوط التي تنتظمها، ومن جملتها: أن يختم المقطع السابق بفكرةٍ تشكّل تمهيداً لمقطع لاحق يستهدفه النصّ، وهذا من نحو المقطع الذي نحن في صدده، حيث انتقل النصّ من الحديث عن قصّة طالوت التي ختمت بحادثة عسكريّة قادها داود ﷺ فيما عقّب النصّ بأنّه ﷺ ممّن آتاه الله تعالى الملك والحكمة، وختمها بمخاطبته للنبيّ ﷺ ﴿ **وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾، هذا الاختتام عن ظاهرة (المرسلين) جعله النصّ استهلالاً لمقطع جديد يتحدّث عن مطلق الرسل ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا**... ﴾ فيما تحدّث المؤلّف عنه قائلاً: «بعدما ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة وجوب الجهاد، والإنفاق في سبيل الله، وإقامة الحقّ، وقد ضرب الله عزّ وجلّ لذلك مثلاً من الأُمم الماضية ليعتبر به المؤمنون.. وختم الكلام بالمرسلين الذين هم واسطة الفيض.. ذكر في هذه الآية الشريفة أنّ تلك ميّزهم الله تعالى... الخ».

فالملاحظ هنا أنّ الباحث قد نبّه على الخيط الرابط بين المقطعين من خلال خاتمة وبداية المقطعين، إلّا أنّ البناء الهندسي للمقاطع لا يقتصر في الواقع على مجرّد الربط بين نهاية مقطع وبداية آخر، بل يظلّ خيطاً مشتركاً في الأفكار الجزئيّة المطروحة في المقطعين أيضاً، وإلّا لكان الأمر مجرّد (تداع) من فكرة إلى أُخرى. ومع أنّ (التداعي) ـ من الزاوية النفسيّة والفنيّة ـ يشكّل في الآداب المعاصرة واحداً من التقنيات التي يحرص المشتغلون في الأعمال الأدبيّة الضخمة على التوكؤ عليه، تحقيقاً لتمرير مختلف أهدافهم التي يطرحونها، ممّا تستدعي صياغةً لعشرات الموضوعات في نصّ شعري أو قصصي أو مسرحي واحد، إلّا أنّه في الآن ذاته (أي: التداعي) يتجاوز مجرّد التشابه أو التجانس بين ظاهرتين إلى التماس خيط فكري ينتظم موضوعات النصّ جميعاً أو غالباً، وهو أمرٌ يلاحظه المعنيّ بدراسة البناء العامّ لسور القرآن الكريم.

وإذا كانت ظاهرة (التداعي) واحدة من أسرار البناء الهندسي للنصّ،

فإنّ (التكرار) يشكّل ظاهرة أو وسيلة أُخرى من أشكال البناء المذكور.. فمثلاً: قد التفت الباحث إلى تكرار ظواهر معيّنة (كظاهرة الإنفاق مثلاً) في مواقع متفرّقة من السورة.

ومنها: ما سبقت الإشارة إليه، ونعني بها: عرض قصّة طالوت عقيب المطالبة بالإنفاق والجهاد..

ومنها: ما لحظه الباحث من تكرّر المطالبة بالإنفاق عقيب آية (تفضيل الرسل) المتضمّنة لاختلاف المجتمعات، حيث علّق على المقطع الجديد: «أمر سبحانه وتعالى فيما تقدّم بالإنفاق بأسلوب لطيف فيه التحبّب والترغيب والعناية بالمنفقين، وعقّب هنا الأمر بالإنفاق للمؤمنين خاصّة بأسلوب آخر فيه الترهيب؛ وذلك لأنّ الآية الأُولى كانت بعد الأمر بالقتال في سبيل الله تعالى وأخبار الأُمم الماضين، فالمقام يقتضي الترغيب، إلّا أنّ هذه الآية وردت: ﴿ **أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ** .. ﴾ بعد اختلاف الأُمم وامتثالهم بعد ما جاءتهم البيّنات، فاقتضى الترهيب، أو لاختلاف النفوس فإنّ أكثر الناس لا يفيدهم الترغيب إن لم يكن مقروناً بالترهيب، فأمر سبحانه بالإنفاق قبل أن تنقطع الأسباب... الخ».

والحقّ أنّ سمّة (التكرار) تضطلع بأكثر من وظيفة فنيّة، فهي إضافة إلى ما سبق توضيحه، تجسّد أقوم وسيلة لإحكام العمارة الفنيّة للسورة، حيث نجد أنّ سورة كالبقرة عبر تضمّنها عشراتٍ من الموضوعات المختلفة تظلّ ـ كما سبقت الإشارة ـ منطوية على محاور رئيسيّة يتكرّر بعضها عشرات المرّات (مثل سمة التقوى)، وبعضها (مثل ظاهرة الإماتة والإحياء) يتكرّر مرّات متعدّدة بعضها يرد في هيكل قصصي، وبعضها يرد في التعقيب على قصّة أو موقف.. وهذا النمط من التكرار المشكّل لأحد محاور السورة، تتمثّل وظيفته الفنيّة في كونه واحداً من شبكات رئيسيّة تتلاقى عندها عشرات الخطوط، أو لنقل: كونه واحداً من ثلاثة أو أربعة أنهار كبيرة تتلاقى عندها الروافد الصغيرة وتصبّ فيها.. وكنّا نتمنّى لو أنّ المؤلّف صبّ

جانباً من اهتماماته التفسيريّة الضخمة على هذه المحاور، إلّا أنّه ـ كما ذكر في مقدّمة تفسيره ـ اقتنع بأنّ المهمّ هو تحقّق الهداية وتكميل النفس من النصّ فيما لا ضرورة إلى رصد العمليات الرابطة بين أجزائه.. لذلك نجد، عندما يتّجه إلى مقطع يتضمّن ظاهرة الإماتة والإحياء (مثل قصّة البقرة) و(قصّة نمرود) و(تقطيع الطيور) و(إماتة أحدهم مائة سنة وإحيائه) و(الألوف الذين قال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم) يتناولها بمنأىً عن كونها أحد محاور السورة الكريمة التي تنتظم عمارتها، بل يتناولها على نسق تناوله لسائر الموضوعات، فمثلاً: عند استهلاله للمقطع الذي يتحدّث عن الظاهرة الأخيرة: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** ﴾ عقّب قائلاً:

«الآية الشريفة في أسلوبها الرائع وبلاغتها الخلّابة، تبيّن آية من الآيات الإلهيّة التي وقعت في الأمم السابقة، وقد ذكرها سبحانه وتعالى في ختام آيات الأحكام لتثبيت ما ورد فيها من الأحكام، التي لوحظ فيها مصلحة الفرد والنوع، وتوطئة لما يأتي من الآيات التي تدعو إلى بذل النفس والإنفاق.. وتبيّن أنّ جميع التدبيرات الأرضيّة تحت إرادة السماء، وهي التي تحفظ الإنسان من جميع الشرور والأخطار، فيجب شكره ولكن أكثر الناس لا يشكرون».

لا تردّد في أنّ الباحث قد استخلص دلالات النصّ بمهارة فائقة تكشف عن ضخامة تذوّقه الفنّي، سواء أكان ذلك من حيث ربطه (أي النصّ) بما سبقه وبما يلحقه (أي قوله: «وتوطئة لما يأتي من الآيات التي تدعو إلى بذل النفس والإنفاق») أو كان ذلك في استكشافه لدلالة أنّ الأمر رهن إرادته تعالى.. بَيْد أنّنا لو حاولنا أيضاً ربط النصّ بمحوره الذي يشكّل واحداً من ثلاثة أو أربعة محاور تنتظم السورة المذكورة، لوجدنا أنّ النصّ يستهدف تركيز الفكرة من حيث صلتها بالبناء الهندسي للنصّ (وليس من حيث أهمّيّة الموضوع) طالما نعرف جميعاً أنّ القرآن الكريم

يجعل أحد الموضوعات رئيساً في سورة ويجعله ثانوياً في سورة أُخرى، ويجعله ضمنيّاً في سورة ثالثة.

إنّ هذه الحقائق يمكن ملاحظتها أيضاً في مواجهتنا لمقاطع أُخرى من سورة البقرة تتحدّث عن (الإماتة والإحياء) متمثّلة في محاجّة إبراهيمعليه السلام مع نمرود، والمارّ على القريّة، حيث عقّب المؤلّف على ذلك قائلاً: «إنّ هذه الآيات (وقد جاءت عقب آية الكرسي) تبيّن توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ وقدرته وعنايته لعباده المؤمنين، فإنّه عزّ وجلّ بعد أن أثبت لنفسه التوحيد ومهام الصفات العليا، مثل: القيوميّة المطلقة والربوبيّة العظمى، والولاية على أهل الإيمان، ووعدهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وضرب في هذه الآيات أمثلة لبيان ولايته على المؤمنين وهدايته، وبيّن أنّ هناك هداية تحصل بالحجّة، كالتي مع إبراهيمعليه السلام.. وهداية بالمشاهدة، كالتي حصلت مع ذلك المؤمن الكريم الذي مرّ على قرية، ولهذا كانت هذه الآيات مرتبطة بالآيات السابقة واللاحقة في كونها من مظاهر توحيده عزّ وجلّ وولايته وقدرته».

وفي تعقيب المؤلّف على آية: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن**﴾ قال: «الآية الشريفة تؤكّد ولاية الله تعالى على المؤمنين ورعايته لهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وفيها إرشاد إلى أنّ إبراهيم وسائر الأنبياء العظام صلوات الله عليهم من العروة الوثقى التي لا بدّ من الاستمساك بها».

إنّ هذه الاستخلاصات التي انتهى الباحث إليها، تنطوي على قدر كبير من الأهميّة، من حيث ذهابه إلى أنّ الخيط الرابط بين هذه القصص الثلاث وبين الآيات التي سبقتها (آية الكرسي وما بعدها) هو: كون القصص نماذج معبّرة عن مضمون آية الكرسي، متمثّلاً في إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، وفي أنّ أبطال هذه القصص تجسيد للعروة الوثقى، بَيْدَ أنّ السؤال هو: لماذا جاءت هذه القصص منصبّة على ظاهرة (الإماتة والإحياء)؟ الإجابة على هذا السؤال تنحصر في دراسة

البناء الهندسي للسورة، فيما قلنا بأنّ ظاهرة (الإماتة والإحياء) هي أحد المحاور المهمّة التي تتسرّب في أجزاء السورة جميعاً.. وهذا هو أحد المسوّغات التي تحملنا على مطالبة المعنيّين بشؤون التفسير على أن يتنالوا الهيكل العامّ للسورة أيضاً، دون الاقتصار على تفسير الجزئيّات؛ لأنّ التفسير الجزئي لا يملك إجابة على الأسرار الفنيّة الكامنة وراء هذه الظاهرة أو تلك عندما تتكرّر في مواقع متنوّعة من السورة، أو عندما تتجاور مع بعضها الآخر، بالنحو الذي أوضحناه.

وأيّاً كان، فنحن لا نزال مع المؤلّف في خطوته التفسيريّة الأُولى، ونعني بها: انتخابه لمقطع من السورة، واستهلاله الحديث عنه بتبيين صلته بما سبقه أو يلحقه من المقاطع أوّلاً، ثمّ التعريف المجمل بمضمون المقطع ثانياً.. أمّا ممارسته في نطاق التعريف المجمل بمضمون النصّ، فأحسب أنّ ما عرضناه من نماذج ممارساته كافٍ في التعرّف على منهج المؤلّف.. ومع ذلك يحسن بنا أن نعرض لبعض النماذج الأُخرى نظراً للأهميّة التي تنطوي عليها.

ولعلّ النموذج الذي ختم به المؤلّف ممارسته لسورة البقرة (ونعني به: الآيتين اللتين خُتمت السورة بهما) يجسّد منهج المؤلّف بوضوح في خطوته التفسيريّة الأُولى (انتخاب مقطع، وربطه بالمقاطع الأُخرى. والتعريف به إجمالاً).

يقول المؤلّف: «الآيتان الشريفتان من جلائل آيات القرآن الكريم تشتملان على مضامين عالية جمعت فيها مجامع الكمال، وفيهما أدب العبوديّة ونهاية الخضوع والتذلّل لله تعالى في أُسلوب بليغ جذّاب، وفيهما خلاصة ما تضمّنته هذه السورة الشريفة التي كان الغرض المتحصّل منها: الإيمان بالله تعالى والعبوديّة له عزّ وجلّ، والإيمان برسله وما أُنزل عليهم، والطاعة له عزّ وجلّ بالائتمار بأوامر والانتهاء عن نواهيه، والاتّقاء عمّا يوجب سخطه وعذابه، والإقرار بالبعث والنشور، وفيها قصص أهل الكتاب للعبرة واللجوء إليه سبحانه وتعالى عمّا أصابهم

بسبب تمرّدهم وطغيانهم.

ومن بديع أسلوب هذه السورة أنّها بدأت بالهداية للمتّقين، وختمت باللجوء إلى الله تعالى لطلب الهداية والغفران والإذعان بالطاعة الذي هو أمل المتّقين، فيكون أوّل السورة كالعلّة الفاعليّة، وآخرها كالعلّة الصوريّة أو الماديّة للأولى، وهما كالعلّة الغائيّة لنظام التشريعات السماويّة، نزلتا على من هو علّة غائيّة لنظام الخليقة والتكوين، وقد ختمتا بطلب النصرة على القوم الكافرين، وهي غاية دعوة الأنبياء والمرسلين المؤمنين بالله تعالى، ومضمونهما من القضايا العقليّة التي تحكم بها الفطرة، وفي الآيتين فضائل وآثار مهمّة نبّهت إليها السنّة النبويّة، ولعلّ منزلتهما عند الله تعالى كانتا في كنز تحت العرش».

عرضنا هذا النموذج الذي يتّسم بالطول، نظراً لإفصاحه عن تذوّق الباحث في انتخابه لمقطع من السورة، وطريقة تلخيصه لمضمون المقطع، وعمليّة ربط بسواه من المقاطع، أمّا تلخيصه فيعدّ تعريفاً مجملاً بمضمونها من جانب، وتقويماً للأفكار المطروحة فيها من جانب آخر، وحثّاً على الإفادة منها في تعديل السلوك البشري من جانب ثالث، وبهذا يحقّق المؤلّف أكثر من وظيفة عباديّة من خلال هذا الأسلوب، بحيث يحمل القارئ ـ ليس على أن يعي دلالة المقطع فحسب ـ بل على التفاعل مع الأفكار المطروحة فيه، وهو أهمّ هدفٍ فكري يلتمسه المؤلّف في ممارسته العمليّة.

وأمّا ربطه للمقطع بالهيكل الهندسي العامّ للسورة، فيُعدّ من أهمّ ملامح خطوته التفسيريّة الأولى، حيث ألمح (من خلال مصطلحه المنطقي أو الفلسفي) أو ما يُصطلح عليه (من خلال اللغة الأدبيّة) إلى عمليّة (النموّ العضوي) للسورة من حيث بدايتها، وتنامي موضوعاتها، والسببيّة الفنيّة الكامنة وراء ذلك.

الخطوة التفسيريّة الثانية التي ينتهجها المؤلّف:

هي صياغة عنوان عامّ هو (التفسير) حيث يدرج ضمنه الممارسة التفصيليّة في عمليّة التفسير، أي: التفصيل لما أجمله في خطوته الأُولى.

ومنهجه في هذه الخطوة هو: تفكيك المقطع أو الآية إلى جمل أو فقرات، يضطلع بتناول كلّ واحدة منها على حدة، ثمّ يصل بينها بطبيعة الحال، ثمّ يختمها بعنوان عامّ تحت مصطلح (والمعنى) حيث يلخّص بها مضمون الجملة أو الفقرة.

وهذا يعني أنّ منهجه في هذه الخطوة التفسيريّة الثانية ينطوي على ثلاثة خطوط هي:

١ ـ عمليّة التفكيك.



٢ ـ التفسير المفصّل.

٣ ـ التلخيص.

وهذا المنهج له أهمّيّته المنسحبة على القارئ من دون أدنى شكّ، حيث يتعرّف القارئ على جزئيّات المقطع أوّلاً (بما يواكبه من عناصر إضاءة متنوّعة نتحدّث عنها بعد قليل)، ثمّ بما يقدّمه المؤلّف إلى القارئ من (المعنى العامّ) للجزئيّة المذكورة بحيث يتعرّف على دلالتها العامّة بوضوح.

ويجمل بنا أن نستشهد بنموذج أو أكثر في هذه الخطوة التفسيريّة وخطوطها المشار إليها، بصفة أنّ هذه الخطوة هي الأكثر لصوقاً بعمليّة التفسير، وأنّ ما سبقها تمهيد لها، وأنّ ما لحقها بنحو ما سنعرض له لاحقاً هو تذييل لها.

إنّ الجملة أو الفقرة التي يستهلّ المؤلّف حديثه عنها، يتناولها أوّلاً من خلال البُعد اللغوي، أي: التعريف بمفرداتها لغويّاً، وهذا من نحو:

« ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ (المرّة) من المرور بمعنى الاجتياز والمضيّ، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم مفردة وتثنية

وجمعاً. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾، والمراد بها في المقام: التكرار والوقوع مرّة بعد أُخرى.

ومادّة (مسك) تأتي بمعنى التعلّق والحفظ والاعتصام، قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾... الخ.

والمسك ـ بالفتح ـ الإهاب؛ لأنه يمسك البدن، والمسك ـ بفتحتين ـ الأسوار لاستمساكها باليد، والمسك ـ بالكسر ـ دم الغزال، وهو عطر مخصوص سُمّي به لمساك عطره وبقائه مدّة كثيرة، ومن الحديث: «فم الصائم أحبّ عند الله من ريح المسك».

ومادّة (سرح) تأتي بمعنى الإطلاق والإرسال، قال تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ...﴾ الخ».

واضح من هذا النموذج: أنّ الباحث يُعنى بالمفردة لغويّاً كلّ العناية، بحيث يتناول جميع المفردات في النصّ، فيعرض إلى أصلها أوّلاً، وإلى صيغها ودلالالتها المتفاوتة ثانياً، وإلى معناها المعجمي ثالثاً، ويلتمس لها استخداماً قرآنياً رابعاً.

هذه الخطوط الأربعة من التناول اللغوي تحقّق جملة فوائد:

منها: الوقوف على دلالة المفردة معجمياً ودلالتها في النصّ، وهو الهدف الرئيس من قراءة النصّ.

ومنها: ما يشكّل أهدافاً ثانويّة يفيد القارئ منها مثل دلالالتها وصيغها المختلفة.

وممّا يزيد من إثراء الخبرة اللغويّة لدى القارئ، عرض الباحث لإشكالات لغويّة (كالدلالات المتضادّة مثلاً) وانسحاب ذلك على دلالالتها الشرعيّة.

ومنها: الدلالة الفقهيّة مثلاً، هذا ما نجده في النموذج الآتي عبر شرحه للجزئيّة

القائلة: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ ، حيث قال:

« وقروء: جمع قرء ، ويُجمع على الإقراء أيضاً ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: « اقعدي عن الصلاة أيّام إقرائك » ، ومادة « قرء » تدلّ على الجمع والاجتماع .. ويطلق هذا اللفظ على نفس الحيض ، كما مرّ في قول نبيّنا الأعظم ﷺ ، كما يطلق على حالة الانتقال من الحيض إلى الطهر بحسب الوضع كما عن جمع من اللغويّين ، ولا يطلق على نفس الطهر ، لأنّ المرأة الطاهرة التي لا ترى أثر الحيض لا يُقال لها: ذات قرء ، فهو من الأضداد ».

بعد ذلك ينتهي الباحث إلى أنّ المقصود هو الطهر ، ويشير إلى بعض آراء العامّة الذاهبة إلى أنّ المقصود منه هو الحيض ، يعقّب على القول الأخير:

« ولكنّ المناقشة فيه ظاهرة ؛ لأنّ اللفظ المشترك إذا وقع في استعمال مقروناً بقرينة تدلّ على أحد معنييه ، لا يكون ذلك دليلاً على أنّه كلّ ما استعمل فيه هذا المشترك ـ دلّ بلا قرينة على التعيين ـ يكون المراد منه ما استعمل فيه مع القرينة ، وهو خلاف المحاورات العرفيّة ، ولا يقول به أحدٌ في نظائر المقام ، والقرينة في الحديث المرويّ عن نبيّنا الأعظم ﷺ في أنّ المراد من الإقراء الحيض ظاهرة ، وأمّا قول عليّ ﷺ فهو ـ مضافاً إلى كونه قاصراً سنداً ـ أنّه معارض بغيره ممّا هو أقوى منه من جهات .. الخ ».

هدفنا من هذا النموذج: أنّ نستشهد بمهارة الباحث اللغويّة ، وإفادته القارئ بإغناء خبرته في هذا الجانب ، وأهمّيّة هذه العناية بالبُعد اللغوي من حيث انسحابه (في الإشكالات اللغويّة) على الدلالة الفقهيّة وسواها بالنحو الذي لحظناه.

ما تقدّم من الممارسة اللغويّة يمثّل مرحلة أُولى من هذه الخطوة التفسيريّة ، أمّا المرحلة التي تليها فهي: دلالتها النصيّة ، أي: شرح وبيان الدلالات الفكريّة التي يتضمّنها المقطع ، وهذا ما نلحظه ـ مثلاً ـ في ممارسته لجزئيّة ﴿ حَافِظُوا عَلَى

الصَّلَوَاتِ﴾ ، حيث يقول :

« مادّة (حفظ) تأتي بمعنى المواظبة على الشيء والإقبال عليه مرّة بعد أُخرى » ، وهذه هي المرحلة اللغويّة .. وأمّا الدلالة النصّيّة فيضيف إلى ذلك قائلاً :

« والمحافظة على الصلوات هي المواظبة عليها ، بإقامتها في أوقاتها بحدودها وشرائطها ، والإقبال عليها بالإخلاص والخشوع والخضوع ، فالمحافظة أخصّ من مطلق الإتيان ؛ لأنّ الحفظ عبارة عن التفقدّ والتعهّد والرعاية .

وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بهذا اللفظ المشعر بفعل الإثنين ، لبيان أنّ كلّ من حافظ على الصلاة وأدّاها على ما هي عليه في الواقع ، هي أيضاً تحافظ على رعايته ، فهي تردعه عن الفحشاء والمنكر ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ ، وفي السنّة الشريفة من ذلك الشيء الكثير .

وللصلاة أنحاء من الوجودات والمظاهر ، فهي في هذا العالم مركّبة من جملة من الأعراض من عالم آخر ، لها وجود مستقلّ تمدح فاعلها وتشفع له أو تذمّه وتلعنه ، وفي نشأة أُخرى غيب الغيوب تكون من صنع الله تعالى لا يعلمها إلّا هو .

والصلوات في الإسلام من أهمّ العبادات التي أُمر الناس بها ، فهي عمود الدين إن قُبلت قُبِلَ ما سواها ، وإن رُدّت ردّ ما سواها ، وأعدادها كثيرة » .

النموذج أعلاه يوضّح لنا منهج المؤلّف في دراسته لجزئيّة المقطع ، فهو يشرح بوضوح معنى المواظبة على الصلاة متمثّلاً في إقامتها بأوقاتها ، كما يستخلص دلالات أُخرى تتواكب مع الصلاة في أوقاتها ، مثل إقامتها بحدودها ، والإقبال عليها بالإخلاص والخشوع ، ويستدلّ على ذلك بدلالتها المعجميّة ، ويستكشف منها انطواءها على فعل الإثنين (أوقات الصلاة وشرائطها) من خلال استدلاله الذاهب إلى أنّ المحافظة على الصلاة تقترن بالضرورة على المحافظة على رعاية شرائطها ، متوكّئاً بذلك على نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف .

كما يعرض لنا جوانب أُخرى من الصلاة، وما يواكبها من الانعكاسات الدنيويّة والأُخرويّة في ممارستها، مثلما يعرض لنا أهمّيّة هذه الممارسة وتميّزها عن العبادات الأُخرى، ويعرض لنا أيضاً واجبها ومندوبها على النحو الخاطف.

وهذا يعني: أنّ المؤلّف عندما يتناول هذه الجزئيّة أو تلك، يتناولها بنحو مفصّل يتجاوز به دلالتها النصيّة إلى ما يرتبط بها من ظواهر عباديّة واجتماعيّة ونفسيّة... الخ، فيما لحظنا من النموذج المتقدّم تحليلاً للظاهرة العباديّة.

وأمّا أمثلة تحليله أو شرحه للظواهر الاجتماعيّة، كما في تعقيبه على فقرة ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ حيث أوضح بأنّها تتضمّن «أتقن القوانين المتكلّفة لأهمّ ما يناط به النظام الاجتماعي بالنسبة إلى الفرد والنوع، بأحسن بيان وأعذب أُسلوب، وأجمع كلام تبتهج له وتطمئنّ إليه القلوب... وتتجلّى من هذه الكلمة أهميّة النظام العائلي في الإسلام، وهي تنصّ على مساواة الرجل مع المرأة في الحقوق، والمماثلة في الوظائف إلاّ ما اختصّ به أحدهما بما ورد في الشريعة به...».

وعقّب على الفقرة بعدها: ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾:

«والإسلام مع أنّه سوّى بين النساء والرجال قد أعطى للرجال درجة عليهنّ.. وإعطاء هذه الدرجة للرجال من الأُمور الفطريّة.. فإنّ المجتمع يحتاج إلى من يعتمد عليه فيما يطرأ من المخاطر والاختلاف، ومن يحميه عنها، ويقدر على تنفيذ ما يراه من المصلحة والإنفاق عليه، والحياة الزوجيّة لا تخرج عن هذه السنّة، بل احتياجها إلى الرجل أشدّ، فهو الذي يتحمّل الصعاب في تحصيل النفقة، والمطالب بحماية المرأة والأولاد، ولذا أمرَ الشارع المرأة بتنفيذ أوامره».

ومن أمثلة تحليله للظواهر النفسيّة تعقيبه على فقرة: ﴿ **عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ** ﴾ بهذا النحو:

«أي: أنّ ذكركم لهنّ أمرٌ غريبي قهري، والله تعالى أصلح هذا الأمر الفطري بما هو صلاح لكم، فإنّ الشرائع الالهيّة تراعي الميول الفطريّة ولا تحطّمها، وإنّما تضبطها وتهذّبها حتّى تستقيم معها الحياة السعيدة الصالحة للبشريّة، فرخّص لكم التعريض لهنّ، وإخفاء الرغبة في نكاحهنّ، دون ذكرهنّ باللسان حفظاً للآداب، وصوناً لجرح المشاعر..».

إنّ هذه الفقرات تنطوي على ملاحظة نفسيّة دقيقة، من حيث تحديدها للبُعد الغريزي في تركيبة البشر، والتأكيد على ضرورة ضبطها وتعديلها دون كبتها، ممّا تضفي على عمليّة التفسير مزيداً من الحيويّة كما هو واضح.

والحقّ أنّ التحليل العبادي والاجتماعي والنفسي تتحدّد مستوياته وأبعاده لدى المؤلّف، كما أشرنا، عندما يتناولها بالتفصيل في الحقول اللاحقة الخاصّة بها، بَيْدَ أنّنا أردنا أن نحدّد مستويات ممارسته في هذه المرحلة التفسيريّة، التي تعنى بتحليل وشرح المقطع دلاليّاً، بما يواكب هذا الشرح من ظواهر تتألّق أيضاً عندما يمارس عمليّة (تذوّق فنّي وعلمي) ـ في هذه المرحلة من التفسير ـ وذلك من خلال استكشافه (أو استظهاره، حسب تعبير المؤلّف نفسه) للأسرار الدلاليّة والبلاغيّة التي يشرح بها المقطع، حيث تتفاوت الحاسّة الذوقيّة من باحثٍ إلى آخر حسب خبرته الشخصيّة في هذا الميدان.. ومع أنّ هذا الجانب أيضاً يتبلور في الخطوة التفسيريّة الثالثة (بحث أدبي، بحث دلالي... الخ)، إلّا أنّه يشكّل جزءً من مرحلته التفسيريّة التي نحن في صددها الآن، بصفة أنّ هذه المرحلة هي تناول كلّي للمقطع، وما يسبقه أو يلحقه هو تمهيد وتفصيل له، ممّا يفرض علينا متابعة مستوياته لدى المؤلّف.

إنّ استشكاف الدلالة لدى المؤلّف، يتمّ من خلال البنيّة اللفظيّة ذاتها أو خلال موقعها من النصّ، من حيث تقديم اللفظة أو العبارة وتأخيرها، ومن حيث ذكرها

وحذفها، ومن حيث تعريفها وتنكيرها... الخ، ممّا يتناول عادة في البلاغة الموروثة (والحديثة أيضاً).

ومن نماذج النمط الأوّل (أي الوقوف عند البنية اللفظيّة) نواجه ـ مثلاً ـ استشفافه لعبارتي (ربي) و (الله) تعالى عند إبراهيم عليه السلام في محاججته مع نمرود ﴿ **إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ...** ﴾ الآية.

علّق المؤلّف على محاورة إبراهيم عليه السلام الأُولى:

«إنّما قال إبراهيم عليه السلام: «ربّي» لاعتراف الجميع بأنّ ربّ إبراهيم هو الله تعالى».

وعلّق على محاورته الأُخرى:

«وإنّما عدل عليه السلام عن الرب؛ لأنّ الربوبيّة قد صارت واضحة بإقامة الحجّة عليها في المرّة الأُولى، فالتفت الخليل عليه السلام إلى أنّه تعالى معبود الكلّ كما أنّه ربّ الكلّ».

إنّ هذا الاستشفاف له أهمّيّته وطرافته، خاصّة أنّ المؤلّف في المواقع السابقة ذكر الفارقيّة بين العبارتين، مضافاً إلى ما ذكره هنا من ياء المتكلّم ودلالتها الانتسابيّة، واستتباع المحاججة ذكر كلمة (الله) تعالى في المحاورة الثانية.

بَيْد أنّ بعض استشفافاته من الممكن مناقشتها، ومنها ـ مثلاً ـ تعقيبه على فقرة ﴿ **وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً** ﴾ في قصّة المارّ على القرية، حيث قال:

«والظاهر أنّ المراد من العظام هي: عظام الموتى المجاورين له وعظام الحمار، ولا ينافي ذلك جعله آية للنّاس، ولم يجعل إحياء موتى أهل القرية آية، فإنّ الظاهر أنّ الله تعالى جعله محور إثبات ذكر هذه الحكاية، بلا فرق بين عظام موتى أهل القرية، وعظام خصوص الراكب والمركوب».

إنَّ التدقيق في القصّة من خلال إشارتها إلى الطعام والشراب والدابة، يقتادنا إلى أنّ سياقها يفرض أن تكون المطالبة بالنظر إلى العظام: عظام الراكب أو المركوب دون أهل القرية، وبقرينة أنّ كلاً من الطعام والشراب والدابّة قد أشير إليها بمطالبة خاصّة، حينئذٍ فإنّ المطالبة الثالثة تكاد تنحصر في الراكب.

طبيعيّاً قد يُثار السؤال: إذا كان البطل فاقداً لبدنه، كيف يستطيع أن يشاهد عظامه وقد التحمت وكسيت باللحم؟ وإذا شاهدهما عائدَين إلى بدنه، فلماذا التبس عليه الأمر وقال: ﴿ **لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾.

والإشكاليّة نفسها ترد في حالة الذهاب إلى أنّ المقصود من ذلك عظام الدابّة من حيث التباس الأمر عليه، بَيْد أنّه بقرينة ما ذكرناه، مضافاً إلى نصّ مأثور عن المعصومين عليهم السلام، يتعزّز الاتّجاه الذاهب إلى أنّ العظام هي عظام البطل. والمهم أنّه لولا النصّ المأثور والقرينة السابقة، لكان الاستشفاف الذي لحظناه عند المؤلّف هو الأقرب إلى التذوّق الفنّي، حيث إنّ الموتى ما داموا هم مورد التساؤل، فإنّ المطالبة بالنظر إلى عظامهم تكون أقرب إلى الواقع.

وأيّاً كان الأمر، فإنّ الغموض الفنّي في هذا النصّ وسواه هو الذي يهبه مزيداً من الأهميّة، طالما نعرف أنّ الفنّ العظيم هو ما يرشح بعدّة دلالات، بحيث يستخلص منها كلّ متذوّق ما يتناسب وخبرته الفنيّة.

من هنا نجد أنّ المؤلّف نفسه يُخضع تفسيره لأكثر من دلالة يستخلصها، من دون أن يرسو دائماً على دلالة محدّدة، وهذه سمة الباحث المتمكّن من دون أدنى شكّ، ما دام النصّ ذاته يشبّ بتنوّع دلالاته، مضافاً إلى أنّ (الحذر) ـ خاصّة حيال القرآن الكريم ـ يفرض على الباحث في حالات كثيرة أن يخضع تفسيره لظاهرة الاحتمالات المتنوّعة، وهذا ما نلحظه ـ كما قلنا ـ لدى المؤلّف، فمثلاً: عند تفسيره لمقطع ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ** ﴾ يعقّب عليه:

« وجملة ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ﴾ في موضع التعليل ، يصحّ أن يكون تعليلاً للمحاجّة ، يعني إنّما حاجّ نمرود إبراهيم ؛ لأنّه أتى بنفسه ملكاً ، فأورثه الكبر والإعجاب فحمله على الغرور.

ويحتمل أن تكون الجملة في مقام بيان كفران نمرود للنعمة التي أنعم الله تعالى عليه في الدنيا ، فهو بدل أن يؤمن بالله تعالى ويشكره عليها ادّعى الربوبيّة.

ويصحّ إرجاع الضمير في قوله تعالى : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ﴾ إلى إبراهيمعليه السلام ، فيكون المراد بالمُلك المعنوي لا الظاهري الإضافي ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ﴾ ».

لا شكّ في أنّ كلّ واحد من هذه الاحتمالات الثلاثة ، تظلّ موضع قبول وتقدير ، ممّا يكشف ذلك عن ضخامة تذوّقه الفنّي ، بما يواكبه من الدقّه والعمق في استشفاف الدلالات المتنوّعة بالنحو الذي لحظناه.

وإذ ندع هذا الجانب ، ونتّجه إلى ما يواكب الاستشفاف من ظواهر التقديم والتأخير أو الذكر والحذف أو التعريف والتنكير ونحوها ، نجد أنّ المؤلّف يتناولها بنفس التمكّن والدقّة وعمق التذوّق الفني ، فبالنسبة إلى التقديم والتأخير ـ مثلاً ـ يعقّب على آية : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ... ﴾ قائلاً:

« وإنّما قدّم سبحانه الهزم مع أنّه يكون بعد قتل جالوت عادةً ، للدلالة على سرعة استجابة دعائهم » ، و : « أخّر ذكر القتل ، ليكون ما ذكره عزّ وجلّ لداود من الفضائل على وتيرة واحدة ونسق متّحد ».

إنّ هذه الملاحظة الفنيّة لها أهمّيتها الكبيرة بالنسبة إلى البناء الهندسي لعمارة النصّ أو القصّة ، وخاصّة فيما يتّصل بالتمهيد الفني أو النقلة الفنيّة من قصّة طالوت إلى رسم شخصيّة أخرى هي شخصيّة داودعليه السلام ؛ إضافة إلى ما ذكره المؤلّف من أنّ

التأخير لعمليّة القتل، إنّما تمّ من خلال (التقديم) بعمليّة الهزيمة، فيكون التأخير هنا منطوياً على سمة مزدوجة، التأخير لضرورة تقديم الهزيمة عليها، ولضرورة التمهيد أو النقلة إلى رسم داود عليه السلام. هذا إلى أنّه يمكننا أن نضيف إلى ما ذكره المؤلّف من تقديم الهزيمة بسبب سرعة استجابة الدعاء، نضيف إلى ذلك أنّها تشكّل تسريعاً على نحو الإجمال، وأنّ عمليّة القتل جاءت تفصيلاً للإجمال المُشار إليه، فالمهمّ هو إبراز الهزيمة، أمّا تفصيلها فيجيء في مرحلة ثانويّة، كما هو واضح.

وأمّا بالنسبة إلى ظاهرة (الذكر والحذف)، فإنّ المؤلّف في الغالب يركّز على (الذكر)، وأمّا (الحذف) فلا يُشير إلى أسبابه، بل يشير إلى مضمونه بعبارة يكرّرها هي (ويستفاد من الآية الشريفة..) أي: إنّ ما حذفه النصّ هو ما استفاده المؤلّف، مثل ما حذفه النصّ ـ في قصّة طالوت ـ من تفصيلات كثيرة تتّصل بالمعركة وملابساتها، ومنها: موافقة الإسرائيليّين على مقترحات نبيّهم بعد الاعتراض، والتوجّه إلى ساحة المعركة، حيث عقّب المؤلّف قائلاً:

«ويستفاد من الآية الشريفة: أنّ بني إسرائيل بعد أخذ المواثيق من نبيّهم، وفوا بما قاله لهم، واتّخذوا طالوت ملكاً عليهم، فنظم الجنود ورتّبهم حسب درجاتهم ومراتبهم واستعرضهم... الخ».

واضحٌ أنّ هذه التفصيلات لا وجود لها في القصّة (أي: إنّ النصّ قد حذفها لأسباب فنيّة) تتّصل بالاقتصاد اللغوي، وبجعل القارئ مساهماً في عمليّة الكشف الفنّي.

وأمّا (الذكر) فإنّ المؤلّف ـ كما قلنا ـ يركّز عليه ويلتمس له تعليلات متنوّعة تنمّ عن مدى تذوّقه ومهارته في هذا الميدان، ومن ذلك مثلاً تعقيبه على قصّة إبراهيم عليه السلام وتقطيعه الطيور الأربعة بعد سؤاله القائل: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ قائلاً: «إنّ الغرض المقصود من السؤال هو مشاهدة كيفيّة إحياء الأموات، المدلول

عليها بقوله : ﴿ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ حيث تدلّ هنا العبارة على إحياء الجمع الكثير من الأموات بعد تلاشي أجزائها واستمالتها وتبدّلها إلى صورة أخرى ، فإنّ إحياء هذا الجمع أمرٌ يستبعده الذهن باديَ الأمر ، ولذلك كان الجواب مشتملاً على قيود خاصّة دخيلة في استيفاء الغرض المقصود » .

« والقيود التي أخذها الله عزّ وجلّ ، هي أنّ تكون مورد الإحياء طيوراً ، وأن تكون أربعة ، وأن تكون إحياء الأموات ، وأنّ يجعلها مأنوسة به ، وأن يقتلها ويقطعها ويمزج أجزاءها ، وأن يفرّق الأجزاء على الجبال المتباعدة ، وأن يدعوهنّ باجتماعهنّ عنده ، وأن يكون كلّ ذلك بيد إبراهيم ﷺ وبمباشرة من نفس السائل » .

إنّ هذا النصّ التفسيري يفصح عن ضخامة تذوّق المؤلّف ، ومهارته في اكتشاف الأسرار الفنيّة المدهشة وراء (الذكر) للتفصيلات التي سردها المؤلّف لنا بالنسبة إلى عناصر القصّة ، أحداثاً وأبطالاً ، وبيئات ومواقف ، وهي ملاحظات فنيّة قلّما ينتبه لها المعنيّون بشؤون التفسير .

ومن ملاحظاته الفنيّة في هذا الميدان فيما يتّسم بعضها بالتفصيل كما هو طابع الملاحظة المتقدّمة ، وبعضها يتّسم بكونه خاطفاً ، مثل تعليقه على مقطع يتّصل بصلاة الخوف وبما يليها من الأمر عبر قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ قائلاً :

« ولعلّ الوجه في وجوب ذكر الله تعالى في هذه الحالة ؛ لأنّ الناس غالباً بعد زوال الخوف يذكرون الأشخاص ويفتخرون بالألقاب والأعمال ، فأمرهم عزّ وجلّ بذكر الله تعالى لأنّه المنعم الحقيقي والسبب الواقعي في زوال الخوف ، وقد أنعم الأمن والأمان ، والخير والإحسان ، فيجب . . » .

إنّ أمثلة هذا التعليل ـ في المطالبة بذكر الله تعالى في حالة الأمن بعد حالة الخوف من حيث استتباع الحالة الأُولى تشاغلاً بالدنيا ـ لتنطوي ـ كما كرّرنا ـ على ملاحظات

ذات قيمة جديرة بالتبجيل، بما تنطوي عليه من تحليل نفسي واجتماعي، وبما تتضمّنه من إدراك ذكي للصلة بين (ذكر) هذه الظاهرة وبين التركيبة البشريّة في سلوكها المشار إليه.

وبالنسبة إلى ظاهرتي (التعريف) و (الإبهام)، فإنّ المؤلّف يتوفّر أيضاً على استشفاف الدلالات الفنيّة لهما بنجاح، ومن ذلك ـ مثلاً ـ التعريف باسم إبراهيمعليه السلام وإهمال نمرود، وإبهام اسم المارّ على القرية واسم القرية ذاتها، معلّلاً ذلك بقوله:

«وإنّما ذكر سبحانه إبراهيم، وأبهم اسم الذي مرّ على القرية واسمها، والقوم الذين كانوا يسكنون فيها، تعظيماً لإبراهيمعليه السلام، ولأنّ الغرض هو بيان كيفيّة الهداية والموعظة، ولا يحتاج إلى ذكر الأسماء بعد استيفاء الغرض من ضرب المثل، أو لأنّ الإحياء بعد الإماتة من الأُمور المستبعدة عند الناس والمستعظمة عندهم، فاقتضى الحال أن يكون الكلام بلحن الاستهانة والاستصغار...» وبالنسبة إلى نمرود وإبهام اسمه، قال: «ولم يصرّح سبحانه باسمه تحقيراً، ويمكن أن يُراد به كلّ من كفر، سواء كان نمرود أو من حضر في مجلسه».

أخيراً، قبل أن نعبر هذه المرحلة من الخطوة التفسيريّة لدى المؤلّف، يجدر بنا أن نقف أيضاً عند نماذج من استشفافاته البلاغيّة في حقّ العنصر «الصوري» ونعني به: التشبيه والاستعارة والكناية أو الرمز ونحوها من الظواهر التي يرصد بها المؤلّف علاقات التماثل أو التضادّ فيما بينها.

وبما أنّ الباحث تظلّ عنايته الأُولى تفسيريّة الطابع، أي إبراز الدلالة في النصّ، حينئذٍ فإنّ توكّئه على العنصر الصوري لا يتجاوز النطاق المذكور، لذلك نجده عندما يواجه الصورة إمّا أن يخطف بها عابراً، كما هو ملاحظ عند تناوله لمقطع ﴿**وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾ حيث عقّب:

«والعقدة من العقد، بمعنى الشدّ، وهما والعهد بمعنى واحد.

وفي الآية استعارة بليغة حيث شبّه عقد النكاح بالعقدة التي يعقد بها أحد الحبلين بالآخر، وجعلها أمراً قلبيّاً، لبيان أنّ هذه الأمور من الاعتبارات العقلائيّة التي يقوم عليها نظام المجتمع».

فالمؤلّف قد اكتفى بالإشارة إلى جماليّة الاستعارة، من حيث مماثلة عقد الزواج للحبل المعقود.

ونجده حيناً آخر يتعامل معهاكأيّة مفردة ترشح بأكثر من معنىً، مثل: تعقيبه على مقطع ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً**...﴾ قائلاً: «المراد باستيقاد النار هو إيقادها للاهتداء بنورها أو الاستضاءة به»، وعلى مقطع ﴿**ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ**﴾ «المراد به الأعمّ من النور الظاهري الذي كان من إيقاد النار، والنور المعنوي الذي هو الإسلام، فإنّ المنافق لتماديه في الغيّ والضلالة ومزاولته للأعمال الشريرة حصلت له طبيعة ثانية أوجبت إطفاء نور الفطرة والإعراض عن الإيمان» ومقطع ﴿**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ «أي: صيّرهم في الظلمات لا يبصرون شيئاً، ويستفاد من حذف المتعلّق، وسياق الآية الشريفة أنّ الله تعالى أذهب جميع مراتب النور عنهم في الدنيا والآخرة».

فالملاحظ هنا: أنّ تعامل المؤلّف مع هذه الصور يماثل تعامله مع أيّة عبارة مباشرة، مترجماً الصورة الرامزة إلى دلالتها المباشرة أو المعنى الثانوي إلى معناه الأوّلي، وهو أمرٌ يتناسب بطبيعة الحال مع منهجه التفسيري كما قلنا.

وقد يفسّر الصورة بشيء من التفصيل، مصحوباً بالاحتمالات الفنيّة التي تشي الصورة بها، وهذا ما نلحظه ـ مثلاً ـ في مواجهته لصورة: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ**...﴾ يعقّب قائلاً:

«أي: لا يقوم في أُمور المعاش والحياة بالوجه الصحيح والنهج القويم؛ وذلك لأنّ الإنسان، بل سائر الحيوان، قد أودع الله تعالى فيه قوّة يميّز بها الخير من الشرّ،

والنافع من الضارّ.. فإذا اختلّت هذه القوّة الدرّاكة المميّزة اختلّت أفعاله وحركاته وأحكامه، فلا يرشد إلى الصحيح منها والنافع، كالمصروع الذي فقد فيه التمييز، فلا يقوم في معيشته بالوجه الصحيح النافع».

«ويمكن أن يكون مسّ الشيطان موجباً لاختلال نظمه، وخبط في أموره في جميع النشآت، ففي هذا العالم يغلب عليه الوهم والخيال، فيرى كالمصروع، وفي موقف الحشر يراه جميع الناس كذلك؛ لأنّه عالم ظهور الحقائق والسرائر للجميع، فيحشر المرابي كالمصروع».

وفي مواجهته للصورة اللاحقة ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾ يعلّق:

«أي: إنّ أكلهم للربا واستحلالهم له، أو إنّ الدليل على كونهم خابطين خرجوا عن جادّة الصواب، أنّهم قالوا في قياس باطل: إنّما البيع مثل الربا، ولم يقولوا: إنّما الربا مثل البيع، الذي هو أقرب إلى الذهن، فقد أمكن الخبط في نفوسهم وظهر الاختلال على أفكارهم وأقوالهم، فكان المعروف والمنكر لديهم سيّان، وقد شبّهوا الربا الذي هو خلاف الفطرة المستقيمة بالبيع الذي هو المعروف بين العقلاء، وهما متباينان، ولكنّ الخبط الذي استقرّ في نفوسهم جعلوا المأمور به كالمنهي عنه، وهو قياس مع الفارق».

ممّا لا تردّد فيه أنّ هذا الاستشفاف للصورة يتميّز بدقّة الملاحظة وطرافتها، خاصّة عندما ربط بين قول المرابين ﴿ **الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾ بدل العكس، وبين الخبط الذي يسِمَهُم، أي: بين الصورتين (الخبط) و (مثليّة البيع للربا) وترتّب الثانية على الأولى، فما دامت الصورة الأولى تسِمَهُم بالاختلال، فحينئذٍ لا بدّ من اختلالهم أيضاً في صياغة الأقوال أو مسوّغات عملهم.

وهكذا نجد أنّ المؤلّف في استشفافاته البلاغية، يتّسم بالطابع ذاته في سائر استخلاصاته التفسيريّة، التي وقفنا عندها في المرحلة التي نتحدّث عنها.

المرحلة الأخيرة من الخطوة التفسيريّة :

تتمثّل في تلخيصه للمقطع الذي شرح مفرداته لغويّاً أوّلاً ، وشرحه دلاليّاً ثانياً ، ويختمه بالتلخيص ثالثاً .

وهذه المرحلة هي أقصر الحقول التفسيريّة حجماً ، إلّا أنّها أكبر الحقول فائدة ، نظراً لأنها تقدّم حصيلة نهائيّة لمضمون المقطع ، وهو المطلوب الرئيس لدى القارئ ، طالما نعرف جزماً بأنّ القارئ ستتوزّع اهتماماته بين ما هو لغة وما هو مفردة وما هو استشفاف أو احتمال أو ... الخ ، وإذا بالباحث يقتاده بعد هذه الرحلة في أكثر من حقل إلى المحطّة الأخيرة التي يجني من خلالها ثمر قراءته ، ويمكن ملاحظة هذه المرحلة الختاميّة التي تحمل عنوان « والمعنى : ... » في نماذج من نحو تعقيبه على مقطع ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾ ، حيث يختم ذلك بعد أن يتحدّث لغوياً ودلاليّاً كما لحظناه بالنسبة إلى هذا المقطع قبل صفحات بقوله :

« والمعنى : أنّ المطلّقات ينتظرن ويمسكن بأنفسهنّ عن قبول الزوج حتى يرين ثلاثة أطهار » .

وفي تعقيبه على المقطع بعده ﴿ **وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ** ... ﴾ يختتمه بالقول :

« والمعنى : لا يحلّ للنساء أن يكتمن ما خلق الله تعالى في أرحامهنّ من الحيض أو الحمل ، استعجالاً للخروج من العدّة ، وإضراراً بالزوج في رجوعه ، أو تطويلها لأجل النفقة » .

وهكذا بالنسبة إلى غالبيّة المقاطع التي يتناولها وفقاً للمراحل الثلاث بالنحو الذي لحظناه .

الخطوة التفسيريّة الثالثة (والأخيرة) لدى المؤلّف ، هي ـ كما سبقت الإشارة ـ تظلّ بمثابة « ملحق » للخطوة التفسيريّة الثانية ، كما كانت الخطوة التفسيريّة الأُولى بمثابة « تعريف » أو « تمهيد » للخطوة الثانية .

وتتميّز الخطوة التفسيريّة الثالثة بكونها (إضاءات) تحقّق مزيداً من الفائدة بالنسبة إلى القارئ الخاصّ أو القارئ المعنيّ بتفصيلات أكثر من النصّ، وإلّا فإنّ القارئ يحقّق إشباعه من خلال الخطوة الثانية التي لحظناها.

الخطوة الثالثة تتضمّن حقولاً ـ سبق أن أشرنا إليها ـ مثل (بحث دلالي)، (أدبي)، (فلسفي)، (كلامي)، (عرفاني)، (اجتماعي)، (تاريخي)، (علمي)، (أخلاقي)، (قرآني)، (فقهي)...

هذه الحقول ـ كما قلنا ـ تعقب كلّ مقطع يتناوله المؤلّف (وليس كلّ جزئيّة) إلّا أنّها لا تطّرد في كلّ المقاطع بقدر ما يتطلّبه المقطع ذاته، فقد يقتصر المؤلّف على (بحث) واحد (كالبحث الروائي) أو (الفقهي) أو (الدلالي)... الخ، وقد يتجاوزه إلى حقلين أو أكثر كما هو ملاحظ ـ مثلاً ـ في المقطع المتضمّن لآيتين: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾، ﴿ **الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ**... ﴾، حيث تضمّن ستّة بحوث هي: بحث أدبي، بحث دلالي، بحث روائي، بحث فقهي، بحث علمي، بحث عرفاني.

المهمّ أنّ كلّ واحد من هذه البحوث يتناول شريحة محدّدة من المقطع، ويلقي الإثارة على جوانبها، تفصيلاً أو عابراً، بنحو يشكّل إمّا توضيحاً لما ذكره في الخطوة التفسيريّة الثانية، أو إضافة جديدة، أو تكراراً من خلال الإشارة المجرّدة إليه، ونحسب أنّ وقوفنا عند كلّ (بحث) منها سيوضّح الخصائص التفسيريّة لهذه الخطوة التي نحن في صددها.

إذاً لنقف عند كلّ واحدٍ منها، ونبدأ ذلك بالحديث عن:

البحث الدلالي:

يجيء البحث الدلالي مباشرةً بعد الخطوة التفسيريّة الثانية، والسبب في ذلك هو أنّ هذا البحث امتداد للخطوة التفسيريّة المذكورة، بصفة أنّ هذه الخطوة تفسير

دلالي أو تفسير لمضمون النصّ، وحينئذٍ فإنّ ما تعقّبها مباشرة يظلّ عمليّة امتداد لما سبقها إلّا في حالة تطلّبها بحثاً لغويّاً، فحينئذٍ يتقدّم البحث اللغوي عليه اتّساقاً مع المنهج التفسيري لديه، حيث قلنا إنّه يبدأ بالتحليل اللغوي ثمّ بالتحليل الدلالي، وعلينا ملاحظة هذه الخصيصة ـ مثلاً ـ في بحثه اللغوي والدلالي للمقطع الذي تحدّث عن قصّتي إبراهيم مع نمرود والمارّ على القرية، حيث طرح مسائل لغويّة تتّصل بالموصول والفعل المضارع والظرفيّة.. الخ، فهي مسائل تتّصل بالدلالة النحويّة للعبارة، بينما يطرح الدلالة المعجميّة في خطوته التفسيريّة الثانية، ممّا يعزّز ذهابنا إلى أنّ الملحق اللغوي لا يُعنى به إلّا الخاصّة، ولكنّه ينطوي ـ كما كرّرنا ـ على الفائدة دون أدنى شكّ.

بَيْدَ أنّ المهم هو ما يطرحه المؤلّف من وجهات النظر في الحقل الدلالي حيث تتضخّم الفائدة لدى القارئ بنحو واضح، ففي سياق الموضوع الذي نتحدّث عنه، نجد أنّ المؤلّف يطرح سبع عشرة ملاحظة تنتظم بعض فقراتها، مثل:

«**الأوّل:** إنّما ذكر الله تعالى قصّة خليله بعد آية الكرسي للإشارة إلى أنّ مثل الخليل هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وبواسطة مثله يخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، وأنّ نمرود وأمثاله من الطواغيت هم الذين يخرجون الناس من النور إلى الظلمات.

الثاني: يستفاد من الآيات الشريفة أدب المحاجّة مع الخصم، وقد بيّن الله تعالى كيفيّة المحاجّة مع الظالمين أيضاً.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾ أنّ هذه المحاجّة وقعت بعد أن ربّاه الله تعالى، وأوصله إلى مقام حقّ اليقين.

الرابع: إنّما خصّ الشمس بالذكر، لأجل أنّها كانت من جملة المعبودات عندهم.

الخامس: يظهر من قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ أنّه ليس من المحالات الذاتيّة، وإلّا لما طلبه إبراهيم عليه السلام.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** ﴾ أنّ سبب طغيانه ودعواه أن رأى لنفسه المُلك والسلطة والنفوذ.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ من قبيل نفي الحكم بلسان نفي الموضوع.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ...** ﴾ أنّ المارّ على هذه القرية قد أبدى إعجابه عن كمال قدرته جلّت عظمته ونهاية اقتداره، فيكون اعترافاً بالحيرة، ويدلّ على ما ذكرناه في ذيل الآية الشريفة ﴿ **أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾.

التاسع: إنّما أبهم تعالى إسم القرية وإسم النبيّ الذي مرّ عليها، بل وزمان القصّة؛ لأنّ المراد إظهار القدرة التامّة، وأنّها غير مختصّة بوقت دون آخر، وبمكان دون آخر، والأسلوب البلاغي يقتضي عدم ذكر جهات القصّة غير الدخيلة.

العاشر: يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ **لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ بياناً لقصر المدّة التي لبث فيها بعد أن رأى الآيات، أو إشارة إلى عظم الآيات التي رآها من الله تعالى، فتكون المدّة الطويلة بالنسبة إليها قصيرة.

الحادي عشر: أنّ الوجه في تكرار كلمة «انظر» في الآية الشريفة أنّ في كلّ واحد من الموارد الثلاثة غرضاً خاصّاً، فالأوّل لبيان دفع ما يتوهّم من قصر المدّة، والثاني لبيان طول المدّة، والثالث لبيان كيفيّة البعث.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿ **وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا** ﴾ على كمال قدرته على الموجودات، وأنّ قدرته على إيجاد الروح تستلزم قدرته على جميع ما دون الله.

الثالث عشر: يصحّ أن يكون المراد من العظام في قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ جنس العظام الشامل.

الرابع عشر: أنّ هذه الآية المباركة والتي بعدها تصوير خارجي لحقيقة المعاد، التي صعب على الأفهام قبولها.

الخامس عشر: تدلّ هذه الآية الشريفة وأمثالها على صحّة الرجوع إلى هذه الدنيا بعد الموت.

السادس عشر: يصحّ أن يستدلّ بهذه الآية المباركة الدالّة على تجدّد القرية وبعث أهلها، على صحّة القاعدة العقليّة التي أذعن بها الكلّ من: أنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، فجرى ذلك بالنسبة إلى كلّ قرية.

السابع عشر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استمرار علمه من أوّل الأمر بقدرته تعالى، ولكن تأكّد علمه بما شاهده من الحوادث.

إنّ هذا النصّ الطويل الذي استشهدنا ببعض فقراته، يفصح عن منهجيّة المؤلّف في خطوته التفسيريّة الثالثة، متمثّلة في استخلاصه دلالات ثانويّة بالقياس إلى ما استخلصه سابقاً في خطوتيه التفسيريّتين، فمثلاً: ذكر في خطوته التفسيريّة الأُولى أنّ النصّ أردف آية الكرسي، التي تحدّثت عن إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور وهدايته للمؤمنين، بأنّ «هناك هداية تحصل بالحجّة والبرهان، كالتي مع إبراهيم عليه السلام، وهداية بالمشاهدة والعيان، كالتي حصلت مع ذلك المؤمن الكريم الذي مرّ على قرية».

فهناك قابل بين موقفين لحقيقة واحدة، لكن أحدهما موقف استدلالي عقلي، والآخر حسّي تجريبي.

وأمّا في خطوته التفسيريّة الثانية، فلم يشر إلى هذا الجانب، بينما أضاف في

خطوته التفسيريّة الثالثة استخلاصاً آخر هو: المقابلة بين شخصيّتين تجسّد إحداهما الإخراج من الظلمات إلى النور، والأُخرى بالعكس، كما أبرز جوانب ثانويّة أُخرى كأدب المحاجّة مع الخصم مطلقاً ومع المنحرف، وأنّ إبراهيم عليه السلام وقعت محاجّته بعد وصوله إلى درجة اليقين في الإيمان، وأنّ تخصيص إبراهيم عليه السلام لظاهرة الشمس لاحتلالها أهمّيّة عند المنحرفين.. الخ، هذا إلى أنّه أبرز جانب فنيّة مثل استخلاصه لتكرار كلمة «انظر» ثلاث مرّات، ودلالة كلّ واحدة منها على جانب خاصّ، ومثل استخلاصه الفنّي للسرّ الكامن وراء إبهام إسم المارّ على القرية وإسمها وزمان الحادثة... الخ.

طبيعياً أنّ الظاهرتين الفنّيّتين الأخيرتين (التكرار) و (الإبهام) ـ كما شاهدنا ذلك في نصوص سابقة ـ قد يطرحهما الباحث في خطوته التفسيريّة الثانية، وكذلك غيرها من الظواهر البلاغية أو الدلاليّة ممّا يعني أنّ «البحث الدلالي» لا يتناول الظواهر الثانويّة فحسب، بل يتناول أيضاً ما لا يجد له المؤلّف سياقاً في خطوته التفسيريّة الرئيسة، فيرجئه إلى الخطوة الثالثة، إلّا أنّه في الحالتين: يستكمل الباحث عمليّة تفسيره الشامل من خلال ما يفرضه عليه البحث من سياقات مناسبة لهذا الطرح أو ذاك، أو من خلال ما يجده ثانوي الأهميّة كأدب المحاجّة أو المرحلة العباديّة عند إبراهيم عليه السلام ... الخ.

بَيْد أنّ ما تجدر ملاحظته هنا: أنّ البحث الدلالي لا يتمخّض لمضمون أو دلالة العبارة لدى المؤلّف، بل يتداخل مع البحوث الأُخرى كالبحث الأدبي أو الفنّي كما لحظنا، ويتداخل مع بحوث أُخرى كالبحث الفقهي وغيره، فمثلاً: نجده قد طرح بحثاً فقهيّاً في البحث الدلالي عقّب فيه على فقرة ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ قائلاً: ربّما يستدلّ بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ على صحّة استقلالها في النكاح من دون مراجعة الوليّ، وهذا صحيح بالنسبة إلى البالغة الرشيدة الكاملة،

وأمّا بالنسبة إلى غيرها فالدليل لا يشملها، وأنّ التمسّك بالآية المباركة فيها من التمسّك بالدليل في الموضوع المشكوك، وهو باطل عند الجميع، وقد فصّلنا البحث في الفقه، ومن شاء فليراجع النكاح من المهذّب (ويقصد به كتابه الفقهي: مهذّب الأحكام).

واضح أنّ هذه الملاحظة فقهيّة، ويناسبها حقل (بحث فقهي) لا «بحث دلالي» طالما لحظنا أنّ المؤلّف في بحثه الدلالي يتناول «المعنى» في دلالته الرئيسة والثانويّة والهامشيّة، أي معنى العبارة، وإيحاءاتها المتنوّعة، وما تتواكب معها من ظواهر مرتبطة بها بشكل أو بآخر، ولعلّ كون الجزئيّة التي يتناولها بالبحث حكماً شرعيّاً، هي التي تسوّغ للمؤلّف أن (يداخل) بين البحثين: الدلالي والفقهي، ويدلّنا على ذلك أنّ الباحث في تناوله ـ مثلاً ـ لجزئيّة ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ** ﴾ يعلّق عليها في البحثين: الدلالي والفقهي بملاحظة مشتركة من جانب (وهي الملاحظة الفقهيّة) وبملاحظة مستقلّة هي الملاحظة الدلاليّة، ففي حقل (بحث دلالي) يقول المؤلّف:

«... يدلّ قوله تعالى: ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ** ﴾ على كمال عطفه وشدّة اهتمامه عزّ وجلّ ببقاء العصمة الأُولى، حيث عبّر تعالى ﴿ **بِرَدِّهِنَّ** ﴾ دون غيره، فجعل للزوج حقّ الردّ باعتبار الحالة التي قبل الطلاق فكأنّها لم تنقطع، ولا حقّ للمرأة في المعارضة، ولا منافاة في ذلك مع القول بأنّ للزوج حقّاً في المطلّقة، ولسائر الخُطّاب حقّاً أيضاً، ولكنّ الردّ لا يتحقّق إلّا مع الزوج الأوّل في العدّة.

ويستفاد من هذه الآية الشريفة رجحان المراجعة وحسنها، ويدلّ عليه العدول عن التعبير بالزوج إلى البعولة، لإخراج غير المدخول بها، وللترغيب في المراجعة، وتذكّر الحالة السابقة والعصمة الأُولى».

هذا ما ورد في حقل (**بحث دلالي**). أمّا ما ورد في حقل (بحث فقهي) فقد جاء

على هذا النحو:

«.. يدلّ قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أنّ الزوج إذا طلب الرجوع لا حقّ للمرأة في معارضته في ردّها»، فالإشارة إلى عدم حقّ المعارضة وردت في كلا البحثين: الدلالي والفقهي، إلّا أنّها في البحث الأوّل وردت ضمن الحديث عن ظاهرة دلاليّة عامّة، بينما تناولها مستقلّة في البحث الأخير.

وقد يقتصر تناوله في الحقلين على الظاهرة الفقهيّة دون الإشارة إلى الدلالة، وهذا من نحو ما طرحه في (بحث دلالي) بالنسبة إلى جزئيّة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾، حيث قال:

«يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ..﴾ بالملازمة على اعتبار قولهنّ إذا أخبرن بما في أرحامهنّ من الحيض والطهر والحمل.

ولعلّ ما ورد في الأحاديث «إنّ الله فوّض إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض والطهر والحمل» مستفاد من هذه الآية الشريفة، وقد سيق ذلك مساق القاعدة الكلّيّة، وأجمع الفقهاء على اعتبار قولهنّ في هذه الثلاثة ما لم يعلم الكذب وهو موافق للقاعدة النظاميّة المذكورة في الفقه من أنّ «كلّ من استولى على شيء فقوله معتبر فيما استولى عليه» ولهذا القاعدة مورد كثيرة في فقه المسلمين».

وأمّا في حقل (**بحث فقهي**) فقد ورد:

«... يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ...﴾ على قبول قولهنّ في إخبارهنّ بما في أرحامهنّ من الحمل والحيض والطهر، ولا يختصّ الحكم بخصوص الحمل، كما ذكره بعض الفقهاء، لأنّ هذا الزجر الشديد يناسب أن يكون على كتمان الحمل، ولكن إطلاق اللفظ يشمل جميع ما ذكر».

بيّنٌ أنّ استخلاص «اعتبار قولهنّ» هو الظاهرة المطروحة في الحقلين، كلّ ما في الأمر أنّ الباحث ركّز في أوّلهما على عنصر الملازمة على اعتبار قولهنّ» والملازمة

ربّما لشيء بما هو دلالي » واستفادة الأحاديث الشاملة للحيض والطهر بدورهما من الآية الكريمة ، بينما ركّز في حقله الفقهي على شموليّة إطلاق اللفظ لهما .

ومهما يكن فلا مشاحّة في أمثلة هذا التداخل ، لولا أنّ المؤلّف نفسه حريص على فرز الحقول المذكورة بعضها عن الآخر .

والمهم هو : أنّ الباحث في استخلاصه للدلالات الإضافيّة التي خصّص لها (البحث الدلالي) ـ خاصّة فيما يتّصل بتناوله لآيات الأحكام التي يقترن استخلاص دلالاتها الأُسلوبيّة بشيء من الصعوبة ـ يُوفّق بنحو ملحوظ في استخلاص ذلك ، فلو عدنا إلى تعليقه على جزئيّة ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ لوجدنا أنّ استشفافه لكلمة ﴿ بِرَدِّهِنَّ ﴾ وكلمة (بعل) ينطوي على مهارة فائقة في اقتناص الدلالات الحائمة على تينك الكلمتين ، فكلمة (الردّ) وجدها المؤلّف وكأنّها توحي بدلالة الاستمراريّة في العلاقة بين الطرفين أو وكأنّ العلاقة لم تنقطع خلال العدّة ، وكلمة « البعل » دون « الزوج » وجدها توفي بإخراج غير المدخول بها من العلاقة المذكورة . . . وهكذا .

إنّ أمثلة هذا الاستشفاف من خلال اللغة الفقهيّة في النصّ ، لتفصح عن ضخامة تذوّق المؤلّف للعبارة الفنيّة ، ممّا يهب تفسيره مزيداً من الأهميّة كما هو بيّن .

لكن قبل أن نغادر هذا الحقل (بحث دلالي) ينبغي أن نكرّر الإشارة إلى أنّ أمثلة هذا الاستشفاف لا تنفصل عن الجانب الفنّي أو البلاغي للنصّ ، طالما نعرف بأنّ (المعنى) تتداخل فيه العناصر المضمونيّة والفنيّة ، بصفة أنّ انتخاب العبارات ينتمي إلى ظاهرة (الأُسلوبيّة) ، والأخيرة تعني : السمة الفنّيّة أو البلاغيّة .

لذلك نجد الباحث يداخل بين ذينك العنصرين ، كما هو ملاحظ في النماذج السابقة ، وهذا ما يقتادنا إلى الإشكاليّة التي وجدناها بالنسبة إلى (تداخل) البحثين : الدلالي والفقهي ، للأسباب التي أوضحناها في حينه ، ونجدها الآن متداخلة مع حقل آخر بعنوان :

البحث الأدبي:

إنّ هذا الحقل لدى الباحث يشمل كلا البحثين: اللغوي والبلاغي، ومع أنّ البحوث الحديثة تفصل أحدهما عن الآخر تماماً: بصفة أنّ اللغة (فقهها أو نحوها... الخ) لا علاقة لكثير من عناصرها بما هو (فنّ) كعنصر (الصورة) مثلاً، حيث لا علاقة لقدرة المنشئ للعبارة النحويّة السليمة بقدرته على انتخاب الصورة الفنيّة أيضاً، وإحداهما غير الأُخرى. ولكن إذا لوحظت اللغة من جوانب أُخرى، بصفتها -من جانب- الأداة الرئيسة للمنشئ الأدبي، وبصفة أنّ عناصرها الثانويّة من (إيقاع) وغيره، أو عناصرها المعنويّة من تقديم أو تأخير، وذكر أو حذف، وتفصيل أو إجمال.. إلخ، ذات صلة بمهارة المنتج الأدبي، حينئذٍ فإنّ المسوّغ الجامع لهما قد يفرض فاعليّته في هذا الميدان.

وأيّاً كان، فإنّ المؤلّف في حقل (بحث أدبي) يطرح غالباً مسائل لغويّة خالصة، وحيناً آخر يشفعها بمسائل بلاغيّة، وهذا الأخير يمكن ملاحظته (أي: طرح المسائل اللغويّة والبلاغيّة) في المقطع الذي سبق أن وقفنا عنده ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، حيث استهلّه بالقول:

«قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ جملة خبريّة في مقام الإنشاء، وهو أبلغ من الإنشاء في الطلب والإيجاب.

وفي كلمة ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ من البلاغة والإبداع ما لا يخفى، فإنّها بإيجازها تشتمل على معانٍ دقيقة بالإشارة والتلويح، فإنّ فيها ترك التصريح إلى ما تشوّق النساء إليه، والاكتفاء بالكناية عمّا يرغبن فيه، وعدم إيئاسهنّ، مع اجتناب إخجالهنّ وتوقّي تنفيرهنّ أو التنفير منهنّ، فإنّ الكلام في المطلّقات وهنّ معرضات للزواج وخلوّهنّ عن الأزواج، ولا بدّ من ضبط النفس ومنعها أن تقع في الشهوة المحرّمة.

ولولا هذه الكلمة لما أفادت تلك اللطائف الدقيقة.

والتاء في ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ زائدة لتأنيث الجماعة ، وهو شاذّ لا يقاس عليه ، ويعتبر فيه السماع .

وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ منصوب على أنّه مفعول به على تقدير .

وإنّما ذكر العدد مؤنّثاً ﴿ ثَلَاثَةَ ﴾ باعتبار لفظ ..

وفي قوله تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ في ذلك نوع من الاستخدام الذي هو من المحسّنات الكلاميّة ، وهو عبارة عن أن تكون الكلمة لها معنيان ، فيذكر أحدهما ثمّ يراد بالضمير الراجع إليها معناه الآخر .

ثمّ إنّ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ التفات عن خطاب الجمع إلى خطاب المفرد ، ثمّ إلى الجمع ، ثمّ إلى المفرد ، كلّ ذلك لتنبيه المخاطب ، ورفع الكسل في الإصغاء ، وتنشيط الذهن .. الخ » .

من النموذج المتقدّم نتبيّن طريقة الباحث في تناوله للمسائل اللغويّة والبلاغيّة في حقله (بحث أدبي) ، بيْد أنّ استكشافاته البلاغيّة تظلّ متّسمة بأهميّة أكثر دون أدنى شك ، خاصّة عندما يخضعها للتفسير النفسي ، وهو ما نلحظه بوضوح في تعقيبه على كلمة ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ حيث استكشف من هذه العبارة ارتباطها بالعمليّات النفسيّة (حيث لا يتحقّق مثل هذا الارتباط في عبارة أخرى أو في حالة الحذف) وما يقترن بها من السلوك بالنحو الذي فصّل الحديث عنه .

ومع أنّ الباحث يتوكّأ على المبادئ البلاغيّة الموروثة ، كالاستخدام والالتفات ونحوهما ممّا لحظناه في النموذج المتقدّم ، إلّا أنّ تذوّقه الفنّي يتجاوز الدائرة الموروثة ، ليعبر بها إلى تخوم الفنّ الحديث أحياناً ، وهو ما يهب ـ كما كرّرنا ـ تفسيره مزيداً من القيمة .

البحث الفقهي :

من الواضح أنّ البحث الفقهي ينحصر في آيات الأحكام المباشرة أو غير

المباشرة، مثل آية: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ فيما عقّب المؤلّف على الجزئيّة المذكورة، بقوله:

«استدلّ الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ...** ﴾ لإثبات الإباحة المطلقة في جميع الأشياء، إلّا ما دلّ دليل بالخصوص على تحريمه، وتمسّكوا بغيرها من الآيات المباركة أيضاً على ما سيأتي، والروايات، بل وبالعقل، وبيّنوا في علم الأُصول ما يتعلّق بذلك».

ومثل جزئيّة: ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ** ﴾ حيث عقّب عليها قائلاً: «قد استدلّ بالآية الشريفة: ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ** ﴾ على إباحة الأشياء وحلّيّتها، وجعلوها أصلاً عبّروا عنه بأصالة الإباحة العقليّة والنقليّة، وقد حرّرنا البحث عنه في كتابنا (تهذيب الأُصول)، فلا وجه للتعرّض هنا بعد ذلك».

كما استدلّ بها على أنّ الرزق يطلق على الحلال فقط، لأنّ الأمر يدلّ على الإباحة في المقام، وحيث لا يتصوّر الإباحة في الحرام فلا يصدق عليه الرزق.

ولكن يرد عليه: أنّ من شروط ظهور اللفظ في شيء، إحرازكون المتكلّم في مقام بيان ذلك الشيء وإقامة الحجّة عليه، وهو غير محرز في المقام، ويكفي في عدم صحّة التمسّك بالإطلاق الشكّ في ذلك على ما هو المتعارف في المحاورات، وقد حرّرنا ذلك في أُصول الفقه».

يعنينا من هذين النموذجين أن نعرض لطريقة المؤلّف في التعامل الفقهي مع النصّ، وإذا كان الباحث يتعامل بتفصيل في دلالات النصّ المتنوّعة، كالبحث الدلالي أو الفلسفي أو الاجتماعي.. الخ ـ كما سنرى ـ فإنّه في ممارسته الفقهيّة يتعامل على العكس من البحوث الأُخرى، حيث يعرض للجوانب الفقهيّة عابراً، إلّا في سياقات خاصّة، فيما يحيل القارئ ـ كما رأينا في النموذجين ـ إلى مؤلّفاته الفقهيّة والأُصوليّة، بل نجده أحياناً لا يبدي وجهة نظره الفقهيّة حيال الظاهرة،

بل يكتفي بالإشارة إلى أقوال الفقهاء ،كما لاحظنا ذلك بالنسبة إلى وجهة نظره حيال « الإباحة » في النموذجين المتقدّمين ، ولعلّ السرّ في ذلك : أنّ الممارسة الفقهيّة تتطلّب العمليّة الاستدلاليّةُ فيها صفحاتٍ طوالاً من عرض الأدلّة ومناقشتها ، فيما لا تنسجم مع طبيعة ممارسته التفسيريّة ، التي يُعنى فيها بتقديم الدلالة العامّة للنصّ ، فضلاً عن كون الممارسة الفقهيّة لا تهمّ إلّا القارئ الخاصّ ، لذلك نجده إمّا أن يدعها تماماً ، وإمّا أن يشير إليها من خلال عرضها فحسب ، أو يحيلها إلى مؤلّفاته ، أو يعرض لها عابراً ،كما لحظنا ذلك عند حديثنا عن (بحثه الدلالي) الذي تخلّله طرح بعض المسائل الفقهيّة والاستدلال العابر حيالها ، وفي هذا السياق (أي الاستدلال العابر) يقتصر حيناً على الدليل القرآني وحده أو مشفوعاً بالدليل العقلي أو الأصل العملي ، وحيناً آخر بالدليل الروائي ،كما هو ملاحظ في الممارسة الآتية :

« قد يستدلّ بقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾ على عدم جواز دخول الكفّار والمشركين في المساجد ، بتقريب : أنّه إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم ، فلا يمكّنون الكافر حينئذٍ من دخولها .

والصحيح أنّ الآية الشريفة وحدها لا تدلّ على ذلك إلّا بضميمة قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** ﴾ وقول نبيّنا الأعظم ﷺ : « ألا لا يحجّنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان » بعد الإجماع على عدم الفرق بين المشرك وغيره من الكافرين ، وكذا سائر المساجد من هذه الجهة .

ثمّ إنّه قد يتمسّك بقوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ** ﴾ على جواز التوجّه إلى غير القبلة من عدّة موارد ، وقد ذكرنا أنّ ذلك من باب التطبيق ، وهي :

الأوّل: جواز صلاة النافلة على الدابّة أينما توجّهت ،كما في صحيح حريز عن أبي جعفر ﷺ : « **أنزل الله هذه الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ﴾ في التطوع خاصّة** ،

وصلّى رسول الله ﷺ إيماءً على راحلته أينما توجّهت به، حيث خرج إلى خيبر وحين رجع من مكّة، وجعل الكعبة خلف ظهره».

وروى مسلم عن ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يصلّي وهو مقبل من مكّة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه».

ورواه في الدرّ المنثور عن جماعة.

الثاني: صحّة صلاة الخوف والتحيّر، كما روى زرارة عن الصادق عليه السلام: «**لا يدور إلى القبلة**».

وروى الترمذي عن ابن ربيعة: «كنّا مع النبيّ ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة، فصلّى كلّ رجل منّا على حياله، فلمّا أصبحنا ذكرنا ذلك للنبيّ ﷺ فنزلت: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ**﴾».

الثالث: جواز سجود التلاوة لغير القبلة. رواه الصدوق في العلل عن الحلبي عن الصادق عليه السلام: «**يسجد حيث توجّهت دابّته**».

الرابع: عدم قضاء صلاة الفريضة إذا صلّيت خطأً لغير القبلة، فقد روى في الفقيه عن الصادق عليه السلام ...».

بيّنٌ أنّ هذا النمط من الاستدلال الواضح بالكتاب وإرادفه بالدليل النقلي، دون إثقاله بالأداة الأُصوليّة والرجاليّة ومناقشة الآراء، وحتّى في هذا النطاق، فإنّ بعض النصوص وظّفت لإنارة النصّ القرآني، كرواية حريز وابن ربيعة، ومجرّد الإشارة إلى السنّة والإجماع والعقل، مثل: تعقيبه على آيات الربا «تدلّ الآيات الكريمة على حرمة الربا.. ويدلّ على ذلك السنّة الشريفة، وإجماع المسلمين، ودليل العقل...» أو التوكّؤ العابر على الأداة الأُصوليّة، مثل تعقيبه على فقرة: ﴿**لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ**﴾: «تجب الإعادة في الصدقات الواجبة لو كانت بعنوان المنّ والأذى، ولا تجزي لقوله تعالى: ﴿**لَا تُبْطِلُوا**﴾ ... والنهي في العبادة يوجب

الفساد كما ثبت في محلّه » ، وكلّ ذلك يكشف لنا عن أنّ منهج الباحث ـ في البحث (الفقهي) ـ بنحوه المشار إليه ، يتناسب تماماً مع الطابع التفسيري لكتابه من حيث الوضوح وعموميّة الإفادة وإبراز المضمون العامّ للنصّ .

ولا يفوتنا في النهاية أن نُشير إلى أنّ منهجه في (بحث فقهي) يتجانس مع الخطّ العامّ للبحوث الأُخرى من حيث تقسيمها إلى نقاط وأعداد ، يخضعها لعمليّة الاستفادة من النصّ القرآني واستكشاف دلالاته ، فمثلاً : نجده قد أبرز في (بحثه الفقهي) عن آيات الربا اثنتي عشرة ملاحظة من نحو :

- تدلّ الآيات الكريمة على حرمة الربا .
- الربا ممّا اجتمع فيه حقّ الله وحقّ النّاس ، فهو محرّم .
- الربا إمّا قرضي أو معاملي .
- ظاهرة قوله تعالى : ﴿ **فَلَهُ مَا سَلَفَ** ﴾ سقوط الضمان بالنسبة إلى ما مضى إذا أتلفه .
- إطلاق قوله تعالى : ﴿ **وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا** ﴾ يشمل كلّ زيادة ربويّة ، سواء أكانت عيناً أم منفعة .
- يدلّ قوله تعالى : ﴿ **فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ** ﴾ على رفع حكم الربا فيما إذا لم تبلغه الحجّة الظاهريّة .. الخ .

وبهذا النمط من التنظيم للظواهر المطروحة فقهيّاً ، يحافظ الكاتب على (وحدة) منهجيّته ، ممّا يضفي على تفسيره مزيداً من الأهمّية كما هو بيّن .

البحث الروائي :

يجيء البحث الروائي واحداً من الأبواب الثابتة في حقول التفسير عند الباحث ، حيث يرد غالباً بعد البحث الدلالي لكلّ مقطع تفسيري ، وهذا الحقل بدوره يتضخّم

حجمه أو يضؤل بقدر ما يتحمّله المقطع من جانب، وبقدر ما تتطلّبه الرواية من تعليق أو شرح أو صمت حياله من جانب آخر.

وطبيعةُ هذا الحقل هي: أنّ الباحث يقدّم الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام بالنسبة إلى تفسيرهم للنصوص القرآنيّة، كما أنّه يحرص على تقديم روايات (العامّة) أيضاً، والخطّ العامّ لهذا الحقل هو إيراد الروايات التفسيريّة فحسب، إلّا أنّه حيناً آخر يقدّم الروايات الحائمة على النصّ أيضاً، أي: يورد الرواية التي تتحدّث عن فضل هذه السورة أو تلك، أو هذه الآية الكريمة أو تلك، أو يقدّم روايات تحوم على الموضوع ذاته حتّى لو لم تكن تتضمّن الإشارة إلى النصّ القرآني، ولعلّ تقديمه للحقل الروائي عن آيات الربا في سورة البقرة ما يوضّح هذا الجانب حيث قال: «ونحن نتعرّض في هذا البحث إلى بعض الروايات التي وردت في حرمة الربا، وبعض ما ورد في موضوع الربا، والآثار التي وردت في الأخبار، كما ننقل الروايات التي وردت في تفسير مفردات الآية المباركة».

بَيْد أنّ المهمّ هو كيفيّة تعامله على هذا الحقل، أي: الرواية!!

المؤلّف حيناً ينسج صمتاً حيال الرواية، ويكتفي بتقديمها فحسب، مثل ما أورده على مقطع ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً** ... ﴾ قائلاً:

«بحث روائي:

في الكافي، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾، قال: «**أن تحسن صحبتهما ...**».

وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً** ﴾: «**ولا تقولوا إلّا خيراً حتّى تعلموا ما هو**».

وعن العيّاشي عن أبي جعفر عليه السلام: «**قولوا للنّاس أحسن ما تحبّون أن يُقال لكم ...**».

هذا النصّ يوضّح بجلاء موضوعات (البحث الروائي) مع ملاحظة أنّ النقطة الأخيرة (أي نقل الروايات التي وردت في تفسير الآية الكريمة) تظلّ هي سمة غالبة على تعامله مع الرواية.

بَيْد أنّ الغالب هو أنّ المؤلّف يعقّب على الروايات بحسب ما يتطلّبه السياق، فقد يكتفي بالإشارة إلى أنّه تقدّم في حقل التفسير أو الدلالة ما يدلّ على مضمون الرواية، أو يحيل القارئ إلى أبحاث لاحقة، ولكنّه في أكثر ممارساته (يعقّب) أو يشرح أو يناقش.

أمّا تعليقاته فتنصبّ على جملة ملاحظات، يحسن بنا أن نستشهد لها بنماذج سريعة أوّلاً، ثمّ استخلاصها بعد ذلك، فمن نماذجه عن البسملة:

«عن نبيّنا الأعظم ﷺ فيما رواه الفريقان: «**كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر**».

وعن الصادق ﷺ: «**لا تدعها ولو كان بعدها شعر**».

أقول: يحمل الخبر الأوّل على الأفضليّة جمعاً بينهما.

وعن أبي جعفر ﷺ: «**إذا قرأتها فلا تبال ألّا تستعيذ**».

أقول: ويظهر منه أنّه عند دوران الأمر بين البسملة والاستعاذة تكون البسملة أوْلى.

وعن الصادق ﷺ: «**من تركها من شيعتنا امتحنه الله بمكروه**».

أقول: يظهر منه ومن جملة من الأخبار أنّ ترك المندوب وفعل المكروه فيه آثار خاصّة، فضلاً عن ترك الواجب وفعل المحرّم».

ومن نماذجه: عن فقرة ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾.

«عن الصادق ﷺ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَعَلَّمَ...** ﴾، قال: «**الأرضين والجبال والشعاب والأودية**».

عن داود بن سرحان قال: «كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، فقلت: جعلت فداك، قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ...﴾ فقال عليه السلام: «الفجاج والأودية».

أقول: الأمثلة التي ذكرها عليه السلام من باب المثال لما كان موجوداً في زمان آدم عليه السلام لا الحصر».

ومن نماذجه: تعقيبه على روايات «روح القدس» قائلاً: «فما ورد في السنّة المقدّسة في تفسير روح القدس، من أنّه جبرئيل، أو أنّه ملك أعظم منه، أو روح يؤيّد الأنبياء والمرسلين، يمكن إرجاع جميع ذلك إلى شيء واحد».

ومن نماذجه: تعقيبه على الروايات المفسّرة لفقرة ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فيما ذكر بعضها أنّها: «إقبال الرجل على صلاته ومحافظته على وقتها».

وذكر بعضها الآخر أنّها «الدعاء في الصلاة حال القيام»، وعقّب على الأولى: «من معاني القنوت: الرعاية، وما ورد في الرواية يكون من باب التطبيق»، وعلّق على الأخرى: «إنّ ذلك من باب التطبيق، فلا تعارض في البين أصلاً».

ومن نماذجه: تعقيبه على روايات متنوّعة من الخاصّة والعامّة تشير إلى أنّ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ نزلت في الإمام عليّ عليه السلام، وأنّها متواترة بين المسلمين، ثمّ يورد روايتين عاميّتين تشيران إلى أشخاص آخرين، قائلاً عن الأولى: «على فرض صحّة الرواية، لا بأس بكونه من أحد المصاديق، ويكون عليّ عليه السلام رأس النزول ومنشأه، والبقيّة من باب التطبيق» ويفصّل في النهاية: «يمكن أن يُقال بأن يكون للنزول منشأ انبساطي، يكون بعض أفراده هو المنشأ الأوّل، وينبسط على جميع ما يصلح لذلك، فما هو مورد النزول ووجهه في المرتبة الأُولى هو عليّ عليه السلام، فينطبق على غيره بحسب المراتب والشأن، إذاً لا منافاة بين هذه الأخبار إذا لوحظ النزول بوجه انبساطي كلّي، وكان منشؤه عليّاً عليه السلام».

ومن نماذجه: تعقيبه على الرواية الواردة في مجمع البيان: عن أبي جعفر عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ «هو شموئيل، وهو بالعربيّة إسماعيل».

قال: «الصحيح أنّ شموئيل هو صموئيل وليس إسماعيل، وقصور سند الحديث يغنينا عن البحث».

وتعقيبه على رواية تتحدّث عن مناقشة الإمام الرضاعليه السلام مع المأمون بالنسبة إلى عصمة الأنبياء، عقّب عليها: «في سند الحديث عليّ بن محمّد الجهم، وقد ضعّفه كلّ من تعرّض له، فلا اعتبار بمثل هذا الحديث، وسياق المتن يدلّ على أنّه ليس من الإمام عليّ عليه السلام».

ومن نماذجه: تعقيبه على فقرة: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم...**﴾ حيث عرض روايات متنوّعة، بعضها يشير إلى نسخ الفقرة المذكورة بفقرة: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا...**﴾، وعقّب:

«الروايات في النسخ وعدمه متعارضة، مع أنّ رواية النسخ قاصرة السند، وعلى فرض اعتبارها معارضة بالمثل، ومخالفة لظاهر الكتاب، وفي مثل ذلك لا بدّ من أن يرجع إلى أصالة عدم النسخ عقلاً وشرعاً، كما هو ثابت في محلّه».

إنّ النماذج المتقدّمة تشكّل خطوطاً لمنهج الباحث في ممارسته الروائيّة، ولعلّ أوضح خطوطه هو: الملاحظة أو التعقيب السريع أو المختصر للرواية، خلا ما يتطلّبه الموقف حيناً من الإطالة، وهو أمرٌ ينسحب على كلّ ممارساته، أي: أنّ القاعدة هي الاختصار، والاستثناء هو الإطالة على نحو ما سنوضّح ذلك لاحقاً. بيْدَ أنّ المهمّ هنا هو أن نعرض أوّلاً للخطوط المشار إليها، فنقول:

التعامل مع الدليل الروائي -كما هو معروف في أيّة ممارسة فقهيّة أو غيرها- يتمّ حيناً من خلال كونها محكمة متناً وسنداً، أي: وضوح دلالتها وعدم تضاربها مع الروايات أو الأدلّة الأُخرى، ثمّ تماميّة سندها. وفي مثل هذه الحالة لا إشكاليّة في البين، إلّا أنّ الإشكاليّة تبدأ مع إجمال أو اضطراب سندها، من هنا تبدأ الخطوط

العامّة لتعامل المؤلّف مع الرواية، لكن بما أنّ خطّ المؤلّف في تفسيره ـ وهذا هو حقّ بطبيعة الحال ما دامت مهمّته الأُولى تفسيريّة وليست فقهيّة ـ هو الاستدلال المختصر جدّاً على نحو ما لحظنا في بحثه الفقهي في الحقل السابق، حينئذٍ فإنّ تعامله مع الرواية يكتسب نفس الطابع، سواء أكان ذلك في ميدان توكّئهِ على أدوات الممارسة (الأداة الأُصوليّة وسواها) أو مناقشته للآخرين.

ـ الخطوة الأُولى في هذا الميدان، هي تبسيط الواضح من الرواية، أو توضيح ما غمض من الدلالة في هذه الرواية أو تلك، مثل توضيحه بأنّ ترك المندوب وفعل المكروه له آثار خاصّة، تعقيباً على ترك البسملة، أو توضيحه بأنّ البسملة أوْلى من الاستعاذة عند دوران الأمر بينهما.

ـ وأمّا التضارب بنمطيه: الظاهري والباطني، فإنّ المؤلّف يضطلع بتناول ذلك، مثل: تعقيبه على خبري النبيّ ﷺ والإمام الصادق عليه السلام عن البسملة: «يحمل الخبر الأوّل على الأفضليّة جمعاً بينهما».

ومثل: تعقيبه على روايات آدم بأنّها من باب المثال لما هو موجود في زمنه عليه السلام فلا تعارض.

ومثل: تعقيبه على الروايات المفسّرة لروح القدس بأنّها تصبّ في رافد واحد.

ومثل: تعقيبه للروايات المفسّرة لـ(القانتين) بأنّها من باب التطبيق، فلا تعارض في البين.

وفي هذا السياق، أي «التطبيق» ألّف الباحث بين الروايات المتواترة بالنسبة إلى نزول الآية: ﴿... **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**﴾، وتضاربها مع رواية مضطربة السند بالنحو الذي لحظناه، حيث أبدى مهارته في استخلاص قاعدة (تطبيقيّة) أسماها بـ(الانبساطيّة) موضّحاً ذلك بأنّه من الممكن أن يكون للنزول منشأ أوّلي، ثمّ ينسحب على آخرين، كما هو بالنسبة لنزول الآية الكريمة في الإمام عليّ عليه السلام

وانسحابها على الآخرين بحسب مراتبهم «فلا منافاة بين هذه الأخبار إذا لوحظ . . .».

أمّا في حالة التضارب الباطني بين الروايات، فقد لحظنا كيفيّة حلّه للتضارب بين الروايات القائلة بنسخ ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً**...﴾ لـ ﴿**وَإِن تُبْدُوا**...﴾ موضّحاً أنّ روايات النسخ معارضة بمثلها، ومخالفة لظاهر الكتاب، وأنّ القاعدة تقتضي الرجوع إلى أصالة عدم النسخ.

فالملاحظ هنا وهناك، أنّ جمعه بين الروايات المتضاربة ظاهريّاً، أو ترجيحه للمتضاربة باطنيّاً بأحد المرجّحات... الخ، إنّما يتمّ بالنحو الخاطف السريع الذي يتناسب ومهمّته التفسيريّة، كما كرّرنا.

والأمر نفسه بالنسبة إلى تعامله مع السند، حيث لاحظنا ـ مثلاً ـ تعامله مع رواية ابن الجهم وإسقاطها أساساً، وتعامله مع روايات أخرى بنحو قاطعٍ أو تحفّظٍ أو مفترضٍ.

إلّا أنّ ما يثير الانتباه هو أنّ تعامله مع مراسيل الطبرسي والعيّاشي والقمّي، وحتّى روايات (العامّة) يمضي بسلام في حقله الروائي المزدحم بالعشرات منها، دون أن يطرح أيّ تحفّظٍ حيالها، إلّا في حالة معارضتها لما ينتهي إليه من وجهة نظر، بل إنّ الأمر ليصل إلى درجة إسقاط الرواية مقابل توثيقه لنصّ تاريخي أو إصحاحي، مثل تشكيكه بما ورد في قصّة طالوت بما يتّصل ببعض أبطالها ومواقفها.

البحث الكلامي والفلسفي:

يحتلّ البحث الكلامي والفلسفي لدى الباحث مساحة واسعة من حقوله التفسيريّة، خاصّة في الخطوة التفسيريّة الثالثة التي نحن في صددها، ممّا يكشف عن تخصّصه في هذا الميدان.

وإذا كانت الحقول السابقة (بحث دلالي، أدبي، روائي، فقهي) تتّسم بالاختصار في الغالب، فإنّ البحث الكلامي والفلسفي يتّسم بالطول والإسهاب والتفصيل،

حتّى أنّنا لنجد أنّ آية واحدة يرد فيها لفظ «الشفاعة» ـ مثلاً ـ وهي ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ يعقّب عليها في حقل (بحث كلامي) بما يقارب الثلاثين صفحة يتحدّث فيها عن (مفهوم الشفاعة)، (الشفاعة في الإسلام)، (الشفاعة والعقل)، (الشفاعة وشروطها)، (ما أورد على الشفاعة)، (الشفاعة ومتعلّقها)، (زمان الشفاعة)... الخ، وكذلك عندما يتناول صفحات أو أكثر أو أقلّ، ولكنّنا في الوقت نفسه ـ نجد نماذج أُخرى تتّسم بالاختصار اتّساقاً مع منهجه بشكل عامّ، كما نلحظ نماذج يكتبها بلغة واضحة، وأُخرى بلغة مضبّبة تبعاً لمتطلّبات البحث ـ.

وبما أنّ هذا الحقل والحقول اللاحقة التي سنعرض لها بعد قليل، تظلّ أبحاثاً ثانويّة الصلة بينها وبين عمليّة التفسير بالقياس إلى البحوث ذات العلاقة الوثيقة مع النصّ (كالبحث الروائي والفقهي، والدلالي). حينئذٍ لا نجد ضرورة في الاستشهاد بها إلّا عابراً، فمن النماذج التي يرد فيها التناول عابراً ما طرحه المؤلّف تحت عنوان (بحث كلامي) تعقيباً على آية ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ـ بعد أن ذكر في البحث الروائي بعض الأخبار التي تفسّر ذلك «بما غاب عن حواسّهم من الأُمور التي يلزمهم الإيمان بها، كالبعث والنشور...». والأخبار التي تقرّر أنّ الله فطر عباده على التوحيد ـ حيث يشير في بحثه الكلامي إلى أنّ ثمّة نزاعاً بين الكلاميّين، وهو: هل «أنّ العمل على طبق الوظيفة الشرعيّة جزء مقدّم لحقيقة الإيمان؟ بحيث إنّ من لم يعمل بالوظيفة الشرعيّة لا إيمان له، وأنّ له التصديق القلبي، أو انّ العمل بالوظيفة الشرعيّة خارج عن أصل التصديق؟».

ويجيب على ذلك: «إنّ للإيمان كمالاً ونقصاً، وشدّة وضعفاً»، «والكفر له مراتب كمراتب الإيمان من حيث الشدّة والضعف، ومن حيث الكمال والنقص».

وينتهي من ذلك إلى القول: «فإذا اجتمع الإيمان بالله تعالى قلباً، والإقرار باللسان، والعمل بما أمر الله، وترك ما نهى عنه، يكون موقناً، وإذا لم يتحقّق قلباً،

وتحقّق لساناً وعملاً يكون منافقاً ، وإذا تحقق قلباً ولساناً ، ولم يتحقّق عملاً ، يكون فاسقاً » .

وهكذا يتناول الظاهرة بنحوها المختصر والواضح والبسيط : اتّساقاً مع منهجه التفسيري .

والأمر كذلك حينما يتناول في حقل (بحث فلسفي) نفس الظاهرة ، فيشير أوّلاً إلى أنّ الإنسان مركّب من الروح والمادة ، وأنّ الروح نزلت من مقام شامخ ـ على ما يأتي ـ إلى حضيض المادّة ، والبدن مستعدّ إلى العروج من مرتبة الحضيض إلى أوج الروح ، فصار الإنسان جامعاً للكمالين ، فهو بفطرته لا يمكنه إنكار ما وراء المادّة ، فالإيمان بالغيب الذي حثّ الله تعالى إليه هو إرجاع الإنسان إلى فطرته » وهكذا نجد الباحث يربط بين ظاهرة الإيمان بالغيب وفطرة التوحيد ، من خلال إشارته السريعة إلى تركيبة الإنسان بلغة واضحة مختصرة بسيطة .

وقد يطرح ذلك من خلال لغة تتوكأ على المصطلح الفلسفي والكلامي ، اللذين يفقههما المتخصّص فحسب ، إلّا أنّ القارئ بنحو عامّ يمكنه أن يقف على الحصيلة إجمالاً ، كما في بحثه الفلسفي عن صفات الله تعالى الواردة في آية الكرسي ، أو بحثه الفلسفي عن صفة تكليمه تعالى : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ ﴾ ، أو بحثه الكلامي عن النسخ أو الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين ، مع ملاحظة أنّ أدواته الكلاميّة والفلسفيّة تتكئ على الموروث غالباً ، مع تطعيمها أحياناً بالأداة الحديثة ، حسب ما يتطلّبه الموقف ، فمثلاً : في تعقيبه على خلق آدم ﷺ طرح عبر بحثه الفلسفي قضيّة إبداعه تعالى لآدم ، قال : « خلقه الله تعالى من الطين بهذه الهيئة المتميّزة عن سائر المخلوقات استقلالاً ، من دون أن يكون مرتقياً من مخلوق آخر ـ نباتاً أو حيواناً ـ وتقتضي ذلك قاعدة « إمكان الأشرف » التي أسّسها الفلاسفة في سلسلة الخليقة » ... فهو في هذه الفقرات يتحدّث عن مصطلح فلسفي موروث هو « إمكان

الأشرف » ، إلّا أنّه يربط ـ بعد ذلك ـ بين هذا الجانب وبين نظريّة (النشوء والارتقاء والتكامل وبقاء الأصلح) حسب تعبيره ، ويناقشها من خلال التجريب المفترض ، ويدحض النظريّة بلغة واضحة مختصرة ، ممّا يهب تفسيره ـ كما كرّرنا ـ مزيداً من الأهمّية من خلال المخاطبة بلغة العصر.

البحث العرفاني والأخلاقي:

يظلّ البحث العرفاني والأخلاقي لدى المؤلّف مع بحوثه الأُخرى من حيث الطرح والمنهج ، مع ملاحظة أنّ القارئ يتحسّس بأنّ تناول المؤلّف لهذا الجانب يقترن بتفاعله مع المادّة المطروحة ، أي : يتحسّس بعرفانيّة وأخلاقيّة الباحث ، لنقرأ عبارات من نحو تعقيبه على آيات الإنفاق :

« إنّ استغراق العبد في العبوديّة المحضة تلذّذ من الجمال المطلق ، واستشعار بالكمال الأرفع الأهمّ ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، وفي مثل هذه المرتبة تتّحد الحقيقة والفعل والفاعل ، وحينئذٍ يقصر القلم عن البيان ، والعبوديّة الحقيقيّة تظهر آثارها على العبد ، فلا تصدر عنه معصية ولا يخطر في باله غير رضا الربّ ، وأنّها إذا استولت على القلب فلا يشغله شاغل من الشواغل الماديّة الدنيويّة ، ولا يمنعه مانع من الإنفاق في سبيل الله تعالى ».

وفي تعقيبه على آية : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ : « ولكلام الحقّ تعالى جذبات ، وللقرآن كذلك ، وللموعظة الصادرة عن أهلها جذبات ، بمراتبها المختلفة التي لا حدّ لها ، ومع تحقّق تلك الجذبة كيف يُتصوّر الإكراه؟ ».

ويتبدّى تفاعله مع الظاهرة ، حينما يرسم تفاعل الشخصيات المصطفاة مع حقيقة الله تعالى ، مثل رسمه لشخصيّة النبيّ ﷺ عبر تعقيبه على الآيات الختاميّة لسورة البقرة في مخاطبتها للنبيّ ﷺ : « حقيقة هذه المخاطبة من الأُمور التي لا يمكن تعريفها وتحديدها ، فإنّه مهما أمكن تعريف شيء من الأشياء أو الإشارة

إليه بحدّ أو رسم ، لا يمكن ذلك فيما هو خارج عن المشاعر الإمكانيّة .

وكيف يعقل أن يقرن حالة ملاقاة الحبيب غير المتناهي في أي جهة من الجهات ، لحبيبه المتفاني فيه ؟! وكيف تحدّ حالة هي حالة مكالمة الحبيب لحبيبه مشافهة ، وكلمات هي عين ما وقع بها التخاطب؟ » .

ومثل رسمه لشخصيّته ﷺ في تعقيبه على آية الكرسي :

« الحضور عند الله جلّت عظمته من طرف الممكنات له مراتب كثيرة ، يمكن أن يُقال بأنّها لا تتناهى ، وأساس ذلك يرجع إلى حبّ الله تعالى ، بحيث يجري في الجوارح جريان الدم في العروق .

وأوّل من سلك هذا المسلك العظيم ، ومشى في هذا الطريق الجليل الكريم ، إنّما هو سيّد الأنبياء وإمام المرسلين ، الذي هو أعظم أبواب رحمة الله لجميع العالمين ، حيث نال بحبّه له تعالى حياة أبديّة حقيقيّة لا يتصوّر حياة أفضل وأشرف منها ، فتأمّل في قوله ﷺ : « أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني ربّي » فإنّ المحبوب يسقى مباشرة من حبيبه ، فهل يتصوّر حياة ألذّ وأوفى من هذه الحياة؟ .. ما أشدّ الحبّ ، وما أفضل الحبيب وما أجلّ المحبوب؟ وفي مثل هذا الحبّ والحضور لا نومٌ ولا سنَة ، وكيف ينام وهو بمحضر محبوبه وشهيده! كلّا وربّ النّاس ، إنّ مقام الحبّ أعزّ وأمنع من أن يعرضه النوم » .

إنّ القسم المذكور « كلّا » يشفُّ عن مدى تفاعل الباحث مع ما يكتب .

وفي تعقيبه على مقطع تقطيع الطيور بالنسبة إلى رسمه لشخصيّة إبراهيم عليه السلام :

« فشرقت على قلبه الأنوار القدسيّة ، فاتّخذه الله خليلاً ، وجعل الحبيب من نسله ، فصار الخليل يفتخر بالحبيب ، والحبيب يفتخر بالخليل ، لما بينهما من الجامع القريب ، من شروق النور الأزلي على قلبيهما ، والوصول إلى مقام الوصال ، والينبوع الذي لا يعقل فيه النفاد ، وبمدبّر حكيم لا يتصوّر فيه التغيّر ، فصدرت منه

العجائب والغرائب ؛ لأنه مستمدّ من مدد الغيب الذي لا حدّ له ، فيكون إحياء الموتى على يديه أيسر شيء ».

وهكذا نجد من النماذج المتقدّمة ، أنّ الباحث يتفاعل أوّلاً مع كتابته ، ويربط ذلك ثانياً بالمناسبة التي تفرزها ، فقد ربط بين فقرة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وبين جذبات الحبّ التي لا يتصوّر الإكراه فيها ، وربط بين آيات الإنفاق وبين العبوديّة الحقيقيّة التي لا يشغلها شاغل دنيوي عن الإنفاق في سبيله ، وربط بين آية الكرسي في فقرة ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وبين شخصيّة النبيّ ﷺ بالنسبة إلى حضوره عند الله تعالى وانعكاسات ذلك ـ بالمقابل ـ على سلوكه المتمثّل في عدم نومه ﷺ وهو بمحضر محبوبه تعالى ، وربط بين مقطع تقطيع الطيور وبين شخصيّة إبراهيم عليه السلام من حيث استيلاء العبوديّة على قلبه ، وامحاء المسافة بينه وبين الله تعالى ، ومن ثمّ بين تلك العمليّة اليسيرة بالنسبة إليه وهي : إحياء الطيور .. وهكذا .

والطريف أنّ الباحث يحاول إيجاد جسور جديدة بين الكلمة أو الحادثة أو الموقف وبين التعديل للسلوك ، ففي النصّ المتقدّم عن تقطيع الطيور ، ختمه الباحث بفقرات ، منها : « ويمكن أن يُستأنس من الآية الشريفة : أنّه لا بدّ للإنسان من أن يزيل عنه الخصال المذمومة ، ويميتهنّ في نفسه ، حتّى يتمكّن من إحياء الموتى ؛ لأنّ في كلّ طير من تلك الطيور الأربعة خصلة مذمومة من العجب والحرص والكبر والشهوة ونحوها ، وهي تدلّ على أنّ المؤانسة مع أولياء الله توجب الاعتدال في النفوس فيكون قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ ﴾ كناية عن العلوّ المعنوي الحاصل بمجرّد هذه الإضافة » .

والأشدّ طرافة أنّ الباحث وهو يختم حقوله عن آيات الطلاق ، يختمها بحقل (البحث عرفاني) استهلّه بالقول : « تقدّم بعض ما يرتبط بطلاق الزوج لزوجته ، وهو أمرٌ مبغوض عند الخالق والمخلوق ، وهناك طلاق آخر هو مجمع الكمالات

الإنسانيّة ، وأهمّ طرق السير والسلوك إلى الله تعالى ، وتتجلّى أهمّيته في اجتماع (التخلية) عن الرذائل ، و(التحلية) بالفضائل ، و(التحلية) بصفات الباري عزّ وجلّ فيه ، وهو طلاق الدنيا وما سوى الله جلّت عظمته ، وهو أيضاً مرّتان ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ ».

ثمّ يوضّح ذلك على نحو ما لحظناه بالنسبة إلى تقطيع الطيور ، من حيث اقتناص الدلالة وتحويلها إلى الخطّ العرفاني ، وفق لغةٍ خاصّةٍ ، لها إمتاعها على أيّة حال .

البحث الأخلاقي :

وهذا كلّه فيما يتّصل بالبحث العرفاني ، وأمّا ما يتّصل بالبحث الأخلاقي ، فيظلّ امتداداً أو تفريعاً لما سبق ، بصفة أنّ العرفان تصعيد للسمة الأخلاقيّة في صعيد التعامل الأخلاقي مع الله تعالى ، والمهمّ أنّ الباحث يطرح الظواهر الأخلاقيّة ـ كما هو دأبه في طرح جميع الظواهر ـ وفق خصائص ، منها: سمة الوضوح والعمق والجدّة ، فمثلاً: عندما يتناول قضيّة (الصبر) تعقيباً على آية : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ** ﴾ ينبّه على ملاحظة مهمّة جدّاً ، هي أنّ الصبر هو العصب الرئيس الذي تسري فيه غالبية أنماط السلوك ، فنحن إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ السلوك البشري يقوم على التجاذب بين الخير والشرّ وبين العقل والشهوة ، حينئذٍ فإنّ السلوك المطلوب هو ممارسة عمليّة خاصّة هي تأجيل الشهوة أو الرغبة المضادّة لما هو خير أو عقل ، وهذا (التأجيل) هو (الصبر) بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من دلالة ، وإذا نقلنا هذه الحقيقة النفسيّة إلى النطاق العبادي ، نجدها منسجمة على نحو ما تناولها المؤلّف في بحثه الأخلاقي حينما قال : « وللصبر أنواع وأفراد كثيرة كلّها من الفضائل ، ولكلّ فرد اسمٌ خاصّ به وضدّ مختصّ به ، فيسمّى الصبر في الحرب شجاعة وضدّه الجبن ، وفي المصيبة الصبر ـ بقول مطلق ـ وضدّه لجزع ، وفي الحوادث المضجرة رحابة الصدر وضدّه الضجر ، وفي الكلام يسمّى كتماناً وضدّه الإذاعة والإفشاء ،

وإن كان الصبر عن المفطّرات سمّي صوماً وضدّه الإفطار، وعن شهوة البطن والفرج سمّي عفّة وضدّه التهتّك، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمّي حلماً ويضادّه التذمّر، وإن كان عن حطام الدنيا سُمّي زهداً وضدّه الحرص، وفي المأكل والمشرب سمّي قناعة وضدّه الشره، وقد سمّى الله تعالى كلّ ذلك صبراً، وأشار إليه سبحانه في قوله: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ...** ﴾.

واضحٌ أنّ الباحث في استظهاره المتقدّم، نقلَ الحقيقة النفسيّة التي ذكرناها، وهي تأجيل الشهوة إلى مفهوم الصبر، وتوّجها بالإشارة إلى تسمية الله تعالى ذلك (صبراً)، وبهذا النمط من التحليل يكون الباحث قد توفّر على معالجة الموضوع بطريقة جديرة بالتقدير.

البحث القرآني، العلمي، الاجتماعي، التاريخي:

ما تقدّم تمثّل بحوثاً متكثّرة العدد، وهناك بحوث أقلّ عدداً مثل (البحث علمي) حيث يتناول المؤلّف من خلاله مختلف ضروب المعرفة الإنسانيّة والعلميّة. ومنها ـ مثلاً ـ: تناول الباحث لظاهرة السحر فيما وردت في المقطع ﴿ **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ...** ﴾ حيث قدّم في هذا الحقل بحثاً علميّاً عن السحر عرّفه بالقول:

« وأمّا السحر بالمعنى العلمي، فهو: ضرب من التأثير النفسي المشوب بالفتنة، وإظهار ما ليس بواقع بصورة الواقع، المعبّر عنه في القرآن الكريم بالتخييل والخداع، قال تعالى: ﴿ **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ...** ﴾ وبعد ذلك يقسّم العلوم إلى ماديّة وروحيّة ومزيج منهما كالسحر، ثمّ يعقّب:

« من شدّة اعتماده على الأثر النفسي، يمكن لنا أن نقول إنّه في جوهره عمل نفسي له آثار ماديّة، ومن الواضح أنّ الأثر النفسي لا يمكن أن يتحقّق إلّا في محلّ قابل ومستعد لقبول ما يصدر عن الساحر، ولذلك كان تأثيره في الإنسان محدوداً

بالفرد الناقص من حيث المعرفة والكمال، ثمّ إنّ إنفاذ السحر وتأثيره في النفوس الضعيفة يتوقّف على قوّة الساحر، وأكاذيب يستعين بها على التأثير في وعي المسحور».

بعد ذلك يشير إلى ظواهر مماثلة، كتحضير الأرواح والتنويم المغناطيسي ونحوهما، ممّا يدرج ضمن أمثلة هذه الفعاليّات ومدى تأثيرها أو عدمه على المجتمعات، ويشير إلى موقف الأديان السماويّة منها، وإلى موقف القرآن الكريم حيث أبطل السحر ـ كما يقول المؤلّف ـ من جانبين: الأوّل: إزالة أثره النفسي، تبعاً لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ** ﴾.

والآخر: إخفاقه أساساً، حيث تشير الآيات الكريمة إلى أنّ السحرة لا يفلحون في سحرهم، هذا إلّا أنّ الباحث لا ينفي فاعليّة السحر في الجملة، ويومئ إلى وجود تأثيرات للكواكب والملائكة والأنبياء والأوصياء والصالحين، ويومئ إلى تأثير العين أو الحسد، وإلى أنّها ترد في سياقات خاصّة، وأنّ الفارق بين ما هو إيجابي فيها، كالمعاجز والخوارق والكرامات التي تصدر عن المصطفين والأولياء، وبين ما هو سلبي، كالصادرة عن الشياطين والكهنة، بأنّ الفارق بينها هو فارق في الدوافع والغايات والجهة.

المهمّ أنّ الباحث ـ وهو يذيّل تفسيره للآية التي تتحدّث عن السحر ـ إنّما يهب تفسيره قيمة مهمّة، حينما يعرض ويحلّل هذه الظواهر عبر توسّله بأدوات الثقافة الشرعيّة والعرفيّة.

وإذا تابعنا ممارسات المؤلّف في (البحث العلمي) نجده يطرح موضوعات من نحو (الإنفاق) ـ مثلاً ـ ويوضّح مدى انعكاساته: اقتصاديّاً واجتماعيّاً وتربويّاً... الخ، وموضوعات من نحو (الطلاق) يتحدّث فيه عن التهم التي يوجّهها البعض إلى موقف الإسلام من الطلاق، ويردّها بالتركيز على الموقف المتحفّظ إسلاميّاً حيال

الطلاق، وتأكيده ـ على الضدّ من ذلك ـ على الزواج.

والحصيلة: أنّ حقل (البحث العلمي) يظلّ في واقعه امتداداً لحقول متنوّعة حيناً، وتتمخّض حيناً آخر إلى مسائل تتّصل بضرب معيّن من المعرفة، كما لحظنا ذلك بالنسبة إلى السحر.

وأمّا ما يتّصل بحقل (البحث القرآني)، فالملاحظ فيه أنّ النصّ يحصر حديثه في نطاق الآيات القرآنيّة (كبحثه مثلاً عن الربا) فيما نعتقد أنّ إدراجه في حقول أُخرى لا يترك أثراً سلبيّاً على منهجه، ما دام المؤلّف يوزّع اهتماماته حسب ما يتطلّبه التخصّص في هذا الحقل أو ذاك.

أخيراً: يواجهنا حقلان هما (البحث التاريخي) و(البحث الاجتماعي)، أمّا الحقل التاريخي فإنّ المؤلّف يلقي من خلاله إضاءات تاريخيّة على الحادثة أو الموقف أو البيئة التي رسمها المقطع القرآني الكريم، مثل تعقيباته على قصّة طالوت، وقصّة الأُلوف الذين ماتوا فأحياهم الله، وقصص الإسرائيليّن، وغيرها ممّا أجملتها النصوص القرآنيّة الكريمة لأسباب فنّية، وسردها التاريخ.

ويبقى حقل (البحث الاجتماعي) فيما يجدر بنا أن نعرض له ـ في نهاية المطاف ـ بشيء من الحديث، بصفته يتضمّن جانباً من التحليل والتفسير للظواهر الاجتماعيّة التي يفرزها المقطع القرآني الكريم، ويضطلع المؤلّف بإلقاء الإنارة على جوانب من هذه الظاهرة أو تلك، فمثلاً: في بحثه الاجتماعي ـ تعقيباً على قصّة طالوت حينما انتُخب ملكاً لتنفيذ الحملة العسكريّة ـ استثمر الباحث هذا الجانب ليطرح مفهوم (المؤسّسة السياسيّة) أو الدولة، ويعرض وجهات النظر الأرضيّة حيال المؤسّسة المذكورة وسببيّة نشوئها، فأشار إلى نظريات أربع: نظريّة الانتخاب الإلهي، نظريّة الانتخاب الطبيعي، نظريّة التعاقد الاجتماعي، نظريّة القوّة، ومن الطبيعي أن يرفض المؤلّف أيّة نظريّة أُحاديّة الجانب، أي: النظريّة التي ترجع السبب

إلى عامل واحد، حيث عقّب قائلاً: «إنّ أصحاب كلّ نظريّة من تلك النظريات . إن أرادوا منها العلّيّة التامّة المنحصرة، بحيث يمتنع تخلّف المعلول عن العلّة، فالفرض بعيد في غالب ما ذكروه، وإن أرادوا بيان مجرّد الاقتضاء، فإنّ الجميع صادق؛ إذ يمكن أن يكون لشيء واحد مقتضيات كثيرة، وحيث إنّ العالم الذي نعيش فيه عالم الأسباب، وقد أبى الله تعالى أن يجري الأمور إلّا بأسبابها، فلا بدّ من انتهاء الجميع إلى مشيئته وإرادته بنحو القضاء والقدر، والأديان الإلهيّة والكتب السماويّة تحكم بأنّ السبب هو الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ...** ﴾، ولكنّ ذلك لا ينافي أن يتحقّق ما أراده الله تعالى بسبب من الأسباب الظاهريّة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾، حيث إنّ مجرّد كونه فرداً من الأفراد لم يكن مستحقّاً للمُلك الظاهري، بل اجتمعت فيه بعض الصفات التي أوجبت استحقاق هذا المنصب، وممّا ذكرنا نعرف أنّ أكثر تلك النظريّات ترجع إلى أمر واحد، وهو أنّ الزعيم أو الملك إنّما يكون كذلك إذا اجتمعت فيه الشروط المطلوبة، هذا بالنسبة إلى الحكومة الظاهريّة، وأمّا الحكومة الواقعيّة فلها شأن آخر، لا يعلم أحدٌ خصوصيّاتها إلّا الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾.

إنّ هذا التحليل أو التفسير لظاهرة (الدولة) أو المؤسّسة السياسيّة، مع كونه يتناول في فقراته الأخيرة خصائص الحاكم، وليس أسباب نشوء الدولة، إلّا أنّه بشكل عام يفصح عن وجهة نظر خاصّة تربط بين نشوء الدول من جانب وبين علاقة ذلك بالله تعالى والأسباب الطبيعيّة من جانب آخر، فعلماء الاجتماع الأرضيّون المحدَثون ـ مثلاً ـ متّفقون في الغالب على عدم فعليّة العامل الواحد، والمؤلّف يماثلهم في هذا الجانب، إلّا أن الفارق هو بما أنّ علماء الاجتماع الأرضيّين منعزلون عن السماء، فحينئذٍ لم يفقهوا من الظواهر إلّا أسبابها الطبيعيّة، بينما ربط المؤلّف بين الأسباب الطبيعيّة وبين إرادته تعالى، حيث أوضح بأنّ الظواهر تنتهي إليه بنحو

القضاء والقدر، واستشهد بآية ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ... ﴾، إلاّ أنّه في الآن ذاته أشار الباحث إلى أنّ ذلك لا يتنافى مع إرادته تعالى بأن يجعل ذلك بسبب من الأسباب الظاهريّة[١].

والحمد لله ربّ العالمين

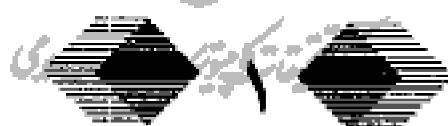


(١) مجلّة قضايا إسلاميّة ـ العدد الثاني: ٤٤٣ ـ ٤٩٨.

السيّد السبزواري قدس سره في مواكب الشعراء

التجلّيات السبع

الأستاذ فرات الأسدي / العراق



لوجهكَ

ـناضراًـ

خفق الترابُ

وصلّى الموتُ ، وابتهل الغيابُ

ووجهُكَ في براءتهِ

نبيٌّ ، له في كلِّ معجزةٍ كتابُ

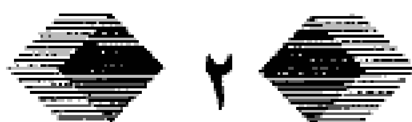
أيفنىٰ؟

وهو يشرق كلَّ يومٍ

وينتظرُ الخلودَ به إيابُ

ومن آياتهِ في الأرض مجدٌ

فتيٌّ ، لا يُبارحُهُ الشباب!



لوجهكَ

ـ مائلاً ـ

في الروح نورُ

كأنّك أنتَ موعدُها الأخيرُ!

وأنّكَ ملتقاها حين تظمىٰ إلى يدهِ ،

وينحرها الهجيرُ

وتنهل ماء كوثرِهِ وتروىٰ

وفي شريانها خَفَقَ الغديرُ

وأنتَ تُمِلُّها بالحبِّ

وجهاً مهيباً ، ما لِغُرَّتِهِ نظيرُ!



لوجهكَ

ـ يافعاً ـ

لذَّ العناقُ

ومالَ إلى خراسان العراقُ!

وقال الله : كُنْ

فاشتدَّ خلقٌ سماويٌّ

وحيدَرَةُ الخَلاقُ

يكادُ

يضيءُ في المحرابِ حبرٌ

يكادُ

يضوعُ بالورقِ الرُّواقُ!

إلى أفقٍ

عليٍّ مدَّ فيه جناحَكَ..

ثمّ خَفَّ بكَ البراقُ

٤



لوجهكَ

ـ قانتاً ـ

فَرَحٌ حزينٌ!

وإشراقٌ يموجُ به الفُتونُ

وحبٌّ

لم يُفارِقْهُ اكتواءٌ

وسهدٌ

ما يُبارِحُهُ حنينٌ

به اللذّات تفنىٰ

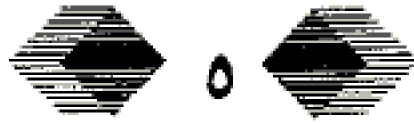
غيرَحُلم وراءَ الغيبِ

تشهدُهُ العُيونُ

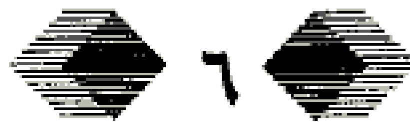
يكادُ يلوحُ..

يأتي مطمئناً على قدرٍ..

ويكشفه المنونُ!



لوجهكَ
ـ باسماً ـ
ألَقٌ مُعادُ
يرفُّ الحبُّ فيه والودادُ
وينكفئُ الخُطاةُ على هداهُ
إذا تاهوا
ويحضنُهمْ رشادُ
يُهدهِدُ روعَهُمْ
ويلمُّ فيهم ربيعاً
كانَ بعثرهُ الرمادُ
ويُطلِعُ منهمُ شجراً خضيلاً
يفيءُ لَهُ
التبتُّلُ والجهادُ



لوجهكَ
ـ ساهماً ـ
بَوْحٌ يطولُ
وصمتٌ
قلتَ فيهِ ما تقولُ!

وما نَفَثتْ لكَ الجَلَواتُ
همساً
وسرُّكَ دونَهُ
جهمٌ ثقيلُ
تنوءُ بحملِهِ الأيامُ تَعْبىٰ
ويعثر تحتها دربٌ هزيلُ
وأنتَ
تريدُهُ شوطاً غريباً
يَحارُ به المسافرُ والدليلُ



لوجهكَ
ـ ضارعاً ـ
ذهَلَ الدعاءُ
وأطرقَ خلفَ أدمعِهِ الرجاءُ
وغامَ بهاؤُهُ القدسيُّ
حتّى تجلّى الله..
وانطوتِ السماءُ!
وها هُوَ عرشُهُ
أيغيبُ سرٌ، وقلبكَ عند حضرتِهِ يُضاءُ؟
وروحُكَ نورُهُ،
ويداكَ فيه جناحاها..
ورحلتُكَ اللقاءُ!

بكاء الآيات

سماحة السيّد حسين الشامي / العراق

مُتَّ أم لعلم الشموسَ الأفولُ ... أم طوى خطوَكَ السُّرىٰ والرحيلُ
أم عراكَ الجفافُ حاشا لأغرا ... سك أن يستفلَّ منها الذبولُ
أيُّها الرافضُ الجريءُ بعثتَ الجر ... حَ حيّاً فموتُهُ مستحيلُ
أثقلتْ ظهرَكَ الثمانونَ لكن ... لرؤاكَ الخضراء عمرٌ طويلُ
قد عبرتَ العذابَ للضفةِ الأُخر ... ىٰ وقد أتعبَ الرجالَ الوصولُ
وحملتَ المجدَ المخضَّبَ فرداً ... شرفُ السيفِ أنّهُ مسلولُ
قد بكتك الآياتُ فهي يتيما ... تٌ وأخفىٰ دموعَهُ جبريلُ
حملتْكَ السماء شلواً فأكفانُكَ ... غيماتُ أُفقِها والأصيلُ
شيَّعَتْكَ النجومُ فالنجف المحزو ... نُ باكٍ وحلمُهُ مقتولُ
كبَّرَ الحزنُ وهو يرسم وجهاً ... لاحَ من خلفِ مقلتيهِ الرسولُ
واشرأبتْ ملامحٌ لعليٍّ ... لوَّنتها معاركٌ وخيولُ
وتناست أضلاعَها وهي تهفو ... بحنانٍ إلى لقاهُ البتولُ
واحتواه الحسينُ بين ذراعيهِ وأهو ... ىٰ كالشمسِ حين تميلُ
وإذا (العبدُ) ضمَّهُ الملأُ (الأعلى) ... فمن ذا نرثي وماذا نقولُ
سَلْ حكايا (شعبانَ) فهي خطى ... النور بركبِ الثوّارِ وهو الدليلُ
يوم هبّت جحافلُ الله تترى ... وعليها (للصدرِ) ثأرٌ ثقيلُ
كيف مرّتْ عليه فهي إلى الثورةِ ... عطشى وهو الغمامُ الهطولُ
فهو ليس الربيع كلّا هو الموسم ... والخصبُ والندىٰ والفصولُ

وهو في القمّة البعيدةِ طوفانٌ رهيبٌ أخـــفاه جســـمٌ نــحيلُ
خـضّبَ الحـزنُ نـخلنا وعـظيمٌ أن نـراه يـبكيهِ حـتّى النـخيلُ
وتــهاوىٰ لفـقدهِ قـصبُ الهـورِ وأنّتْ أكـواخُـهُ والطـلولُ
وبكتْ خـلف نـعشهِ غـرباءٌ وتـمشّىٰ عـلى الشّـفاهِ الذهـولُ
كـيف ودّعـتَها ورحتَ إلى اللهِ وهـذي الدمـاءُ حـرّىٰ تسـيلُ
كـلّ يـومٍ والجـرحُ يكـبُرُ فـينا وبـأعماقنا العـذابُ يـجولُ
تـعبثُ مـن رقـابنا شـفرةُ الجـلّادِ وانـهارَ مـنه سـوطٌ ذليـلُ
عـلّنا تـوقدُ الشـموعَ الصـديئاتِ فـيبدو للـضائعين السـبيلُ
وسـلامٌ عـليك مـا ضـاء دربٌ أنتَ فـي عـمقِ ليـلهِ قـنديلُ[1]



---

(١) مستفادة من الملفّ المخطوط لمجلّة الموسم.

كذب الموت

أبو أحمد[١] / العراق

إلى سماحة السيّد عليّ السبزواري (حفظه الله)

يـابن مَنْ أشبع الجياعَ نـداه ... وأظـلَّ العُـراة فـضلُ رداهُ

يابنَ تاج الأعلام فـي كـلّ فـنٍّ ... يابن من فاق كـلّ هـدي هـداهُ

يابن من طأطأت سماء المعالي ... رأسـها إذ تـطلّعت لِـعُلاهُ

يابن قطبِ العلوم لمّا تجلّت ... زاهـرات.. أفـلاكُـها مقلتاهُ

من صرير الأقلام أزهرَ روضٌ ... بـعد جـذبٍ بما تـخطُّ يَداهُ

كلُّ علم من بعد طولِ رقادٍ ... عـاد غـضّاً إلى معالي صباهُ

وإذا مـا دعـا تـخال دعـاه ... كـلّ حـرف يـقول: يـا الله

قد كَساه الرحمٰن أثوابَ فضلٍ ... كـي نـرى من خلالهنّ أباهُ

سـيّدَ الرسـل ربّ كـلّ فـخار ... وكمال يـرقى عـلى مَن سواهُ

يابن مَن سيّر الحروف بدوراً ... وأنـارَ العـقول مـا أعـطاهُ

غربت شمسه وظـلّت شموسٌ ... سـاطعاتٌ مـن فكـره ورؤاهُ

وعـلى الأفـقِ بسمةٌ وسجايا ... ونشـيدٌ مـقدّسٌ ورفـاهُ

ولواء مـرفرف وعـطاء ... ونـقاء كـالورد فـاح شـذاهُ

لم يـزل وجـهه الوسيم مطلاً ... تـملأ الأُفـق والرُّبـىٰ ريّـاهُ

---

(١) شاعر عراقي لم ترد مع القصيدة إلّا كنيته.

كذب الموتُ لم يغبْ عن رؤانا هو روح في كلّ خطوٍ نراهُ
لم يزل فوق صهوة المجد فكراً ألمعيّاً له تخرُّ الجباهُ
وسماحاً فوق الذي نتمنّىٰ قلَّ عنه الأندادُ والأشباهُ
ومثالاً لو حلّق الفكرُ دهراً ما احتوىٰ كنهه وخارت قواهُ
وحديثاً يتلوه جيلٌ وجيلٌ لهفَ نفسي ما استوعبوا معناهُ
لم يزالوا فوق القشور جثيّاً تستبيهمْ آراؤه وتقاهُ
لو رأوا كنهه لهاموا اشتياقاً للقاء الأخيرِ في مثواهُ
ما يزال الحديثُ شلالَ نور يغمر الأفقَ والنفوسَ سناهُ
والعتاب الرقيقُ ما زال همساً من قريبٍ مغيّبٍ في ثراهُ
إن بكى العاشقون رسماً لليلىٰ تيمت الشجو لاهباً ذكراهُ
فلنا منهُ ألف رسم ورسم من سجايا تكلُّ عنها الشفاهُ
والفضاءُ الفسيحُ إن ضاق ذرعاً لم يسعْنا إلّا رحيبُ فضاهُ
وإذا عضّنا الزمان فزعنا نمتري الدرَّ خالصاً من نداهُ
وإذا ضاقت النفوس وضجّت من تباريحها قصَدْنا حماهُ
فهو باب الهُدىٰ وفلك نجاةٍ والفقيهُ المحنّك الأوّاهُ
والمنارُ السامي لكلِّ تقيٍّ لا يرىٰ غير ربّه ورضاهُ
أيُّها الراحل العظيم المسجّىٰ بين أطباق روضةٍ تغشاهُ
الضريحُ الذي احتواك جديرٌ أن تشمَّ الأجيالُ طيبَ ثراهُ
أو يحجّ الأنام ألفاً إليه مستدلّين في السُّرىٰ بضياهُ
بل قليل ان تكحل العين منه أو ينال السقيم منه شفاهُ
إنّ روضاً يودّع (الطهر) فيه لتهيم القلوبُ في أرجاهُ

وكـأنّي أرى وراء حـجاب الـ ... ـغيب جبريل موكّلاً بحماهُ

حـقّ واللهِ أن تـنام قـريراً ... وشَطَّ طـرفٍ قـد فرّ منه كَراهُ

تفتديك النفوسُ جيلاً فجيلاً ... وتـسقيكَ العيون والأفـواهُ

وتظلُّ القلوب تبكيك دهراً ... صـبحه حالكٌ، مملّ مساهُ

والزمانُ الذي تخلّيت عنه ... أتَراها تخضرّ يوماً مناهُ؟

وخميس قد كنت فيه لواءً ... ليت شعري هل تستقيم قناهُ؟

كان وجهُ الزمان فيك منيراً ... ما لمحنا يوماً خيولَ دجاهُ

وأقمنا في ظلّ شخصك دهراً ... ما صحونا على طبول أساهُ

والهزيعُ الذي تهجّدتَ فيه ... أزهريُّ السناء عذبٌ هواهُ

وربيعُ العلوم يزهو اختيالاً ... عبقري الألوان، طلقٌ ضحاهُ

والمنىٰ غضة الرؤىٰ تتباهىٰ ... بانتماء إليك يا أبتاهُ

إنّ تلك الأجواء رقّتْ وطابت ... تحت جُنحي علاك يا مولاهُ

وتراثُ الطوسيّ من بعد ألفٍ ... قد تناهى إليك يا سيّداهُ

والمروءاتُ والعطاءُ جزيلاً ... كان وقفاً عليك شمٌّ ذراهُ

وجهاد النفوس أثقل وطأً ... من جهادِ العدى وأنت لواهُ

والتقى والصلاح حولك حصن ... قُدُسيّ لا يستباح حماهُ

وهُدىٰ آل أحمد يتسامىٰ ... في الأعالي وأنت قطبُ رحاهُ

إنّ يوماً طوى لواءك أردىٰ ... محسناً والخوئي وابن نماهُ

وابن إدريس والمحقّق والشيخ ... المفيد والمرتضىٰ وأخاهُ

يا إمامَ الزمان أشكوك بثّي ... عزّ صبري عن الذي ألقاهُ

ضاقت الأرض والفضاء علينا ... فأغثنا بالله يا سيّداهُ

كلّ يوم يجتاحنا سيل حزنٍ   لا تطيق الجبال قرعَ عصاهُ

وأشدّ الأيّام وقعاً علينا   لتشيب الولدان من بلواهُ

غابَ فيه إمامُنا عبدالاعلى   الموسويُّ روحي وأهلي فداهُ[1]



(١) مستفادة من الملفّ المخطوط لمجلّة الموسم.

يابن الغدير أرح ركابك

سماحة السيّد محمّد الموسوي

«أرثيك أم أرثي بك التنزيلا» والعلم والآيات والترتيلا
فلقد نشرت من الكتاب معالماً للنّاس ترشد أنفساً وعقولا
وسموت في آي الكتاب مفسّراً كيما تزيل الريب والتضليلا
وزهدت في الدنيا وناعم ظلّها إذ قد تيقّنت البقاء قليلا
وعلمت أنّك عن ثراها راحل فطفقت تغرس في الجنان حقولا
يا عبد من أعلاك شأناً بالتقى قد عزّ مثلك في العباد مثيلا
فلقد نهلت من المناهل صفوها وبلغت باعاً في العلوم طويلا
ونشرت علم محمّد بيراعك المعطاء يثبت فقهها وأُصولا
أوقدت عمرك شمعة تهدي بها من ضلّ عن قصد السبيل سبيلا
في سبزوار ولدت يوم غديرها عيداً لها ولرأسها إكليلا
ومضيت يوم مضى النبيّ محمّد إذ كنت خادم دينه المأمولا
كالنجم يهوي من عظيم سمائه نحو الثرى فيحيطه تقبيلا
يوم ولدت به سرور محمّد والدين يعول إذ مضيتَ عويلا
سبحان من خلق الحياة وموتها كي يبتلينا شاكراً وجهولا
قد فاز فيها من تأمّل كنهها وأعد من قبل الرحيل رحيلا
يابن الغدير أرح ركابك من عنىً فلقد تحاوشك البلاء ثقيلا
فانعم بآلاء الكريم وفضله فلقد أعدّ لك الثواب جميلا

يـا راحـلاً عـن همّها وعنائها ومعانقاً ظلّ الجنان ظليلا
أبداً ليهنيك النعيم بفيئها فضلاً من الربّ العظيم جزيلا
غادرتنا والجرح فينا نازف من فاجع هزّ الأنام وبيلا
صفر الشهور أحالنا صفر اليدين من الأُلىٰ حملوا اللواء فحولا
بالأمس قد أفجعتنا بمصيبةٍ واليوم إذ أضحى الهدى مثكولا
صبراً فشيعة آل أحمد لم تزل تلقى الشدائد والبلاء ثقيلا
حاشا وكلّا أن يساور عزمها خور ويمسي جأشها مخذولا
فالوعد حقّ في إمام عادل يقف الزمان لعزّه تبجيلا



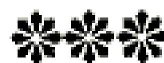
مأتم الشمس

الأستاذ حسين الجامع / القطيف

جدّدوا الحزن فالشريعة ثكلى ... قد دهاها رحيل هذا المولى
وعليها توالت المحن السود تباعاً ... وهيكل الدين ثُلا
وتهاوت كالشهب أعمدة الفكر ... تخبّ الخطى إلى الله عجلى
كلّ حين يغتال بدر فيخبو ... في وثاق الطغاة سمّاً وقتلا
فتؤوب النجوم خافتة النور ... تهاوى من حالك الأُفق خجلى
آه يا شرعنا الشريف سلاماً ... فلياليك بالمصائب حبلى

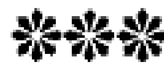


إيهِ عام الأحزان هل برء ... الجرح على فقْد سيّد الفقهاء
أنت عام مضمّخ بالجراحات ... وكون من الأسى والبلاء
لم تزل في العيون دمعة حزن ... ولهيباً يشبّ في الأحشاء
فيك بالأمس غُيّب المرجع الأعلى ... شهيداً على يد الأدعياء
وثوى في الغريّ عند أمير الحقّ ... ينعاه مسجد الخضراء
وهو رزءٌ لمّا يزل بعد غضاً ... يمطر الوجد من عيون الولاء



وتمرّ الأيّام عاثرة الخطو لتطوي ... الزمان طيّاً وئيدا
وتفيق الجموع في صفر الشؤم ... حيارى يعون خطباً جديدا
وتصكّ الأسماع أنباء فقد ... السبزواري في العراق شهيدا

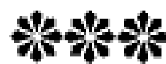
آه يـــا أيّـــها العـــراق المـدمّى ... فـي فـم النـائبات صـرت نشيدا
فــالقرابـين مــن بـنيك الضـحايا ... شـمخت فـيك رفـعة وصـمودا
وانتصار الحسـين فـي الطـفّ يـنبي ... أنّ للـــــحقّ دولة لن تـــبيدا



نـجف أيّـها الغـريب ويـا روض ... عـــليّ تـــحيّة وســلاما
طـلعت فـي سـماك أقـمار تـمٌّ ... فـأزاحت عـن العـقول الظـلاما
وخـبت تـلكم البـدور ولكـن ... لم تــزل فـــي سـمائنا أعـلاما
أأهـــنيك أم أعـــزّيك فـــيهم ... حـيثما وسّـدوا ثـراك كـراما
فـبهم قـد تـألّقت حـوزة العلم ... وعـــزّت مـدى العـصور مـقاما
وعـــلى فــقدهم بكــى مـذهب ... الحقّ وعـادت بـه الأصول يـتامى

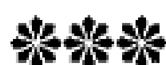


أيّــها الراحـــل المــجُدُ إلى الله ... سكـــبت الضـــياء للأجـــيال
أيّـــها العــاشق الذي أخـجل ... الفـجر وقـاراً بـقبسة مـن جـلال
أيّـــها الصــامد الأبـيّ المـفدّي ... شـرعة المـصطفى بـنفس ومـال
أنت يــا حــوزة الفـضائل والخير ... وصـرحـاً مــن القـداسـة عـالي
يـا سـليل الهـداة يـا كـعبة العلم ... تـدرّجت فـي مـراقـي الكـمال
إنّ عــمراً أفــنيته فـــي رضـا ... الله حــقيق بـالفخر والإجـلال



عـندك البـحر يـا إمـام فـمن حيث ... وردنـــا إليك يـحلو الورود
أنت عــقد مــن الخـصال فـريد ... رصّـــع الله درّه مــنضود
لم تــزل مـذ بـزغت فـي أفـق ... الحـوزة شـمساً بـها يـضاء الوجـود
بشـعاع العـرفان والفـقه والتـفسير ... يــزهو بــفيضها التـوحيد

ويــــداً ثــرّة وقــلباً عــطوفاً   ويــــراعــــاً حــرّاً بــفكر يــجود
وصــــموداً إذا ادلهــمّت خــطوب   خــــلته ثـــابتاً لهـــا لا يــحيد



نحن ننعى فيك العبادة والعشق   الإلهـــــي والتـــقى والتـــفاني
نــحن نــنعى الفــقيه فــي روضة   الفــقه ونــبكي المــوحّد الربّــاني
مثل ما قد بكت عليه الحواشي   ورثــــاه مـــواهب الرحــمــٰن
وعــليه تــوشّح النــجف الأشرف   بـــــــردي كـــــآبة وهـــوان
طاب قبر حواه قد ضمن النور   ولكـــــن فـــي هــيكل الإنســان
نــحن في مأتم الرثاء نعزّي فيه   ركــــن الهــــدى إمـــام الزمـــان



نبراس الكماة

الأستاذ: فؤاد نصرالله / القطيف

نكئت جراحات لنا وكلوم ... ماذا يريد بنا الردى ويروم

ماذا يريد.. وقد تجدّد حزننا ... وتناهبتنا لوعة وهموم

وغدت على آفاقنا سور الردى ... شتّى تعجل خطوها وتحوم

تقتات منّا الأمنيات فتية ... فالذلّ جاثٍ والممات مقيم

والفجر داجٍ والقلوب كليمة ... والشعب من فرط الهوان يتيم

يا راحلاً ماذا لو اتأد النوى ... علّ الجراح الداميات تريم

وتجفّ يابن السبزوار مدامع ... وتطيب أفئدة لنا وجسوم

في كل يوم للتشيّع مأتم ... وبكلّ ناحية أسى ووجوم

وبكلّ منعطف هنالك آنّة ... تشكو الهوان وتصطلي وتدوم

يا من رحلت عن العراق وأهلها ... متعطّشون لورد حوضك هيم

ما انفكّ يمروها القتام فأفقها ... داج بأنفاس المساء عقيم

ويسومها خسفاً هنالك أحمق ... متغطرس خاوي الضمير لئيم

يقفو طريق عصابة موبوءة ... تحيي الرذيلة سنة وتقيم

تستاف من نتن الرذائل عطرها ... ومن الضلالة تشتري وتسوم

نكئت جراحات لنا وكلوم ... فالدين موتور الفؤاد سليم

رحل الأشاوس من سلالة أحمد ... وهوت على آثارهنّ نجوم

المرجعيّة قد تفرّق شملها ... فالدرب وعر والطريق ظليم

يـا سيّدي يابن الأُبـاة ألا تـرى ... قـبب العـراق يـهدهن ذمـيم
قـد كـنت حـصناً يـلتجئ بـفنائه ... وحماك في الخطب العظيم رؤوم
جـاهدت أعـداء الإله بـمقول ... هو في الفقاهة والنضال حكيم
كـم فـتنة بـمثية أخـمدتها ... وجـلوتها للـناس فـهي جـحيم
يا من له فـي النازلات مواقـف ... هـي للـعتاة خـناجر وسـموم
تلك الثمانون انـقضت محمومة ... لم يثن عزمك في الجهاد خصوم
أفنيت عمرك فـي العلا وطـلّابها ... هـيهات مـنك تـخاذل وجثوم
قد كنت نـبراس الكـماة بـعزمهم ... تـهوي حـصون إثـرها وقـروم
وتـدكّ أركـان الضـلال بـهمّة ... عـلويّة تـفني العـدا وتسـوم
يا من رحلت وفي المحاجر أدمع ... حرّى وفي الديـن الحنيف ثـلوم
نـم هـانئاً واعـلم بـأنك خـالد ... وبـأنّ إرثك فـي الحياة عظيم
وبـأنّ مـجدك شـامخ متطاول ... وشـذاك مـا بين الأنام عميم
وبـأنّ عـلمك مـنهج ورسـالة ... يسـمو بـها متدبّر وعـليم
لا لم تـمت بـل أنت نـهر خـالد ... مـتدفّق ثـرّ العـطاء كـريم

فيانجفي عذراً

سماحة الشيخ محمّدحسين الأنصاري

وأسرى بك الباري من البيعة الكبرى ... إلى علمها الأقصى فسبحان من أسرى

فكنت لنا شمساً تنير طريقنا ... وفي الليلة الظلماء كنت لنا البدرا

سحاب عطايا في بديع ربيعنا ... كما كنت في قحط البلاد لها القطرا

وقد كنت تمشي مثقلاً بعلومها ... فمن آل طه تحمل العلم والسرّا

فعلم وتقوى والجموع شهيدة ... وإقدام أبطال بثورتنا الكبرى

ألا أيّها الصديق أوضح لنا الأمرا ... أهذي علامات الظهور أتت تترى

أم الأمر فينا قد تجاوز ظاهراً ... إلى علم من حاطوا بفاطمة الزهرا

ولو أنّني جاوزت قدري فلا يكن ... جوابك لي لن تستطيع معي صبراً

ففي كلّ يوم نادب جاء مؤلماً ... وقد ضقت من يومي ومن ليله صدرا

فذاك رأى من رأسه الطير آكلاً ... وإنّي أراني أعصر الجمر لا الخمرا

وعصر به تحيا يُولّى شرارها ... فتقبض في كفّيك من كفّه الجمرا

وتعلن أنّ البعث قد كان ظالماً ... وتأذن للمظلوم أن يأخذ الثأرا

فتنعش أفراخاً وتؤوي مشرّداً ... وتدرك ملهوفاً وغيرك لن يجرا

وتقدم إقدام الغيور محافظاً ... على ثروة الماضين حرصاً بها فكرا

برغم ظلام الليل يعصر فوقنا ... سواداً يغطّي الأُفق والنخل والنهرا

فهذا عليّ والحسين ومَن همُ ... لنا الفخر دوماً إن نريد بهم فخرا

ينادون من غمّ هناك فأينهم ... طلائع أقوام لهم أوفت النذرا

أتُقتل ناس أو تشرّدُ بينكم ... ولا ذنب إلّا أنّها شيعة المسرى

أيُقتل شيعي وأنتم حماته ... تعالوا على الإسلام نبكي بكيَّ مرّا

ويُقتل أعلام لهم دون منكرٍ ... بسمّ وسيف يرفد الحقد والكفرا

وواحدهم لاءٍ بكرسي قدره ... كأنَّ بهم صمّاً وإنّ بهم وقرا

فذي كربلاء الطهر أو نجف العلا ... وأرض لسامرّا وكاظمة عبرى

لها عند أرض الخير من تجفٍ صدى ... يلاحقنا حتّى الممات أسىً جهرا

تنادي أيا مَن عشتمُ فوق تربتي ... وأحشايَ قد ضمّت أحبّاءكمْ دهرا

ضريح عليّ عليه السلام قد تسود كلّه ... بقنبلة جاءت وقنبلة أخرى

أناديكمُ والنار تأكل جنّتي ... ومَن كان فيها آمناً أكلة حرّى

مغيرةً تاريخ عزّ أعيشهُ ... وتبغي بكم قلبي أيا شيعتي غدرا

فهل أهلها قد طلّقوها بعزّها ... وقد منحتهم ثديها عاصراً درّا

لقد طلّقوها رغم ما قدّمت لهم ... وأعلت لهم شأناً وأبقت لهم ذكرى

ولما تراءت في أتون خبيثها ... تأزُّ لهم أزّاً أداروا لها ظهرا

وإلّا فأين الحبّ لو كان حبّها ... بقلب فتى يبغي الوصال إذا برّا

بيوم كريهات تئنُّ بحسرة ... وتشبك فوق الرأس من حزنها عشرا

سأشكو إلى الباري قساة قلوبكم ... وأدعو عليكم بالثبور وذا أحرى

فيا نجفي عذراً ولا تقبلي العذرا ... فكلٌّ له ليلىٰ بها حقّق الضُرا

ديار عليّ عليه السلام لفّها القُتم من عنىً ... ديار عليّ عليه السلام قد طوى قُتمها الفجرا

إذا ما عليّ عليه السلام صار فرداً بأمّة ... تقلّبها الأهواء لم تطع الأمرا

فهذا عليّ عليه السلام نفسه صار مفرداً ... يحاصره الشيطان في رهطه حصرا

فإن دمعت عيني لرزئك وانثنت ... إلى القلب تستعطيه إنّ لها العذرا

أُعلّل نفسي بعدها من كتابةٍ ... بيسرين جاءا يغلبان لنا العسرا

بـــمثلك بــاهت أُمّـــة أدّت الوفـــا ولم يـلهها مـال ولم تُـحكِم القـصرا
فـأرّخ «لقـد أسرى بك الله سـائقاً إلى جنّة المأوى (فسبحان من أسرى)»[1]



(١) مستفادة من الملّف المخطوط لمجلّة الموسم.

على مسرح الدم

مؤلّف الكتاب / ١٤١٤هـ

سيّدي إنّ فجرك الوضّاءَ طاول الشمس رفعة وبهاءَ
فأفض من سناك شعلة قدس نورها يملأ الوجود ضياء
إنّ دنيا ملأتها من معانيك ستبقى تطاول الجوزاء
وسيبقىٰ صدىٰ لذكراك يغلي ستجاري أيّامه كربلاء

على ضفافك قد ألقيت مرساتي في كنه ذاتك قد تاهت رؤى ذاتي
أتيت معناك أستجليهِ يملؤني شوق فعدت كأنّي لم أكن آتِ
فإنّ معناك سرٌّ لست أبلغه وكيف للنقص يرقىٰ للكمالات
تمرّ ذكراك والآلام تعصرها جرحاً تفرّد في دنيا الجراحاتِ

بالدم المطول كلّلت الجراحا فانبرت والحقّ يكسوها وشاحا
إنّ جرحَ الصدر لو غيّبه شبحُ الليل سينشقّ صباحا
ودم الخوئي لا زال علىٰ جبهة التاريخ يجتاح الصفاحا
وجراح السبزواري رؤىً هزّت البعث ولم تعبأ سلاحا

حطّم القيد وانتفض يا عراقُ فدم الطفّ لا يزال يراقُ
وقيود الظلام قد طوّقت أُفقك إذ غاب نجمك البرّاق
وعلى «الرافدين» قد خيّم الجدب فقد جفّ نبعها الدفّاق

هكـذا قـمّة الشـموخ تـهاوت فـتهاوى لواؤهـا الخـفّاق

سأرويك للتاريخ بالدمعِ والدمِ فلحنك أحلى ما يغنّىٰ على فـمي
سأرويك فكراً نـيّراً قـد تـمايلت غصونُ رؤاه فوق عـالمنا الظـمي
سأرويك جرحاً ثائراً فـي دروبـنا فـأنت حسيني وللـطفّ تـنتمي
سأرويك للـتاريخ مـحض روايـة يلحنها شعري ويشـدو بـها فـمي

حرّك الخطو يا عـراقَ البـطولات وفـجّر بـركانك الدمـويا
وانـتفض يـا سكـون وانشـر لواءً للـمفتوحات لا يـزال نـديّا
فـيه نـفحٌ مـن حـيدر وأريجٌ خـمـيني يـحرّك الأريـحيّا
إنّـه بـيرق الفـتوحات يـزدان بكفّ السبزواري عـزمةً ومـضيّا

عـند ذكـراك يستفيق الوجـودُ كـيف يغفو؟ وشأنها التجديدُ
كيف يغفو؟ وألف جرح بذكراك تـدوي ومـن دمـاك الوقـود
يا شـذا سبزوار يـا ألق الذكـرى ويـا نـجم أفـقنا يـا شـهيد
أنت عـقد قـد زيّـنته المـعالي وهـي فـي كـلّ بقعة لك جـيد

نعيُ الشموس

الأستاذة: أمّ أحمد آل سيف / القطيف

مرّ الرباب على روحي فحيّاها | وباقة من ورود الخلد أهداها
فأرسلت طرفها الظمآن والهة | فأرّجت قلبها من طيب رياها
ذوائب السحب آهات لثاكلة | بحمرة الشفق المجروح حناها
ما للرباب أبازي الشيب جلّله | وهل جروح له بالروح أخفاها
أمهلْ وقل ليَ هل مرّت بكم طلل | مرّ الزمان بسكناها فعفاها
من أين أقبلتَ هل ترسو بمرفئهم | وهل زوارقكم قرّت بمغناها
فانهلّ وابله دمعاً فأذهلني | إلى العراق نحونا ثمّ عقناها
ماذا بربّك هل عرجت في وطن | سماؤه لا تواري شمس دنياها
هل اكتحلت بمرأى الشمس ترنو لها | تلك النجوم كهالات بمسراها
عفّرت وجهك في تقبيل أنملة | لخير من وطأ الأعواد أرقاها
سود العمائم هل حفّت بهم حلق | لترتوي من رضاب المصطفى طه
اِنفضْ مرابعهم بالفكر عامرة | وانظر جوامعهم والفقه أعلاها
إنّي لأذكرهم دوماً وأرقبهم | شوقاً لهم مهجتي يهتزّ جنباها
أشتاق تسبيحةً هامت بروضهمُ | من ساجد ذاته في الله أفناها
تلك القباب ألا تهفو لزائرها | فيكتسي حلل الأنوار برداها
واويلتاه نعاها هل بقيْ قمرٌ | حتّى تضيء له شمس عشقناها
فراعني صوته ينعى شموسَهمُ | أتى الكسوف على الأقمار غشاها
ردي يديك بخيباتِ فلا أمل | لا ترقبي من نجوم العلم لقياها

أبكي فلا أحد يبكي لفقدهمُ فذا قتيل وذا في قيد أسراها
وذاك قد هجرَ الأوطان مرتحلاً من ذلّ طاغ رجال الدين آذاها
والهفتاه أواحزناه قطّعني نعي الشمس وهل يجدي البكا واها
ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم بأُولاها وأُخراها
شرّدتمُ عترتي في كلّ ناحية فلا تقلّهمُ أرض بدنياها
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم فأبشروا بلظاها يوم عقباها
فيا له يوم خزيٍ لا تنال به شفاعة المصطفى المختار أرضاها
إلّا لمن رضي الرحمٰن بيعته يوم الغدير لمولاها وأتقاها



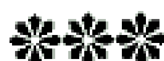
أطبقت جفنك يا قمر

الشيخ عبدالمجيد فرج الله / العراق

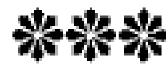
أطبقت جَفنَكَ يا قمرْ ... ومضيتَ تبسمُ للقَدَرْ
مهلاً فدى نظراتِكَ الـ ... ـخضراءِ أفئدةُ البشرْ
مهلاً فإنّ جراحَنا ... حُبلى بأوجاعٍ أُخَرْ
مهلاً فإنّ قلوبَنا ... عطشى وأنت لها نَهَرْ
مهلاً فإنّ ربيعَنا ... عصفٌ وأنت له زَهَرْ
مهلاً فإنّ دموعَنا ... مَطَرٌ يذوب على وتَرْ



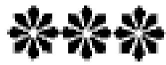
أطبقتَ جفنَكَ يا قمرْ ... والأرضُ ناكسةُ الشجرْ
وذهبتَ وحدَكَ هادئاً ... كالطلِّ نقَّطَهُ السحَرْ
آهٍ.. توقّفْ، لا تُطيـ ... ـقُ نفوسُنا هذا السفرْ
يا أيّها القمرُ الحبيـ ... ـبُ الليلُ يُنذِرُ بالخطَرْ
والوالهونَ.. الحبُّ ذوّ ... بَهم، وأشواقُ الذِّكَرْ
رفقاً بنبضاتٍ تلو ... بُ وليس يعلمها بشَرْ
تشتاقُ وجهَكَ أيّها الـ ... ـماضي كحبّاتِ المطَرْ
آهٍ.. توقّفْ أين تمـ ... ـضي؟ الأرضُ أوحشُ مستقرْ
الأرضُ لا تقوى تضمُّ ... سناءَ وجهِكَ يا قمرْ



أطبقتَ جفنَكَ يا قمَرْ والساهرون بلا سمَرْ
أعمتْهُمُ الدمعاتُ لا هبةً، على طولِ السهرْ
والهجر، آوِ لا يُطا قُ، وهل تُطاقُ لظى سقرْ
حامتْ على بُقيا سنا ك، ملائكُ الطهر الغرزْ
تمضي بروحِكَ للجنا نِ تزفُّها أيُّ السورْ



يا سبزواريُّ: الرؤى والحبُّ والغدُ والفِكَرْ
والأُمنياتُ، وسحرُها أودى ببهجتها الخبرْ
يتوثّبُ الألمُ المريـ ـرُ بها.. وما فيها أمرْ
غابت عن الأُفق النديّ حزينةً تلك الصورْ
واظلمّت الأحلامُ ذا بلةً على زمنٍ هجرْ



طيفاً يودّعُ صحبَهُ قد مرَّ وجهُكَ.. قد عَبَرْ
آوِ.. توقفْ أين تمـ ـضي؟ الأرض أوحشُ مُستقرْ
الأرض لا تقوى تضمُّ سناءَ وجهِكَ يا قمرْ[1]

٢٧ / صفر / ١٤١٤هـ

---

(١) أناشيد لعيون الورد: ٢١٥.

رشحات من الحزن الكامن

الأستاذ: فؤاد شنون / العراق

نـفسُ جدّي فـللمنايا صـليلُ بـارقات المنى عـليها تسـيلُ
آخــذات بـأنفس العـزّ مـنّا فـإذا الأكـرم الأعـزّ ذليـلُ
نــاطقات بــألسن ذلقـات أخرسُ الخلق عـندهنّ القـؤولُ
نــاشرات لأذرع قــابضات بـأكـفّ القـضاء مـا يستحيلُ
جــارحـات القـلوب بـالأسهم السـود تـباعاً كـأنّهنّ السـيولُ
أي طـرف يـبيت منها قـريراً أي نـفس لم يكـتنفها الذهـولُ
ومـصاب مـا قـارنته الرزايا هو في الأرض والسماء جـليلُ
جفّ نبع الإيـمان فيه وهُدّت حـلقات الكمال فـهي فـلولُ
والمعالي قد اقشـعرّت وهُزّت شـرفات الإلهـام فـهي مـحولُ
واستبيحت معاقل الديـن حتّى كـاد يـنسى التكـبير والتهليلُ
ورقـاب التـوحيد فـيه أذلّت ورقـاب الأشـراك صعّر ميلُ
عـبثاً نـذرف الدمـوع ومـاذا؟ أيـردّ القـضاء مـنّا العـويلُ
ليس حـزناً مـا حـللته دموع أن حـزن الهـدى عـليه طـويلُ
يا شـعاع الحسـين يـابن عـليّ أوشجت للعروق مـنك البـتولُ
جـوهر مـن قـداسة وشـروق وسـداد عـلى الهـدى مـجبولُ
حـلقت فـيك مـن قـوادم المـجد فـروع مـن التـقى وأُصـولُ
واهب الدرّ و«المـواهب» قـدماً قـام فـيها عـلى عـلاك الدليـلُ

وصراط علا «المهذّب» فيه   طرفاه التنزيل والتأويلُ
يا منير العقول بالعلم عطفاً   سوف تمضي على هداك العقولُ
يا شفاه التسبيح يا روح قدس   سامراك الدعاء والترتيلُ
في بحار النور العليّ عليّاً   كنت فذّاً لا يعتريك النزولُ
مستمدّاً من الجلال فيوضاً   كان منها كما تشاء المثولُ
حنّ محرابك الزكي اشتياقاً   لدموع في جانبيه تسيلُ
ينظر الخلق منك جسماً شفيفاً   قد براه تململ ونحولُ
قارعتك السنون وهي شداد   وعلى أصغريك منها كبولُ
لهف نفسي على اليراع المجلي   وبنان للمعجزات يؤولُ
أي علم حملته أي صدرٍ   فيه سرّ النبيّ بات يجولُ
آه يا لحظة السكون رتقتِ العلم فذاً فأطفئ القنديلُ
وسجرتِ الأوار في كلّ قلب   بالجراحات حين جدّ الرحيلُ
وطويتِ الصباح غضاً ندياً عطراً فاعتراه منك الذبولُ
أكذا يُقتل العلاء ويجني   ومضات النبوغ منك الأفولُ
أكذا تصرع المعارف فينا   أكذا المكرمات عنّا تزولُ
أيّها الباعث الهداية فينا   قد بكاك المعقول والمنقولُ
وبكاك الإسلام وهو جريح   ونعاك الإيمان وهو عليلُ
حسبنا الله في افتقادك إنّا   قد صبرنا والصبر أمر جميلُ
نفحة النور صوّرتك اختياراً   وإليها قد كان منك القفولُ[1]

---

(١) مستدرك شعراء الغري: ٢/٢٨٢.

يا سيّد الصمت

سماحة السيّد ماجد خان / العراق

وقـفتُ ببابك تستزيد جـلادا ... ولأنت خـير المـلهمين سـدادا
والكون أطبق في الضلوع ظلامُهُ ... والقلب أصبح فـي البـلاء رمـادا
خرساء في جثث الكلام فصيحة ... وتصيح صمتاً في الجوانح سـادا
تـقتات مـن ألم الشـجون وليـله ... وتـفرّ نـحوك بـالهموم طـرادا
يـا أي جـرح قـد ألم بـخافق ... عشق الجـراح بجسمه فـتمادى
وقفت ببابك كيف ينكر وجـهها ... ولأنت أغـنيت الشـعور مـدادا
أتراك تسمع كيف يعلو صـوتها ... وتفرّ من سـوط الرحـيل فـرادى
يا أيّها المحمول في وسط الدجى ... أضـناك دهـري بـالعذاب وزادا
يـا سيف فكـر لا يـعانق غـمده ... كيف ارتضيت مع الدجى إغمادا
وقفت ببابك يـا لبؤس وقـوفها ... لبست ثياب العمر فـيك حـدادا
يـا رائـد الحـقّ المؤرق جـفنه ... لا يـسـتطيع النـوم مـنك قـيادا
جـاءتك ثكـلى تـستقيك فـإنّها ... ظـمأت وكـنت مـؤمّلاً إرفـادا
من بعد أن خطف الظلام بدورها ... وسرى يـجرّ مـع الهـموم سـهادا
كانت سترتع في ظلالك سيّدي ... فـإذا بـطير للـحوادث عـادا
أبـقيّة المـاضين يـا سـبب الحيا ... مـن أيـن نـأمل أن نـنال رقـادا
الآن خـفّ المـلهمون بـأرضها ... حـتّى لقـد عـاد الغـريّ وهـادا

صرخت تريدك تستجيب صراخها ... يا سيّد الصمت الذي قد زادا

يا نعشك الملكي تحمله الملائكة الكرام وتجتليه مرادا

وتطوف حولك كالحجيج ملائك ... فكأنّك البيت العتيق تهادى

جفّت عيون العلم بعدك والورى ... لا يعرفون لجرحهم إضمادا

يا راحلاً قصد الجليل ركابه ... وقد امتطى ظهر الخلود جوادا

وقفت ببابك قد علمت بجرحها ... قطع الرحيل لصبرها الأوتادا

هي بالعيون شكاتها وكلامها ... هي إذ تمنّت ريعك المرتادا

هي لم تبثّك بالهموم هنيهة ... حتّى ترصدك الردى إرصادا

دارت مع الأيام ترسم رزءها ... كان الزمان مع البلاء معادا

وذهولها المملوء حيرة عاشق ... وعويلها المخنوق كان عنادا[1]

---

(١) مستدرك شعراء الغريّ: ٣١٢/٢.

دموعُ الرثاء

يـا ثـريا نـار الوداع تـلظّت　　　وعـلى الراحـلين لذّ البكـاءُ

وبـصدر الغـريّ غُيِّبَ نـجمٌ　　　ألمـعيّ يشـعّ مـنه السـناءُ

فـالغريُّ الثريُّ أغـرى الثـريا　　　فـتهاوت نـجومها الغـرّاءُ

عُـلَما أمّـةٍ إذا غـاب مـنهم　　　فـرقد سـاطعٌ يـظلُّ الضـياءُ

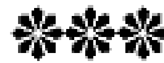
قد علا شأنهم فإنْ سارَ مـنهم　　　كـوكبٌ للسما بكـتهُ السماءُ

يتباهى الغـريّ فـي بـاب عـلم　　　نـزلت عـند دارهِ الجـوزاءُ

ومـن الدار رنّـة وعـويلٌ　　　وعـلى الدار رايـةٌ سـوداءُ

وبحزنٍ بجانب (الطور) نـادى　　　نادِبُ العلمِ: أفجِعَتْ (سَيْناءُ)

فالذي غاب بدر علم مضيءٌ　　　تـتقيّا ظـلالَهُ الفـقهاءُ



شـعراءَ الرثـاء لا تـعذلوني　　　لو تـسـاءلتُ أيّـها الشـعراءُ

قد سألتُ الغريَّ عـن دار عـلم　　　نـهلت مـن غـديرها العـلماءُ

أتـعود النـجومُ للـدار نـوراً　　　فـبذي الدار تـمبث الظـلماءُ

وسـألت القـصيدَ سقيَ رثـائي　　　رشـفةً يـستسيغها الأدبـاءُ

فقرعت الأبواب من غير جدوى　　　بـعد أن بـانَ مـنّي استجداءُ

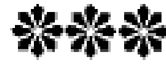
ووجدت القصيد يبكي بـحوراً　　　عـجباً لمْ بـحورُهُ حـمراءُ

فـأجابَ الثكـول هـذا عـزائي　　　فـجراحـي نـديّة خـضراءُ

قد بكيت (الخوئيّ) قبلاً بعجزي　　　وبكى (الصدرَ) صدريَ المعطاءُ

ودمـوع الرثـاء ليست تـوفي　　　حـين تـبكي قـصيدةٌ عـصماءُ

شركاءَ المصابِ عذراً لعجزي عن رثاءٍ وأين منّي الرثاءُ
فالذي تندبون كان عظيماً عجزت عن رثائه الأُدباء



سبزواريُّ في محيايَ ثغرٌ نطقت في رضابه الخيلاءُ
نطق الحبُّ مفصحاً عن وليٍّ وبذكرى الغدير هلّ الولاءُ
حين في سبزوار أشرق بدرٌ وبعيد الغدير شمعٌ يضاءُ
وجلالُ الغديرِ يكسوه ثوباً من بَهاءٍ يغارُ منه البهاءُ
ولبحر الغدير قد مدّ دلواً وبهذا الخضّم مُدَّتْ دلاءُ
ودلاءُ الفقيه فاضت علوماً لعطاشى وإنّه السقاءُ
وظلالُ القرآنِ فاءَتْ عليهم ومن الله فاض هذا العطاءُ
فلعبد الأعلى مآثر شتّى يتناهى لعدّها الإحصاءُ
فكنوز العرفان فيه تجلّتْ وهي لغزٌ لغيرهِ وخفاءُ
وتجلّى الإيمان بالله حقّاً وسِماتُ العرفان فيه جَلاءُ
سبزواريُ أنت حيّ شهيدٌ فذووا العلم دائماً أحياءُ
قد عبدتَ الأعلى وحزتَ يقيناً وجزاءُ الإلهِ نِعم الجزاءُ
قد عبدتَ الأعلى فرحتَ شهيداً فرحتْ في قدومِهِ الشهداءُ
فبكاك الحسينُ والحسنُ السبط أخوه وفاطمُ الزهراءُ
وبكاك الرسولُ إذ قال حقّاً ثلمتْ ثلمةٌ فكيف العزاءُ؟[1]

---

(١) عثرنا عليها غير منسوبة لأحد في أحد المنتديات الانترنيتيّة، فلم نعرف قائلها.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المَصَادِرُ

١

إحياء علوم الدين

(١ ـ ٥)

أبو حامد الغزالي

ط. ٣ / بيروت

٢

إرشاد العباد

إلى استحباب لبس السواد

السيّد الميرزا جعفر الطباطبائي ﷺ

ت : السيّد محمّدرضا الأعرجي

المطبعة العلميّة ـ قم المقدّسة

ط. ١ / ١٤٠٤هـ

٣

أصول الحديث وأحكامه

الشيخ جعفر السبحاني

مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم المقدّسة

ط. ١ / ١٤١٢هـ

٤

أُصول الفقه

(١ ـ ٤)

الشيخ محمّدرضا المظفّر

مؤسّسة إسماعيليان ـ قم المقدّسة

ط. ٥



٥

أفغانستان تاريخها ورجالاتها

الشيخ حسين الفاضلي

دار الصفوة ـ بيروت

ط. ١ / ١٤١٤هـ

٦

أناشيد لعيون الورد

الشيخ عبدالمجيد فرج الله

دار السيرة ـ بيروت

١٤١٧هـ

٧
بحار الأنوار
(١ ـ ١١٠)
العلّامة المجلسي ﷺ
مؤسّسة أهل البيت ﷺ
بيروت / ١٤١٠هـ

٨
بحوث في علم الرجال
الشيخ محمّد آصف محسني
قم المقدّسة
ط. ٤ / ١٤٢١هـ

٩
التشيّع والتصوّف لقاء أم افتراق
إنعام أحمد قدوح
مركز جواد ـ بيروت
١٤١٤هـ

١٠
تهذيب الأُصول
(١ ـ ٢)
السيّد السبزواري ﷺ
الدار الإسلاميّة ـ بيروت
ط. ٢ / ١٤٠٦هـ

١١
جذوة مقتبسة
من حياة السيّد السبزواري ﷺ
الشيخ محمّدحسين الأنصاري
قم المقدّسة
ط. ١ / ١٤١٤هـ

١٢
جلاء البصر في تراجم
مجتهدي القرن الرابع عشر
(١ ـ ٣)
السيّد محمّدرضا الأعرجي ﷺ
(مخطوط)

١٣
جمال السالكين
السيّد حسين نجيب محمّد
دار المحجّة البيضاء ـ بيروت
ط. ١ / ١٤٢٣هـ

١٤
الحدائق الناضرة
(١ ـ ٢٥)
الشيخ يوسف البحراني ﷺ
مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم المقدّسة

١٥
الحكمة المتعالية
في الأسفار العقليّة الأربعة
(١ ـ ٩)
الملّا صدرالدين الشيرازي ﵀
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت
ط. ٢ / ١٩٨١م

١٦
حياة السيّد الحكيم ﵀
السيّد أحمد الحسيني الأشكوري
ط. ١ / النجف الأشرف

١٧
حياة مرجع المسلمين
الإمام السبزواري ﵀
الشيخ عبّاس المحروس

١٨
خطيب العلماء
السيّد صدرالدين القبانچي
قم المقدّسة
ط. ١ / ١٤١٦هـ

١٩
الذريعة إلى تصانيف الشيعة
(١ ـ ٢٦)
الشيخ آقا بزرك الطهراني ﵀
دار الأضواء ـ بيروت
ط. ٣ / ١٤٠٣هـ

٢٠
الروائع المختارة
من خطب الإمام الحسن ﵇
السيّد مصطفى الموسوي
دار المعلّم ـ طهران
ط. ١ / ١٣٩٥هـ

٢١
شذرات
من حياة السيّد السبزواري ﵀
السيّد منير الخبّاز

٢٢
ظاهرة الغيبة ودعوى السفارة
الشيخ محسن آل عصفور
مكتبة الريف الثقافيّة ـ البحرين
١٤١٢هـ

٢٣

العرفان

الشهيد المطهّري

ترجمة: عبّاس نورالدين

دار المحجّة البيضاء ـ بيروت

١٤١٣هـ

٢٤

علم الأخلاق.. النظريّة والتطبيق

الشيخ محمّد الخاقاني

دار ومكتبة الهلال ـ بيروت

١٩٨٧م

٢٥

علماء ثغور الإسلام

(١ ـ ٢)

السيّد عبّاس عليّ الموسوي

دار المرتضى ـ بيروت

ط. ١ / ١٤٢١هـ

٢٦

لبّ اللباب

في سير وسلوك أُولي الألباب

السيّد محمّدحسين الطهراني

دار التعارف ـ بيروت

١٤١٢هـ

٢٧

لسان الصدق

عادل الكعبي

دار الأوسط ـ بيروت

ط. ١ / ١٤٢٧هـ

٢٨

مجلّة قضايا إسلاميّة

(العدد ٢)

إصدار مؤسّسة الرسول الأعظم

قم المقدّسة / ١٤١٦هـ

٢٩

مجلّة مرآة الكتب

(العدد ١٧)

المحرّر: السيّد محمود الغريفي

٣٠

مجلّة الموسم

(عدد مخطوط)

المحرّر: محمّدسعيد الطريحي

٣١

مجلة النور

تاريخ العدد: ١٤١٤/٣/٢٨هـ

إصدار مؤسّسة الإمام الخوئي ـ لندن

٣٢

المحجّة العظمى في
شرح العروة الوثقى (كتاب الصلاة)

السيّد جمال الدين الحسيني الاسترآبادي

مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف

٣٣

المحجّة العليا في
شرح العروة الوثقى (كتاب الخمس)

السيّد جلال الدين الموسوي اليزدي

مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف

١٣٨٢هـ

٣٤

مستدرك شعراء الغريّ

(١ ـ ٣)

كاظم عبود الفتلاوي

دار الأضواء ـ بيروت

ط. ١ / ١٤٢٣هـ

٣٥

مشاهير مدفون در حرم رضوي

إبراهيم زنگنه

مطبعة آستان قدس رضوي

مشهد المقدّسة

ط. ١ /١٣٨٢هـ. ش

٣٦

المعالم الجديدة للأُصول

السيّد الشهيد محمّدباقر الصدر

دار التعارف ـ بيروت

٣٧

معجم رجال الفكر والأدب
في النجف

(١ ـ ٣)

الشيخ محمّدهادي الأميني

دار الكتاب الإسلامي ـ بيروت

ط. ٢ / ١٤١٣هـ

٣٨

منتقى الأُصول

(١ ـ ٧)

السيّد عبدالصاحب الحكيم

مطبعة الهادي ـ قم المقدّسة

ط. ٢ / ١٤١٦هـ

٣٩

منتهى العناية في شرح الكفاية

السيّد محمّد الفيروزآبادي

منشورات الفيروزآبادي ـ قم المقدّسة

١٤١٨هـ

٤٠

مهذّب الأحكام

(١ ـ ٣٠)

السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ

مؤسّسة المنار ـ قم المقدّسة

ط. ٤ / ١٤١٦هـ

٤١

مواهب الرحمٰن في تفسير القرآن

(١ ـ ١٢)

السيّد عبدالأعلى السبزواري ﷺ

مؤسّسة المنار ـ قم المقدّسة



٤٢

موسوعة مؤلّفي الإماميّة

(عدّة أجزاء)

إصدار مجمع الفكر الإسلامي ـ قم المقدّسة

ط. ١ / ١٤٢٠هـ

٤٣

وسائل الشيعة

(١ ـ ٢٠)

الشيخ الحرّ العاملي ﷺ

منشورات المكتبة الإسلاميّة ـ طهران

ط. ٦ / ١٤٠٣هـ

٤٤

يادنامه

حضرت آية الله العظمى القائيني ﷺ

الشيخ علي الفاضل القائيني

انتشارات آل فاضل ـ قم المقدّسة

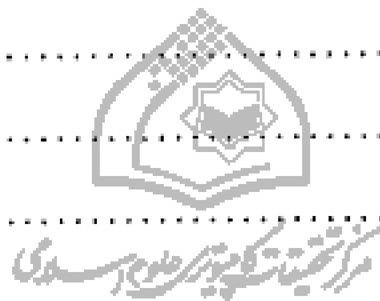
١٤٢٣هـ

المحتويات

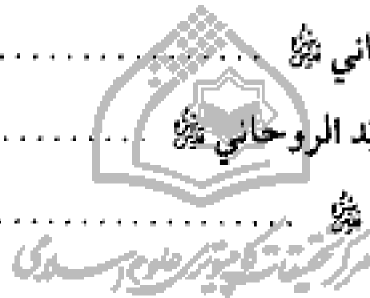


الفصل الأوّل

الفَصلُ الثّاني



فهرس الهوامش




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

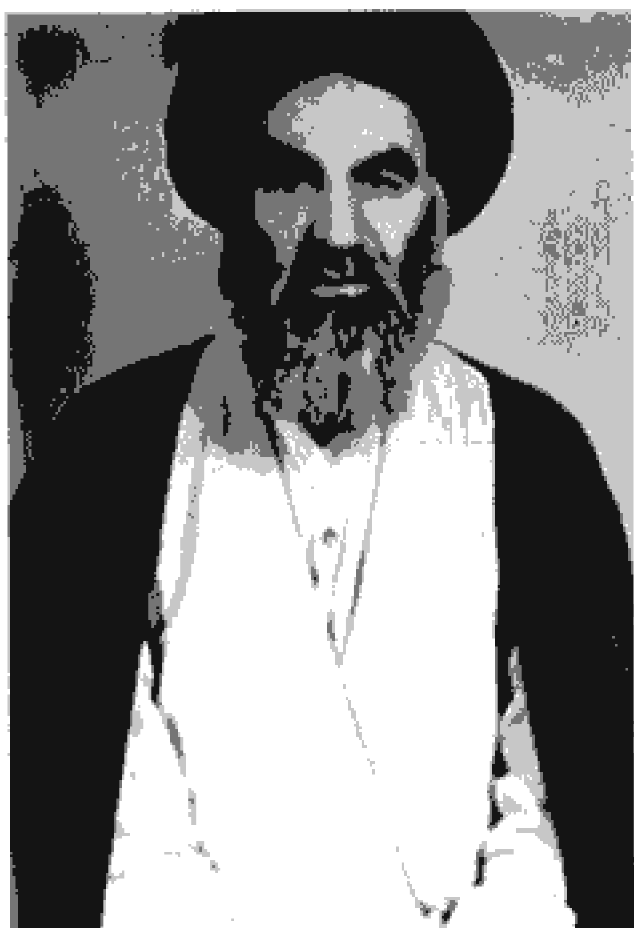
ملحق الصور



بريق ثفنات النور



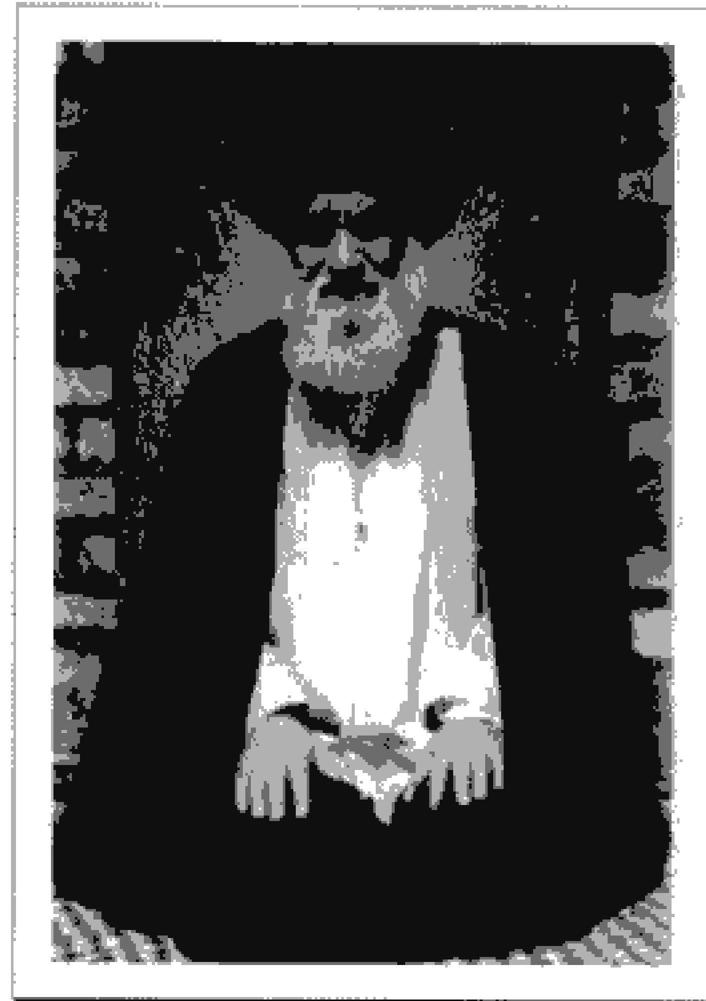
أخذ على نفسه منذ شبابه أن يكون
من أصحاب اليمين



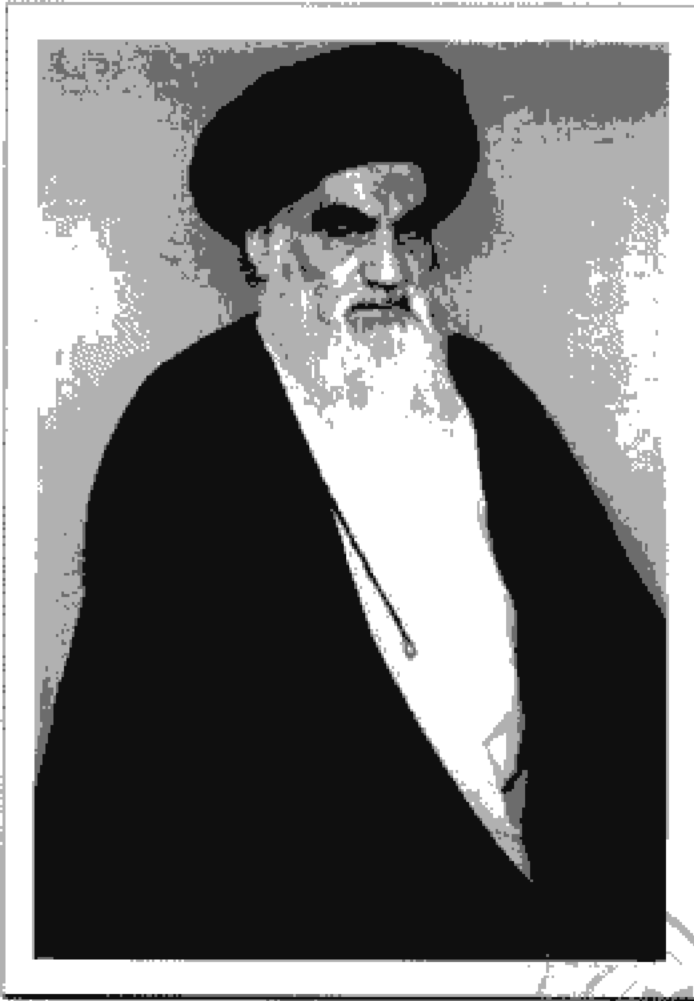
الكهولة خطوة في طريق الكمال



القدّيسان السبزواري والبهشتي يجمع بينهما شيخ قدّيس



شعرات بيض بها يدفع الله البلاء



إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله



ما أجمل القمر إذا أحاطت به النجوم



إنما يخشى الله من عباده العلماء



بيت تواضع هيكله و أثاثه
ولكنه يعبق بروائح الجنة

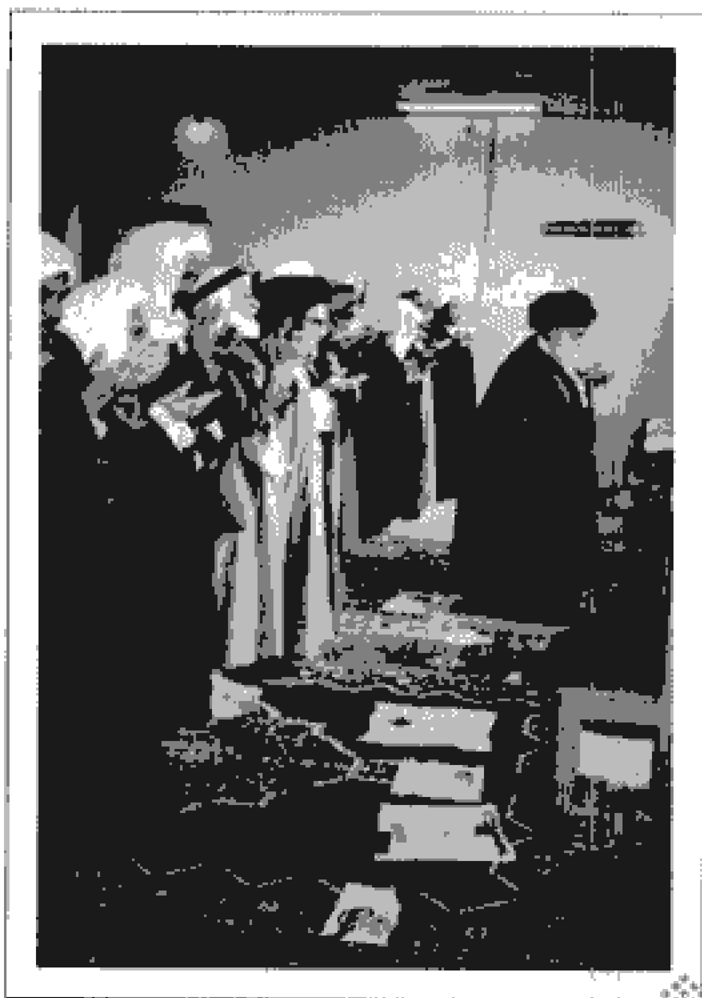




المرجعان الكبيران الخوئي والسبزواري تظللهما أجنحة الملائكة



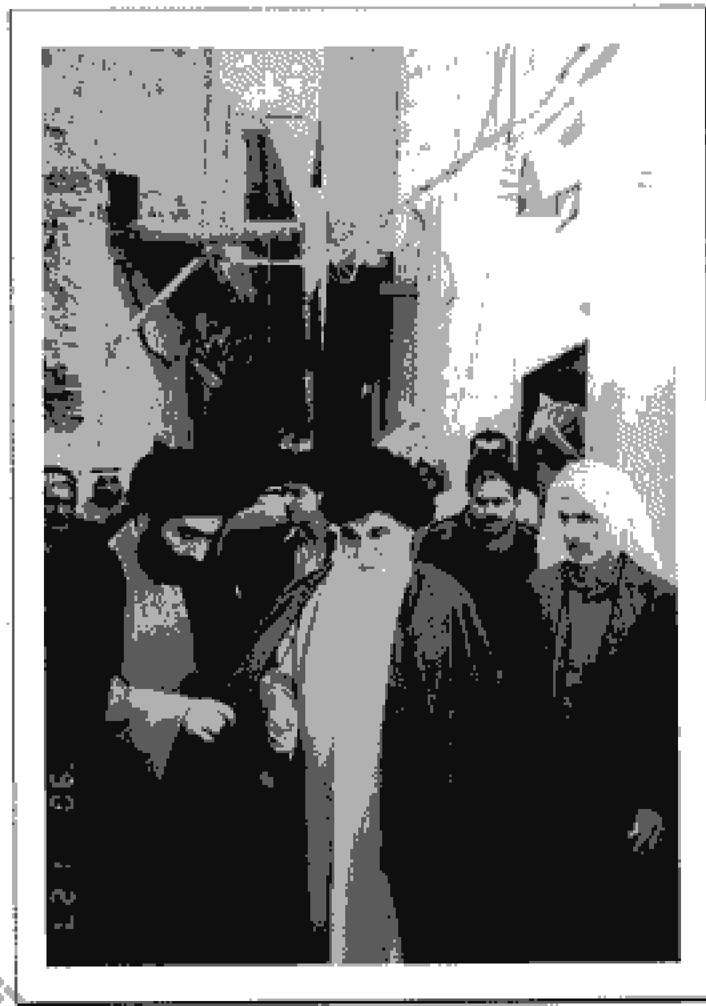
هكذا يرتدي العرفاء ثوب الخشوع



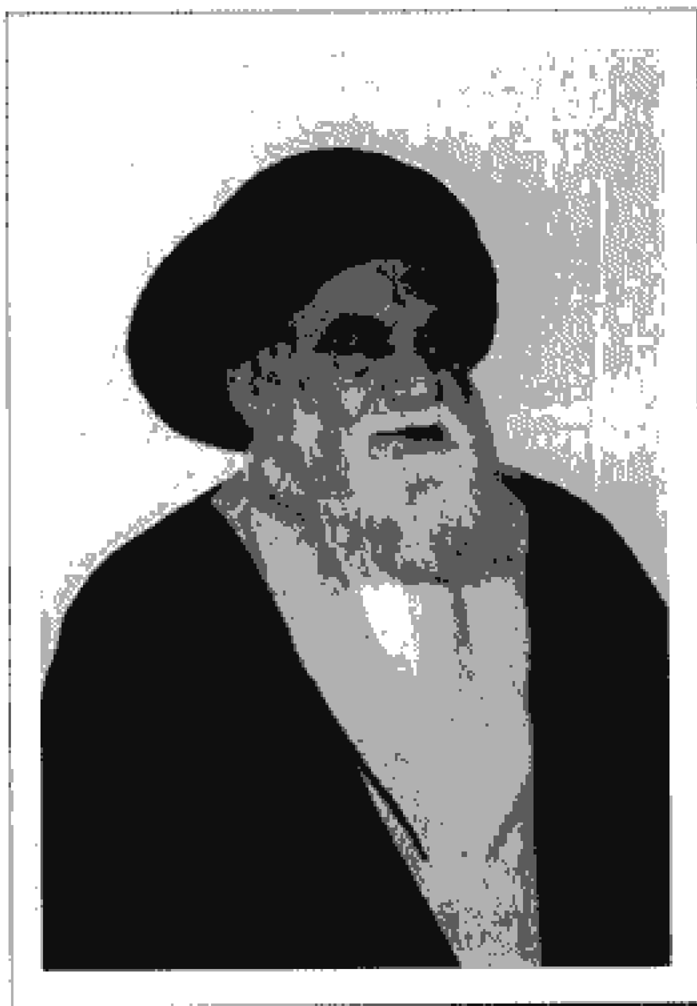
لحظات عروج الحبيب إلى أعظم محبوب



مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء



نظرة واحدة لهيكله النوراني تكفي لارتقاء الروح إلى مراقي العشق والعبودية



ابتسامة الأنبياء تعلو قسمات وجهه النوراني

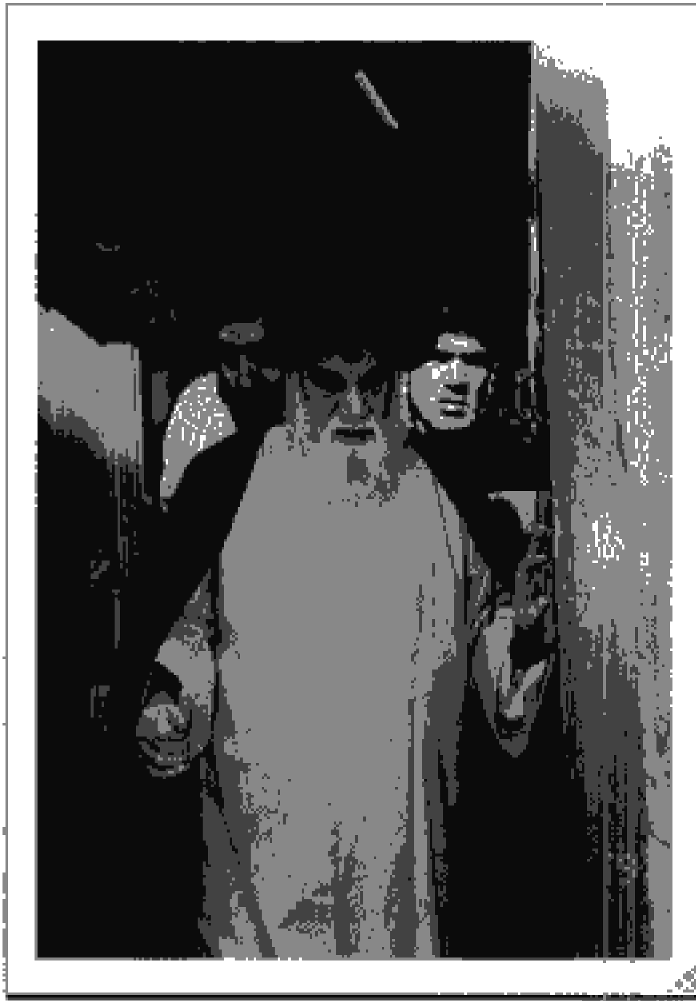




تزداد بهاءاً و رونقاً تيجان العلم بملامسة كفيه المباركتين



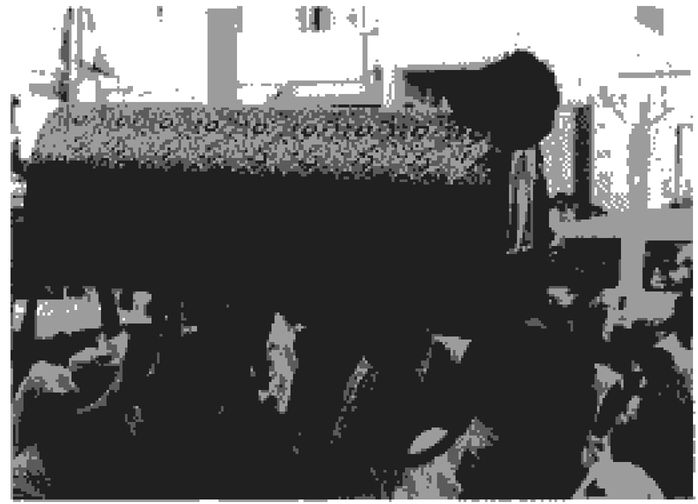
عند الانقطاع من الخلق إلى الحق
تتجلى الرهبة والخشوع



أجنحة الملائكة تخفق تحت
رجليه وهو خارج من مصلاه



ليث يحف به شبلان من أشباله الثلاثة



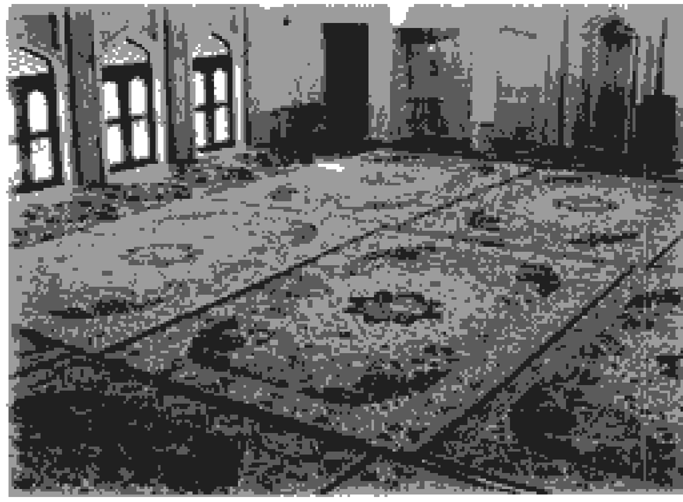
سواعد خرمت من تشييعه في ظلال حرم جده أمير المؤمنين
فشيعته تشييعاً رمزياً بجوار الصديقة الحوراء زينب



أبناء النجف الأشرف في قم المقدسة يأبون إلا تشييع
مرجعهم الكبير و لو تشييعاً رمزياً



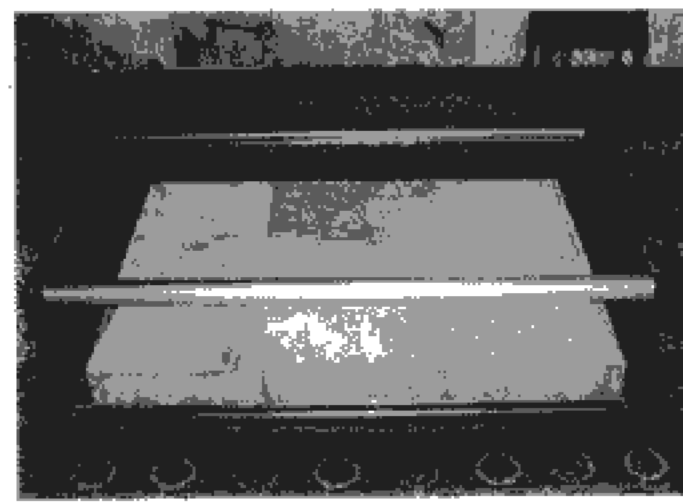
قبة مسجده الشريف



أنفاسه المباركة تفوح بشذى العرفان في أفياء مسجده



شلالات قداسة الروح تتدفق على المرقد الشريف



هالة البهاء تطوق المرقد الطاهر